الـواوي
رواية لـ زيد عمران

الـــواوي

رواية لـ زيد عمران

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف©
لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية سهى المحمدي

الإهداء:

إلى الذين يحاولون بجديَّة أنْ يكونوا أبطال روايَتهم الشخصيّة، والتوقف عن كونهم شخصيَّات ثانويَّة هامشيّة في قصّةِ بطلٍ قادمٍ من رواية أخرى.

اخترعنا الوهم، لأن الحقيقة مرعبة، ثمَّ اخترعنا الفنَّ كي نتقبل حقيقة الوهم.

– زيد عمران

الفصل الثاني

ما أن سمعتْ **رويدا** الخبر حتى نزلتْ من على بطن **ديفيد**. تركتْ السرير، جلستْ على الأرض، وراحتْ تراقب لقطات التشيِّيع من التلفزيون الموضوع على منضدةٍ حجريةٍ ملاصقة للحائط أسفل سرير نومها.

نزل **ديفيد** ماسكًا قضيبه المنتصب، وقف أمام **رويدا** في محاولةٍ لمعرفة السبب الذي جعلها تتغير فجأة ومحاولًا في الوقت ذاته إغراءها من جديد، لكنها أبعدته بعصبية وقالت له بفرنسيَّة لبنانيَّة ، وعينيها متسمِّرة على التلفزيون:

– ما المبلغ الذي اتفقنا عليه يا **ديفيد؟**

– نحن الآن في بداية المساء والليلةُ ما...

قاطَعَتهُ بحدَّة:

– كم أخبرتكَ بأني سأدفعُ لك؟

– خمسون دولارًا، وصدقيني لولا أنَّ ظروفي...

قاطعته ثانيةً بسرعة:

– خذ مائة دولار من دُرجِ خزانة السرير اليُسرى وانصرف بسرعة.

– لكن ما الذي حدَثَ فجأة؟

– ناولني علبة التبغ من فوق الخزانة، وكأس الويسكي، وانصرِف.

فتح درج الخزانة فوجد رُزمة من الدولارات، كلُّها من فئة المائة دولار. قَدَّر المبلغ بعشرة آلاف. أمسكَ الرُزمة بيده ونظر الى **رويدا** فرآها مشغولةً عنه تمامًا، لكنه لاحَظَ وجود ورقتين من فئة الخمسين دولارًا أسفل رزمة النقود، فمدَّ يده الأخرى وأخذ واحدة، وأرجع المال إلى مكانه، ثمَّ لَبِسَ ثيابه في صمتٍ وبطء، وقبل أن ينصرف قال لها:
– حسنًا.. أنتِ تعرفين أين تجدينني.

أشعلتْ **رويدا** السيجارة الثانية وهي غارقة في متابعة اللقطات التي تبثها القناة المملوكة لرجل أعمالٍ شيعيٍ لبناني، مع إنَّ سيجارتها الأولى لم تسحب منها غير نَفَسٍ واحدٍ فقط، وبالطبع فهي لم تسمع **ديفيد** وهو يغلق الباب وراءه.

كانت غارقة في متابعة الحشود التي تتسابق على اللحاق بالنعش في محاولةٍ منها للامساك به والتناوب على حمله، بينما يدفعهم بعض تلامذته بثيابهم الدينية وعمائهم البيضاء والسوداء.
أولاده الأربعة هم من كانوا يحملون النعش ولا يسمحون لأحدٍ بمساعدتهم. يتقدمهم ابنه الأكبر ببذلةٍ زرقاء وقميصٍ أسود، وأخوته الثلاثة غير الأشقاء بعمائمهم السوداء الكبيرة وزيّهم الديني المعروف.

ومن خلف دائرة الأولاد والأتباع المقربين كان رجال الأمن الذين يرتدون البدلات الزيتونية الموحدة، يضربون الناس المتدافعة بالهراوات في محاولة لتخفيف التدافع ومنع الانقضاض على التابوت.
قبل أن يعود التلفزيون إلى بثّهِ الراقص ظهر من بعيدٍ، في آخر المشهد، في الطريق المعاكسة لسير الحشود، فتى وحيدًا حافيًّا يجرُّ عربةً خشبيةً عتيقة، عليها جُثة، ليس معها أحد.

كان التلفزيون قد قطع برنامجه الاعتيادي. كان يبثُّ رقصةً رقصتها **رويدا** على مسرح **بيت الدين** قبيل اعتزالها المفاجئ، فقطع الرقصة وبثَّ هذا الخبر:

"نقطعُ برنامجنا الراقص لنذيعَ على حضراتكم أيها السيدات والسادة هذا الخبر الذي وردنا من العاصمة **العراقية**:
أُعلن في **بغداد** اليوم أنَّ زعيم **الشيعة** في العالم آية الله السيّد **المَخِيني** قد وافته المنيّة في مدينة **الكوفة** صباح الأمس الثامن عشر من أيلول من عامِ الفٍ وتسعمائة وأثنين وتسعين للميلاد، عن عمرٍ يناهز السادسة والتسعين عامًا. وقد بثَّ التلفزيون **العراقي** جانبًا من تشيعه اليوم بعدما تمَّ نقل جثمانه من **الكوفة** إلى **النجف** الأشرف حيث دُفن في جوار الإمام **علي** بن **ابي طالب** عليه السلام، وإليكم جانب منه..."

أحستْ **رويدا** بالخطر، فمن كان يقف بينها وبين الموت قد مات. خطرتْ في بالها فكرة كتابة رسالة تشرح فيها كلَّ شيء. لطالما كانت تريد فعل ذلك، كي تستخدمها ورقة ضمان، وكانت لسببٍ لا تعرفه تؤجل الفكرة كلَّ مرَّة. راحتْ تبحث عن ورقةٍ وقلم، لكنها الآن لم تعد تستطيع الرؤية من السُكر، إضافة إلى أنها ليست بارعة في الكتابة. ترنّحتْ صوب الباب الخلفي لقصرها الذي يعتلي أحد التلال المطلة على كنيسة رئيس الملائكة **ميخائيل**، وفتحتْ باب المطبخ المطلِّ على الحديقة. أرادتْ هواءً جديدًا. لكن هواء أيلول اللافح الجاف جعلها تتقيَّأ وتسقط، فجاءها مسرعًا ابن البستاني، المصاب بمتلازمة داون، ورفعها عن الأرض وقال لها:

– هل أنتِ بخير يا سيدتي؟

لم تستطع أن تركِّز في وجهه من شدةِ السُكر. حاولت الابتعاد عنه لكنها سقطت ثانية، فأمسكها من جديد وقادها نحو المدخل، وقبل أن يُدخلها ويغلق عليها الباب، قالت له:

– من أنت؟

– أنا ابن البستاني يا سيدتي.. أنا **يار**.

عادتْ الى حجرة نومها كي تُشعل سيجارةً جديدة. رمتْ بنفسها على الأرض والتقطتْ علبة الدخان التي كانت فارغة. قامتْ بصعوبة صوب خزانة سريرها. انها تحتفظ بالسجائر والكحول عند رأسها. رأتْ آلة تسجيلٍ صغيرة، من النوع الذي يحمله الصحفيون والكتّاب. لا بدَّ أنها **لديفيد**. شغَّلتها فوجدتْ الشريط

فارغًا. أعجبتها فكرة تسجيل صوتها.. فكرةَ أن تخبر نفسها بالحقيقة التي تخاف سماعها، أو حتى مجرد التفكير بها.

ضغطتْ على زرِّ التسجيل وقالت:

"أنا خائفة جدًا. أنا مرعوبة. **عباس الأبرص** سيقتلني لا محالة. الشخص الوحيد الذي كان يمنعه من قتلي طيلة هذه السنوات، مات. حتى لو لم يقتلني فإنه سيقطع مبلغ العشرة آلاف دولار الشهري الذي يحوله لي منذ سنوات. ماذا تفعل امرأةٌ وحيدة لا تعرف غير الرقص وعمرها قد تجاوز الأربعين؟

لكنه سيقتلني. أنا متأكدة من ذلك.

أرجوكَ يا من تسمع صوتي كن صبورًا وتحمل سُكري وخوفي والدوار الذي أشعر به الآن، ونعم لقد استفرغتُ على نفسي قبل قليل والمناديل الورقية بعيدة، وما زلتُ عارية ولا أستطيع الوقوف والمشي حتى الكرسي عند طرف السرير وارتداء قميص نومي.

أرجوك يا ربّي يسوع الحبيب ساعدني.

يا يسوع الحبيب، يا واسع الجود، احتضنّي واقتلع من كياني الخوف الخانق.

لا أعرف من أين أبدأ. لا أحد سيصدقُ ما أقول.. لا أحد.

هل عليَّ أن أقول الحقيقة دفعةً واحدةً كما يفعل المحتضر وهو يحاول يائسًا إيصال كلَّ ما يرغب في قوله بأقل عددٍ من الكلمات؟

نحن نتأخر كثيرًا فيما علينا قوله. نتأخر حتى يصعب علينا قول ما كنّا نريد قوله.

المشكلة الآن هو أنني نفسي خائفة.. أنا خائفة مما أريد أن أقول.

مذ عرفتُ الحقيقة، منذ عشر سنوات وأنا مُعتزلة – رغمًا عنِّي – كلَّ شيء؛ الرقص والظهور العلني والتواصل مع المعارف والأصدقاء القدامى.

أنتم لا تعرفون ما الذي يستطيع فعله **عباس الأبرص** وما هو قادرٌ عليه..

حسنًا.. **عباس الأبرص**.. يكون.. ابن عمي..."

الفصل الثالث

كما لو أنه وجد البساط السحري، وضع يده اليسرى على عمامته الكبيرة البيضاء التي تُخفي ثلثي رأسه، وهو يضحك بصوتٍ عالٍ، بينما أمسك بيده اليمني حافة العَرَبَة، غير عابئٍ بنظرات الناس واستهجانهم للسرعة التي يجرُّ بها **عنبر** عربته، ويناور بها الناس والخيول والحمير في الشوارع والدروب الترابية، وما تثيره قدميه الحافيتين من غبار، وما يتطاير من عجلات العَرَبَة من حجارات صغيرة تضرب المارِّين والباعة الجالسين المحتشدين على جانبي الشارع الواصل من مرسى السفن حتى محطة القطار.

كان **هوفسيب** قد وصل قبل قليل في احدى البواخر التي رسَتْ على ضفَّة شطّ العرب في **البصرة**، وما أن نزل الرصيف حتى أوقف أول شخصٍ صادفه – وكان شخصًا كبيرًا في السنّ – وسأله عن محطة القطار بلغةٍ عربيةٍ ركيكة، فأجابه الشيخ بالتركيَّة بأنه لا يجيد التحدث بالعربيَّة، فأعاد صياغة السؤال باللغة التركيَّة، وشعر بارتياح مؤقت لأنه أيضًا لا يجيد العربيَّة. أجابه العجوز بأن الطريق إليها ليس بعيدًا جدًا، لكن إن كان مستعجلاً فيمكنه استئجار **عنبر** فهو

قادرٌ على ايصاله أسرع من عربة تجرها أربعة خيول. سأله عن **عنبر** هذا أين يجده؟ فأجابه أنه يقف آخر الرصيف مع باقي الحمّالين.

هناك، آخر الرصيف، كان الكثير من الحمّالين ينتظرون وصول المسافرين بالباخرة كي ينقلوا أغراضهم الى المدينة. توقف **هوفسيب** لحظة وسأل شخصًا يبيع السمك عن **عنبر** – باللغة التركيَّة هذه المرّة – أجابه الرجل بلكنةٍ فارسيَّة بكلمات مبعثرة، عربيَّة وفارسيَّة وتركيَّة غير مفهومة، فأعاد عليه السؤال بلغةٍ فارسيَّة: أين أجد الحمّال **عنبر** يا عم؟ فاستعاد الرجل ثقته بنفسه وتبسم وأشار إلى عربة فارغة وقال له: هذه عربته هناك، وهو يحضر ما أن يجلس أحدٌ عليها، فأن كنت تريده أن يوصلك، فما عليك إلا الذهاب والجلوس في عربته وسيظهر لك.

جلسَ **هوفسيب** على العربة فظهر **عنبر** من العدم وقال بصوت ساخر، بلغةٍ فارسيَّة بلهجةٍ عربيَّة:

– أين تريد الذهاب يا خَشَبَة؟

– خشبة؟ قال **هوفسيب** باستغراب.

– خشبة نعم، أم تريد أن أقول لك يا صليب؟

– لا أفهم ما تقول يا هذا، لكن إن كنتَ تسأل عن اسمي فأنا **يوسف**، وأريد الذهاب إلى محطة القطار..

– تمسك جيدًا يا خَشَبَة.. قال **عنبر**، وأمسك بذراع عربته وطار بها بعد خطوتين.

عند محطة القطار، رفض **عنبر** أن يأخذ من **هوفسيب** الأجرة. قال له بسرعة قبل أن يتركه ويرحل:

– سنلتقي كثيرًا يا خشبة، لا تقلق، وستدفع لي بطريقة أو بأخرى.

وقبل أن يفكر **هوفسيب** بالخوض قُدُمًا في هذه المحادثة الغامضة، تدخَّلَ رجلٌ خرج للتو من المحطة وطلب من **عنبر** توصيله إلى سوق **الهنود**.

الفصل الرابع

في إحدى دكاكين سوق **الهنود**، نادى المهراجا **روهيت جي ديباك** ابنه الواصل حديثًا إلى **البصرة، ديفداس**، من المخزن الكبير للدكان وأجلسه معه على المصطبة الخشبية القريبة من باب الدكان الرئيسيَّة من الداخل وقال له:

– حيطان العشّار كلها تشربتْ هذا العطر العالق بك من المخزن وليس فقط سوق **الهنود**. أنت تعرف تركيبة هذا العطر. لقد علمتك كلَّ خلطات التوابل التي ورثتها عن أبي، وأنا واثقٌ أنك ستُبدع في ابتكار خلطات توابل وبهارات أخرى. أنتَ من عائلة **ديباك**، وتجارة التوابل والعطارة والبخور تسري في دمائنا.

هناك رجالٌ يا **ديفداس**، من العوائل العريقة في **البصرة**، مثل **صالح البجاري** و**جعفر باشا عيان** و**موسى النقيب**، يمرّون كلَّ يوم من هنا كي يتعمدوا بعطر المكان.

أنا هنا لا أشعر بالغربة رغم أنك تعلم يا ولدي كم أنا مفرطٌ في حُبِّ **الهند**. أشعر وكأن **البصرة** هي عاصمة الإله **كريشنا** ودائمًا ما أرى كثيرًا من الناس عبارة عن افاتار للإله **فيشنو**.

هناك فتىً يا **ديفداس**، لو أنك رأيته بعيون روحك، فلن تشكَّ بأنه الإله **كريشنا** نفسه وليس افاتارًا له. أنه فتىً يافعٌ بعمر العشرين.. بمثل عمركَ يعني. لقد تعرفتُ عليه هنا منذ أن فتحتُ هذه الدكان قبل خمس سنوات. آنذاك أخبرني الجيران بأنه ظهر فجأة، يجرُّ عربةً يعيش فيها. كان يجد صعوبة في الكلام والتواصل مع الآخرين. لا أحد يعلم من أين جاء. لا يتحدثُ عن نفسه أبدًا، يعيش في عربته الخشبية ذات الإطارين الربليين. يعمل حمّالًا. ينقل الأغراض من هنا وهناك داخل أسواق العشَّار. يستأجره التجار والأعيان والنساء الكبيرات في السنّ، لنقل حاجياتهم، ويتصدقون عليه بالفتات.

أريدك أن تقترب منه. إنه روح طاهرة يا بني. لقد رأيته مرّة أخر الليل، بالصدفة، يجر عربته المملوءة باكياس الخيش، يتجول في طرقات العشَّار الضيقة الملتوية، ويتوقف أمام بعض البيوت ويترك كيسًا أو أكثر. فتحتُ بعض الأكياس، فوجدتُ فيها كلّ ساعة من ساعات عمله الشاقة. كلّ ما يحصل عليه من التجار والناس الذين ينقل أغراضهم، من رز وتوابل وخضروات وفاكهة وأقراص خبز وطعام بيتي، وحتى الحلوى التي يحبها. وتبيَّن لي لاحقًا أن أصحاب تلك البيوت، هم من الأرامل واليتامى والناس الكبار في السنّ.

إنه بالعادة يستريح عندي، حتى يبعث عليه أحد التجار، فكلّ رجالات السوق يعرفون بأنهم يجدونه هنا. يبدو أنه اليوم مشغول جدًا، فلم يأت لتناول إفطاره معي. إنه الوحيد الذي يأكل من أكلي، وربما هو يأكل هنا فقط، فلا تنسى أن تطعمه.

حينما سيأتي سأبعثك في جولة معه كي تتعرف على كلّ زوايا العشّار، فهو يحفظها كما يحفظ كفّ يده.

لقد كبرتَ الآن يا **ديفداس** وعليك أن تساعد أبيك الهرم. أنا واثق من أنك ستصبح تاجرًا مرموقًا وسوف نعتمد عليك أنا وأمك. لقد حان الوقت كي نعيش أنا و**تشندرا**، ما تبقى من أيامنا، قريبين من بعضنا. نفطر سويًّا ونتمشى قليلاً ساعة الغروب ونعود إلى بيتنا وننعم بالدفء ونستعيد ذكريات شبابنا، بعد أن كبرت أنت وستهتم بنا، ولا تنسى أن تتعاهد أخواتك الأربع، فبالرغم من أنهنَّ في بيوت أزواجهنَّ الّا أن الأخ أمان.

أهل **البصرة** أناسٌ طيبون. لا أخشى عليك منهم. فكثير من **الهنود** قد استقروا نهائيًّا، خصوصًا المسلمون منهم، فقد تصاهروا مع العوائل العريقة وانصهروا بتقاليد وعادات وأعراف الناس التي لا تختلف كثيرًا عن عاداتنا وتقاليدنا. لكني أخشى عليك من نفسك. أخشى أن ترى نفسك أكثر ثراءً من هؤلاء الناس الطيبين، ويخدعكُ الأتراك وتعمل معهم على قهر الفقراء. أريدكَ أن تكون على الحياد، وتدفع العشريَّة للسلطات التركيَّة بموعدها، وألا تتدخل بالسياسة.

هناك شائعات بأن الإنجليز يحاولون احتلال البصرة، فكُن على الحياد ولا تميل لا للأتراك ولا للإنجليز. تذكر دائمًا بأنكَ تاجر، لكن عليك ان تعرف بأنك إنسانٌ أولًا وتمتهن التجارة ثانيًّا.

توقف **التاجر روهيت جي ديباك** عن الكلام وأمسك بيد ابنه **ديفداس** وخرجا

ووقفا أمام الدكّان. نكز **روهيت جي** ابنه كي يصنع مثله، فقد وقف مجمعًا يديه أمام وجهه وراح ينحني لكل من يلقي عليه التحية من الجيران أو من المارّة الذين يعرفونه.

– هل تسمع صوت الناي يا **ديفداس**؟ همس **روهيت جي** في اذن ابنه بسعادة.

– نعم بابو جي. أجابه **ديفداس**، وهو يهزُّ براسه، مع قليل من ملامح الاستغراب وفضول.

– إنه ناي **النبي**. لا بدَّ أنه توقف في أول السوق عند زير الماء السبيل. لا بدَّ أنه سعيدٌ جدًا حتى يعزف هذا اللحن الجميل. أنه سعيدٌ على الدوام، لكنه يكون حزينًا بعض الأحيان. أعرف ذلك من الألحان التي يعزفها على نايه.

ألم أقل لك بأنه الإله **كريشنا**، فمن يستطيع العزف على الناي بهذه العذوبة غير الإله كريشنا.

– أيُّ **نبي** يا بابو جي. أنا لم أفهم شيئًا من كلامك . قال **ديفداس** ذلك، وانحنى أمام امرأة مسنة دخلت للدكان مع ابنتيها الشابتين.

– انه الفتى الحمّال الذي حدثتكَ عنه. اسمه **عنبر**، لكن لا أحد يدعوه **عنبر** بعد الآن. إنهم ينادونه بالنبيّ، بعد أن أدعى أنه نبي أرسلة الإله: **هُوْ**.

أولئك الذين يعرفونه آخر سنتين، نسوا **عنبر** ولقبوه سخريةً بالنبي، والذين يعرفونه منذ سنتين وتاليًا، منذ أن أدَّعى النبوة، فهم يعرفون إن اسمه النبي، ولا أحد يُتعِب نفسه ويسأل فتىً حمّالًا منغوليًّا عن اسمه الحقيقي. في الحقيقة حتى

اسم **عنبر**، قد أطلقه التجار عليه. لقد سألوه عن اسمه فلم يجب بشيء، فأطلقوا عليه **عنبر**، لأن رائحة رُزِّ العنبر تفوح منه طوال الوقت.

في هذه الاثناء خرج التاجر **عبود السامر**، صاحب خان الدقيق، المقابل لدكان **روهيت جي**، وقام بإلقاء التحية على التاجر **الهندي** وابنه، وهو يضرب دشداشته الزرقاء الداكنة بيديه ليمسح بقايا آثار الدقيق. وضع يده اليمنى على جبهته كي يحصر مجال رؤيته في نقطة معينة، باتجاه أول سوق **الهنود** من جهة الشمال، ثمَّ عاد إلى **روهيت جي** وسأله:

– ألمْ تسمع صوت ناي النبيّ قبل قليل؟

– بلا، لذلك وقفتُ وسط الطريق لاعتراضه. أريده أن يوصل بعض الأغراض إلى بيت **أحمد باشا الملاّك**. الباشا أشترى الكثير من الأغراض كالمعتاد.

– يبدو أنه يريد أن يطعم الفقراء مجددًا في **أمّ البروم**. إن الباشا رجل صالح لم يترك عادة أبيه في إطعام الفقراء. هل تعلم يا مهراجا بأن والده **محمود باشا الملاك** أول من نصب القدور الكبيرة (البروم) في مقبرة العشّار وطبخ للناس إبان المجاعة التي حدثت قبل أربع وثلاثين سنة؟

– لا، لم يخبرني أحدٌ من قبل. لكن لماذا تسأل عن النبيّ؟ هل تريد أن تبعثه إلى مكان؟ يمكنني الانتظار. ليس لدي مشكلة في ذلك. قال **روهيت جي** ذلك والتفت إلى أحد عماله داخل الدكان وأشار بيده نحوه، فاتحًا كفه، صائحًا:

– بخمسة قروش. ثمَّ التفت إلى **عبود السامر** من جديد.

– أردتُ أن أعرف آخر ما نزل عليه من ربِّه.. قال **السامر** وصمتَ قليلاً، ثمَّ انفجر ضاحكًا، وتطاير الرذاذ من فمه إلى الخارج، بعدما امتلأت لحيته وشاربه المعقوف من الرذاذ الذي يتجمع تلقائيًا حين يفتح فمه ليتحدث.

وصل **عنبر**، ومن غير أن يُلقي التحية على التاجرين الذَين كانا ينظران إليه، أوقف عربته على جدار دكّان المهراجا، ثمَّ جلس فيها وأتكأ بظهره على الجدار وأخذ نعله **الزبيري** العتيق وراح يحاول إصلاحه. كان يرتدي زيّهُ المعتاد: ثوبًا عربيًّا واسعًا، ذو لونٍ رمادي، يميل إلى اللون الأبيض الأجرب، بلا أزرار، مفتوحًا حتى سرَّته، يصل إلى ركبتيه فقط، وكمَّيه مقطوعين بعد الكوع بقليل، وجيبه الأمامي مفتوق من جانبه الأيسر. يرتدي تحت الثوب سروالًا تركيًّا عريضًا مليئًا بالبقع المختلفة الألوان والأحجام، بمجموعها تعطي للسروال لونًا داكنًا. وجهه المنغولي الدائري الأملس بلون قشر الرمان المِسْوَدْ، وبالرغم من كُبر حجم رأسه إلا أنه متناسقٌ مع طول جسمه وبدانته.
تقدم منه المهراجا وطلب منه رؤية نعله. أخذه بيده وراح يقلّبه، وقال للنبي:
– هذا النعل يا **عنبر** قد تلف نهائيًا. لا يمكن إصلاحه. سأشتري لك نعلاً غيره.
أخذ **عنبر** فردة النعل من يد المهراجا، وقال أخيرًا، بعدما حاول عدّة مرات إخراج الكلام من فمه المليء بالزبد والرغوة الكثيفة التي سالت على ذقنه وطيّات رقبته:
– لا أريد نعلاً غيره، فأنا كنت أسير حافيًّا منذ أيام ولم أجد فرقًا يذكر. كنت

أحاول إصلاحه كي أهبه لمن يستطيع أن يشعر بفائدته التي لا أشعر بها.

تقدم منه التاجر **عبود السامر** وهو يقول له بخبثٍ وسخرية حتى وقف عنده مع نهاية سؤاله:

– يا نبينا: هل هناك شيءٌ جديدٌ، نزل عليك من **الله** ولم تخبرني به؟ لقد مضت أيام دون أن أسمع منك. هل هجرتك الملائكة؟

شارك **عنبر** ضحكات من تجمهر هناك، بعدما سمعوا سؤال التاجر **عبود**، ثمَّ أجاب بطريقته الصعبة في إخراج الحروف والنطق التي تعوّد عليها كلُّ من يعرفه:

– إن (**هُوْ**) يكلمني بدون واسطة، فإنه يقوم بكلَّ شيء بنفسه. إنه ليس ملكًا ولا تاجرًا كي يحتاج إلى عمّال. في الليلة الماضية جاء وجلس معي على عربتي وكانت بيده مجموعة يابسة ومبللة من خوص النخيل، ولمّا سألته عمّا يريد أن يصنع بها؟ قال بأن طفلاً قد ولد لأحد الفلاحين في **أبي الخصيب** (منطقة من مناطق البصرة) قبل أيام وأمه تلفه بخرقٍ وقماطٍ سميك، وأن الطفل يشعر بالحرّ في هذا الطقس الجاف، لذلك فهو يريد أن يصنع له مهفَّة (مروحة يدوية) كي يروِّح بها عليه حتى ينام. وبقي ساهرًا معي حتى أتمّها. إنه لا ينام كثيرًا. إنه مشغولٌ على الدوام.

تعالت ضحكات الناس، وكان أكثرهم قهقهة التاجر **عبود**، وفي كلِّ مرّة يرى **عنبر** الناس تضحك كان يضحك معهم ويشعر بالسعادة لسعادتهم.

كانت هناك امرأة عجوز – المرأة التي دخلت مع ابنتيها إلى دكان المهراجا – واقفة خلف الرجال وتسمع ما يقول **عنبر**، فسألته:

– ما دمت ترى الله يا يمّة فلماذا لا تطلب منه أن يشفيكَ ويغيّر من ملامحكَ المنغولية ويجعلك طبيعياً مثلنا؟

فأبتسم **عنبر** بكلِّ ملامحه وأجابها:

– يمّة، عندما كنتُ في البداية أناديه يا **الله**، لم يكن يلتفت لي وكان يجيبني بعدما ألحُّ عليه. كان يظنُّ بأني أخاطب شخصًا آخر.. يقول بأنه ليس لديه إسم ولا يحتاج لإسم.. يقول بأننا نحنُ البشر من نحتاج إلى أسماء، لأننا لا نعرف بعضنا البعض ولا نعرف أنفسنا حتى، بينما هو يعرف نفسه جيدًا ويعرفنا واحدًا واحدًا دون حاجته إلى تميزنا بالأسماء.. يقول بأن الطيور لا تحتاج إلى الأسماء فهي تعرف نفسها وتعرف بعضها البعض وتتواصل مع بعضها البعض من غير الحاجة إلى الأسماء والكلمات. يقول عندما تتحدث إليَّ فأنتَ لا تحتاج أن تطلق عليَّ إسمًا، وعندما تريد أن تتحدث عني للنخيل والطيور والبقر والجواميس وشط العرب، فلست بحاجة إلى إخبارهم عن إسمي لأنهم يعرفونني جيدًا، لكن عندما تتحدث عني إلى البشر، فيمكنكَ أن تطلق عليَّ: (**هُوْ**).

أما لأني لم أطلب منه أن يغيّر شكلي فلأني رأيته يشبهني وكأنني أقف أمام مرآة، فعرفتُ بأنني هو الطبيعي وأنتم المجانين غير الطبيعيين.

راحت عيون الجميع تدمع من شدّة الضحك، وهم يصفقون يدًا على يدٍ ويقولون كلماتٍ متشابهة في المعنى:

– استغفر الله ربي وأتوب إليه، يقول إن **الله** منغولي، أستغفر الله العظيم، والحمد لله على نعمة العقل والإسلام.

بعدما انفضَّ الناس من حوله، أدخله التاجر **روهيت جي** إلى داخل دكانه وقال له:

– يا **عنبر**، هذا ابني **ديفداس**، لقد جاء مؤخرًا من **عُمان**، وسوف يستلم إدارة الخان في غيابي. أريدك أن تساعده وتقف معه وتعرفه بزبائن المحل ومناطق **البصرة** وتجارها، فهو لا يعرف أحدًا هنا. أنا اثق بك يا **عنبر**، فأنت أطيب وأصدقُ إنسان قابلته. أريدك أن تكون صديقه. فأنتم في نفس العمر ونفس الطيبة. ستجده إنسانًا جميلاً. لقد أوصيته أن يسمع لك ويطيعك في الأمور التي يحتار فيها. أريدك ان تعلمه عادات الناس، وأن تخبره بما يفرحهم وما يحزنهم. أريدك أن تساعده كما ساعدتني وتتفقده كما تتفقدني. ولا تخجل منه في طلب أي شيء تحتاجه.

نظر **عنبر** إلى **ديفداس** وأبتسم سريعًا ابتسامة عريضة بكلِّ وجهه ثمَّ احتضنه فجأة، فبقي **ديفداس** محتارًا ومرتبكًا ولا يدري ما يفعل. بقي جامدًا عن الحركة مُسبِلاً يديه بجانب جسمه وأرجع رأسه إلى الوراء قليلاً ولم يحاول التخلص من يدي **عنبر** اللتين كانتا تضمانه بقوة.

– لقد اوصيت العامل **ارجون** أن يملئ عربتك بالبضائع التي أريدك أن

توصلها لبيت السيد **الملاّك**. أنت تعرف بيته جيدًا، فهذه ليست أول مرّة توصل له أغراضًا. لكن هناك، هذا الكيس الصوفي فيه مجموعة من البهارات والبخور والعمبة (أجار) مع شرائح المانجو، أريدك ان توصلها إلى المعبد اليهودي أولًا، ثم تذهب إلى بيت السيد **الملاّك** وتعطيهم الأغراض الباقية، عدا هذا الصندوق الخشبي – وأشار بيده إليه – سوف تذهب به إلى بيت السيد **يحيى المنديل**، فزوجته بعثت تريد مجموعة من الساريات الحُمر والزُرق والبِيض لتختار منها ما يناسب بناتها. أنت تعلم مكانه أليس كذلك؟ قصره بالقرب من مسجد المقام، خلف الكنيسة بالضبط.

– نعم أعرفه، فدائمًا ما يأخذني معه ويجعل زوجته وبناته يدخلنني الحمام ويغسلن شعري ويفركن ظهري بصخرة خشنة أكرهها لكنهنَّ يُمسكن بي جيدًا فلا أستطيع الفرار.

– على أية حال سأرسل معك **ديفداس**، كي يساعدك ،وأيضًا كي يتعرف على المنطقة ومنازل زبائننا.

دفع **عنبر** عربته وقال **لديفداس**:

– عليك أن تسرع وإلا فلن تلحق بي.

راح يصرخ في الشارع ويطلب من الناس الابتعاد ويجري بعربته بسرعة. لم يكن يستطيع أن ينافس سرعته في دفع العربة حتى أقوى وأعتق الحمالين في السوق. إن **لعنبر** قوة عجيبة يحسدهُ عليها باقي الحمالين. التفت ليرى أن ابن المهراجا

يتبعه، لكنه تفاجأ بأن **ديفداس** يعرج ببطء رغم انه يحاول أن يلحق به.

توقف **عنبر** عن دفع العربة وتركها ورجع يجري باتجاه **ديفداس**.

- لِمَ لَمْ تخبرني بأنكَ أعرج؟

- أنت لم تعطني فرصة لإخبارك، انطلقت بالعربة كالسيارة المسرعة.

- ما هي السيارة؟

- إنها عَرَبَة من حديد، تسير بسرعة كبيرة ولا تجرها خيول، رأيتُ أحد الضباط **الإنجليز** يقودها في السنة الماضية في **الهند**.

- هل تسير أسرع مني؟ أنا أستطيع أن أسبق العربات التي يجرها حصانًا واحدًا داخل السوق.

- انها سريعة جدًا، ولا أعرف كيف تسير بدون خيول. يقال إن هناك خيولًا من خيول الجنّ الخفية تسحبها.

- هل رأيتَ جنيًّا واحدًا من قبل؟ أنا لم أر جنيًّا أبدًا. هناك من يقولون بأنهم رأوا جنيًّا مجنونًا يسمونه **الطنطل** في غابات النخيل ليلاً، لكني عندما سألتُ **(هُوْ)** قال بأنهم كاذبون وليس هناك وجودٌ للجنّ.

- لا أدري، فأنا لم أر جنيًّا من قبل، لكن الناس كلهم يقولون بأنهم موجودون لكننا لا نستطيع رؤيتهم.

كانا قد وصلا إلى عربة **عنبر** في هذه اللحظة فقال **عنبر لديفداس**:

- اصعد الى العربة وأجلس على صندوق الثياب الخشبي، فإننا لن نستطيع الوصول حتى المساء إن بقينا نسير بسرعتك.

نسي **ديفداس** للحظة، وهو يرى تلاحق صور الدكاكين والناس والفوانيس المعلقة على الجدران وومضات الضوء الداخل إلى السوق من خلال الكوّات الصغيرة أعلى الدكاكين والخانات، بأنه لا يجلس في عربة يدفعها حمّال، بل أنه يجلس على البساط الطائر الخرافي في تلك القصص التي سمعها من جدته.
لكنه فجأة وجد نفسه ملقىً على أرضية السوق مغطىً بالأكياس الصوفية ودقيق البهارات التي تناثرت على رأسه وعطرت الأرضية بروائحها المختلفة. استندَ على صندوق الساري الخشبي ورفع رأسه ليرى عربة **عنبر** وقد اصطدمت بجدار أحد محلات الخيَّاطين وانقلبتْ على جنبها بينما انتشرت البضاعة في الطريق، وهرع بعض المارّة الى جمعها في العربة من جديد بعدما قام الخيّاط **بهجت حنا الشيخ** بتعديل العربة وهو سكران من الضحك ويحاول السيطرة على أعصاب يديه وتعديل العربة.
نظر **ديفداس** الى الخلف متفقدًا **عنبر**، فوجده يجري خلف مجموعة من الأطفال وهو ممسكٌ بقضيبه وقد بانتْ مؤخرته، في حالة هستيريَّة منعته عن الكلام. بينما يتراكض الأطفال حوله عرايا ممسكين بأعضائهم الصغيرة وينشدون:
"يا نبي يا منغولي... عطشان، اشرب بولي"
"يا نبي يا منغولي... جوعان، اكل بلبولي"

خرج بعض التجار وعمالهم وقاموا برفع سروال عنبر وربطوه إلى بطنه وطردوا

الأطفال بعيدًا، فعاد **عنبر** وقد هدأ من جديد ومن غير أيَّة مقدمات رفع ديفداس وأجلسه على العربة وراح يدفعها بسرعة من جديد. وقبل أن يصل آخر الشارع، انعطف بالعربة يسارًا ودخل إلى دربٍ فرعيٍّ طويل، ثمَّ توقف أمام الكنيس اليهودي وراح يطرق الباب بقوة.

– ربما لا يوجد أحد في داخل المعبد يا نبي؟ دعنا نذهب لبيت الباشا **الملاّك** أولًا ثم نعود لاحقا.

– معبد التوراة مفتوح دائمًا يا **ديفداس**، لكن عندما يكون مغلقًا، فإن الحاخام **عوفاديا دانيال** يكون مشغولًا بلحيته الكثَّة وضفر سالفيه الطويلين وتزيتهما بزيت الزيتون، حتى تبدو عيناه الصغيرتان المتقاربتان الشبيهتان بعيني الثعلب أشبه بعيني الحمل حديث الولادة.

فتح الحاخام **عوفاديا** باب المعبد ضاحكًا وهو يقول:

– لقد سمعت كلامك يا نبي. لماذا تصفني بالواوي (الثعلب)؟ لكن يغفر لك أني أحبك. ثمَّ لا بدَّ للنبي أن يكون حلو اللسان مع الناس حتى يتبعوه. أليس كذلك أيها السيّد؟ وتوجه بنظره نحو **ديفداس**.

– أنا **ديفداس** ابن التاجر **روهيت جي** يا سيدي. أرسلني أبي مع النبي كي أتأكد من توصيل طلبك.

بعدما تناول الحاخام الأغراض من يد **ديفداس** قال له وهو يبتسم ويرتب سالفيه:

– أظنُّ بأن المهراجا أراد منك أن تتعرف على زبائنه ومكان سكناهم، وتتعرف كذلك على محلات ودكاكين العشّار، وإلا فالنبي يستطيع توصيل الأغراض، ولطالما فعل.

لم يجب **ديفداس** بشيء، بينما قال الحاخام للنبي:

– لقد وصلتني اليوم حلوى نهر خوز، فاخرة جدًا. هل تريد تذوقها؟

لم يُكمل الحاخام كلمته الأخيرة حتى دلف **عنبر** إلى داخل المعبد وتوجه من فوره إلى المذبح، ودخل الغرفة الملاصقة له، فهو يعلم أين يضع الحاخام حاجياته التي لا يريد لأحد أن يعلم بوجودها. تبعه الحاخام ضاحكًا بصوتٍ عالٍ، بينما بقي **ديفداس** خارجًا، لإيمانه بحرمة دخول أي دار عبادة لا تمجد **كريشنا**.

كان الحاخام يعلم بذلك جيدًا، لذلك فهو لم يطلب من **ديفداس** مرافقتهما.

وقف **ديفداس** أمام الباب وراح يدير بنظره نحو حيطان المعبد المزخرفة بالكتابة العبريَّة ومن بعيد شاهد الشمعدان السباعي الذهبي أو "المينوراه" كما يسميها اليهود، وتصنع بالعادة من الذهب النقي.

سرعان ما عاد **عنبر** ويديه ملطخة بحلوى نهر خوز وهو يلعقهما بفرح، بينما أحضر الحاخام بعضًا من الحلوى في طاسٍ صغيرة **لديفداس**.

جمع **ديفداس** يديه أمام صدره وأحنى رأسه شكرًا للحاخام وراح يأكل الحلوى.

– هل سألتَ ربكَ عن هذه الآية التي أخبرتك بها يا نبي؟

"ومدَّ موسى يده على البحر فأجرى الربّ البحر بريحٍ شرقيَّةٍ شديدة، كلّ الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم، عن يمينهم وعن يسارهم".

– نعم، سألته وراح يضحك كثيرًا، أكثر مما ينبغي، ثمَّ قال لي: وأين المعجزة في ذلك؟ إلا يعلم الحاخام بأنَّ كلَّ الوجود بروحٍ واحدة؟ فمن يملكُ مقدارًا أكبر منها يمكنه أن يتحكم بمن يملكُ مقدارًا أقل، فبمقدار شجرة رمَّان أن تتحكم بالمطر، وبمقدار الجبل أن يتحكم بالريح، وبمقدار نملة أن تتحكم في البحر.

– وهل سألته عن الروح؟

– نعم، وقال بأن الروح هي الحُبَّ.

قال **ديفداس** بعد أن أرجع الطاس فارغة على الحاخام:

– أشكركَ يا سيدي على كرمك.

ثم سحب **عنبر** من يده وقال له:

– هيّا بنا يا نبي، كي نسلم باقي الأغراض.

قال الحاخام عندها، بعدما أطبق فمه المفتوح:

– إسمح لي يا بُنيَّ بأن أسأل النبي سؤالًا أخيرًا. هل تفهم يا نبي معنى هذه الكلمات التي أخبرتني بها؟ فأنا لا أفهم كيف أنَّ الروحَ هي الحُبّ؟

فقال **عنبر** وهو يدفع العربة بيد واحدة ويلعق يده اليسرى من بقايا اللُّعاب الحلو:

– لا.

أثناء ما كانا يعبران المسافة بين المعبد اليهودي وجامع **المقام** (للمسلمين الشيعة) والتي هي قُرابة الثلاثين مترًا، كما يشترك المعبد بسوره الخارجي مع سور مسجد **العشّار** الكبير (للمسلمين السُنَّة) حيث هناك بجانب المقام بيت **احمد باشا الملاّك**.

قال **عنبر لديفداس** أثناء ما كانا يعبران المسافة المتبقية لبيت **الملاّك باشا**:

- في كلِّ مرّة أجلبُ حِملاً إلى هذه المحال الملاصقة لمعبد التوراة، أشمَّ رائحة المال. أكثر أموال السوق تتجمع هنا. إنها رائحةٌ قوية. أشبه بمزيجٍ غليظ من دمٍّ خرفان العيد وقبو الكنيسة القريبة المليئة ببراميل النبيذ المعتقة. ولا أدري يا **ديفداس**، إن كنتُ أحِبُّ هذه الرائحة أم أكرهها.

الفصل الخامس

في محطة القطار، أوقف رجلٌ من الأعيان **هوفسيب**. كان الرجل متلبكًا مع ما يبدو أنها خادمتهم في حمل الأغراض، وخلفهم عائلته الصغيرة – زوجته وبناته الثلاث الصغيرات المتسربلات بالخُمر البيضاء – وأراد سؤاله عن مسألةٍ شرعيّة ما، لكن **هوفسيب** اعتذر لضيق الوقت، لأن قطاره على وشك المغادرة، وتوجه من وجهه الى شباك التذاكر وحجز تذكرة على الدرجة الأولى، فنادى رجل التذاكر أحد الرجال العاملين وأمره بإيصاله إلى العربة، فسار معه وسلَّمه إلى عامل آخر ساعده في الصعود واقتاده إلى مقصورته.

هوفسيب غلامٌ على بُعد أيامٍ قليلة من الثالثة عشرة من عمره، لكنَّ لباس رجال الدين الفُرس الذي يرتديه يجعله أكبر بسنتين إلى ثلاثة، وكذلك طوله الفارع وجسمه الممتلئ وتدويرة وجهه الأصهب والخال أو الشامة الغليضة الورديَّة المميَّزة على خده الأيمن، تعطيه سنة اخرى زيادة. شامته بُنيَّة فاتحة في المساء ووورديّة في النهار، يتغيّر لونها بحسب الضوء.

الناظر اليه يمكن أن يخمن عمره بحدود السادسة أو السابعة عشرة، أي أنه

رجل – شخصٌ بالغٌ ومكلَّف بالشريعة – لذلك فعليه أن يتصرف كالرجال، لكنه نسي هذه الأمور وهو في عربة **عنبر** وراح يتصرف كالطفل للحظات، وسرعان ما أحسَّ على نفسه وادعى الوقار ولملمَ ضحكاته وبراءته ووضعها في جيب جُبتِهِ الطويل الذي يبدأ من رأس الجبَّة وينتهي بذيلها.

بعدما أدخله إحدى الحُجَر في المقطورة، لاحظ عامل القطار أن **هوفسيب** لا يحمل معه سوى جثته، فسأله إن كان يحمل أمتعة، وهل هو بحاجة إلى من يحضرها له؟ فأشار له برأسه بالنفي، فقال له العامل بأنه سيكون مسؤولًا عن هذه المقطورة وبأمكانه أن يناديه بأيّ وقتٍ إن كان بحاجةٍ إلى شي، وتركه دون أن ينتظر منه أي تعليق، لأنه شكَّ بمقدرته التحدث بالعربية.

المقصورة عبارة عن سريرين حديديين متقابلين عليهما فَرشٌ نظيف ومجموعة مخدَّات وأغطية إضافيَّة عند الجزء الملاصق للباب. بين السريرين طاولة خشبية صغيرة ملصقة بالشباك الكبير نسبيًّا، المحاط بمجموعة من القضبان العمودية والافقية تجعله أشبه بشباكٍ خلفي لزنزانة. وفوق السريرين يوجد سريران آخران بالفَرش نفسه. حيطان المقصورة وسقفها مغلَّفة بخشبٍ معرّق مطليٍّ بلونٍ بنيٍّ محترق، ينمُّ عن ذوق مصممها.

خلع نعله الجلدي المغلق من الأمام، المفتوح من الخلف، وانحنى وأمسكه بيده ودسَّه تحت السرير الأيمن، ثمَّ خلع جبتهُ ووضعها على السرير أولًا، ثم لاحظ

وجود شمّاعة خشبيّة مزخرفة فوق سريره، فالتفت إلى الجهة المقابلة وشاهد توأمتها على السرير الآخر، وهناك أيضًا عند المدخل على الجانبين، فأخذ الجبّة وأخرج من جيبها الأيمن كتابًا، كان الشيء الوحيد الذي يحمله معه، مكتوبٌ باللغة التركيَّة على غلافه الخارجي: "موجز تأريخ الفلسفة المبسَّط". وضعه على الطاولة، علَّق الجبّة على الشماعة، وجلس بسرواله العريض الغامق، وقميصه الأبيض المتعرِّق بجانب الشباك، وفتح الكتاب.

بعد فترة ترك الكتاب بين يديه وحوَّل بصره ناحية المحطة. أغلب الذين كانوا في المحطة رجالٌ بأزياء مختلفة، أغلبها ثياب عربية طويلة بأغطية رأس مختلفة، منها ما يشبه العمائم ومنها مجرد قطعة كبيرة من القماش مثبتة بعقالات بأحجام ووضعيات مختلفة. كما لاحظ بعض الرجال بزيي مختلف وعمائم متنوعة، عرف منها العمائم التركية والعمائم الهندية.

"الهنود يغزون البصرة" هكذا حدَّث نفسه.

كان هناك قلَّة من الأوربيين، واضح من ثيابهم التي تختلف عن ثياب الآخرين، سراويل ضيقة لا تشبه سراويل الأتراك، وسترات طويلة وقصيرة وربطات عنق مزركشة، وبعضهم معهم نسائهم بلباسهَّن الغريب على تلك المنطقة، وأغلبهنَّ بقبعات عليها ريش أو خرز أو مجوهرات، وهنَّ بالغالب عاريات الأعناق والأجزاء العلوية من الصدور ومن القفا، ويحملنَ مظلات تخاتل الشمس الدافئة والغيوم الماطرة، يسرقنَ الظل والجفاف كما يسرقن الأنظار.

قطع عليه استغراقه في الوجوه ومحاولة فهم المحيط صوت عامل المقطورة وهو يقول له:

– القطار سيتحرك بعد دقائق، هل تنتظر أحدًا؟ جديرٌ به أن يُسرع وإلّا فاته القطار.

قال له: لا، رغم أنه لم يفهم ما قاله العامل. فهو يعرف لا ونعم وماء وخبز وقطار وأين.. هذه كلُّ معرفته بالعربيَّة.

ما أن خرج العامل، حتى دخل عليه بعد فترةٍ قصيرة: رجلٌ بدويٌّ ضخم بثياب رثّة وعُقال كبير وبيده خنجر. طالبه بصوتٍ خشن أن يسلِّمهُ كلَّ ما معه من مال. جَفَلَ **هوفسيب** تمامًا ولم يستطع النطق أو الحركة، فراح البدوي ينهره بشدَّة ويستعجله، ثمَّ لما رآه تصنّم وتعلوه ملامح الهلع، أمسك بتلابيبه بعنف، وراح يخضّه ويطالبه بأن يعطيه المال بسرعة وإلّا ذبحه، ووضع السكين قريبًا من عينيه، وفي هذه اللحظة دخلت المقصورة سيِّدة إنجليزية، وهنا صاح **هوفسيب** بلغةٍ انجليزية ملكية:

"ساعديني.. أرجوكِ"

أخرجتْ السيدة، بحركة سريعة، مسدسها وضربتْ البدوي على قفاه بفوهته، فما كان من البدوي الا أن ترك **هوفسيب** ودفع السيِّدة وخرج من المقطورة. تعثر في البداية بحقائب السيدة، لكنه قام سريعًا وفرَّ هاربًا نحو الممرّ، فلاحقته السيّدة الإنجليزية بخطواتٍ بطيئة، لكن البدوي دفع العامل الواقف عند الباب

ونزل من المقطورة. راح يجري بين الحشود بأتجاه باب المحطة بينما أطلق القطار صافرته وتحرك ببطئ وجَلَبة، وشيئًا فشيئًا غادر المحطة وسط صياح السيّدة الإنجليزية وصمت العامل وتراكض بعض الحرّاس هناك.

عادتْ السيِّدة الى المقصورة، أدخلتْ حقائبها الثلاث، وضعتها على السرير، ثمّ نظرت الى **هوفسيب**. كان يرتجف وقد بلَّل نفسه، وعينيه لا ترمشان من أثر الصدمة. ابتسمتْ بوجهه وطمأنته أن كلَّ شيءٍ على ما يرام وأنَّ الرجل قد هرب، وأنَّه في أمان الآن، ثمَّ سألته أين تعلم الأنجليزية بهذه الجودة؟

لم يردّ بشيء، فقالت له:

– هل معك ثيابٌ أخرى غير هذه التي ترتديها؟ لا بأس.. لا تخجل، فكلّنا معرضون لهكذا مواقف. هل تريد أن أرافقك إلى الحمام كي تستبدل ثيابك وتغسل هذه؟ سنعلقها هنا في الحجرة وستنشف سريعًا.. لا تقلق سأقف في باب الحمّام من الخارج كي تشعر بالأمان أكثر، مع أنه لا شيء يدعو إلى الخوف.

لم يجب بشيءٍ أيضًا، لكنه أحنى رأسه وبكى.

قالت السيّدة بعد تفكير سريع:

– أرى أنك لا تملك غير هذه الثياب.. ما رأيك أن اعطيكَ ثيابًا منّي؟ لديَّ ثيابٌ تصلحُ للجنسين، ثمَّ ما أن تجفَّ ثيابك حتى تعيدها إليَّ؟ اتفقنا؟

فتحتْ حقيبتها الكبيرة وأخرجتْ منها قميصًا وسروالاً وأمسكتْ بيده وأخذته وتوجهتْ به نحو الحمّام.. دخلتْ معه وعلَّقتْ الثياب وربَّتتْ على كتفيه

وخرجتْ وأغلقتْ الباب بعدما قالت له:

- خذ وقتك، أنا لن أبرح مكاني.

بعد ذلك بقليل سارتْ بضع خطوات ووقفتْ على باب حجرة عامل المقطورة. كان العامل مشغولًا بصنع الشاي لتوزيعها على الغرف. سألته دون مقدمات بلغةٍ عربيةٍ بلهجةٍ بدويَّة:

- هل تعرف الرجل الذي حاول الإعتداء على الفتى؟

فقال العامل بتأتأة وخوف:

- لا.. أنا لا أعرفه.. من أين لي أن أعرف لصًّا؟

- كيف صعد إلى المقصورة إذن، ألم تكن على الباب؟ لقد رأيتك على الباب حينما صعدت.

- لا أدري يا سيّدتي، لا بدَّ أنه صعد دون أن أراه.

- حسنًا.. سنرى ذلك فيما بعد.

- أرجوكِ يا سيّدتي أنا لا دخل لي بكلِّ ما جرى.. أرجوكِ يا سيّدتي لا تقطعي عيشي.

- حسنًا.. سنرى.. أحضر لنا الشاي بعد قليل وحاول أن يكون ساخنًا.

- سأفعل يا سيّدتي.. سأحضر لكما الشاي قبل الجميع.

رجعتْ إلى الحمّام وطرقتْ الباب، فقال الفتى من الداخل:

– أنا انتهيتُ.. سأخرج بعد لحظة.

فقالت له:

– خذ وقتك.. أنا فقط أحببتُ أن أطمأن أن كلَّ شيء على ما يرام.

فأجابها بصوتٍ واهنٍ بأن كلَّ شيء على ما يرام.

بعد أن ساعدته على نشر ثيابه داخل المقصورة قالت له:

– أنتَ ذاهبٌ إلى بغداد إذن.. إلى مدينة **علاء الدين والسندباد** وألف ليلة وليلة.. هل أنت تركي؟ لا تبدو فارسيًّا على أيَّة حال، لم تجبني أين تعلمت الإنجليزيَّة؟ همم.. ماذا تفعل في البصرة؟ لماذا تسافر وحدك؟

لم يجب بشيء، فقالت له:

– اعذرني على هذه الأسئلة. لقد تعودتُ أن أطوي المسافات بالثرثرة. أنا أسافر كثيرًا، وثرثارة كبيرة. ما دمتَ تحبُّ الإنصات أكثر من حبِّك للحديث، فدعني أحدثك عن نفسي: أنا عالمة آثار، هل تعرف ما معنى هذا المصطلح؟

هزَّ رأسه بأنه يعرف المعنى، وهنا دخل العامل مع صينية الشاي، وتوقف ريثما يُفرغا له الطاولة، مدَّ الفتى يده وأخذ الكتاب ووضعه في حجره. بينما رفعت السيدة قبعتها ووضعتها بجانبها. وضع العامل الصينية على الطاولة وخرج وهو يتحاشى النظر إلى الفتى. كانت السيّدة تراقب العامل، ثمَّ حوَّلت نظرها بإتجاه صينية الشاي. الصينية من الفضة. تُقدَّمُ فقط للشخصيات المهمّة. إبريقٌ فضيٌّ

كبيرٌ من الشاي وكوبين من الخزف الأزرق المليء بالنقوش التركيَّة مع صحنيهما، وطاسٌ فضيَّة مزخرفة لقطع السكر الأبيض المُكسَّرة يدويًّا على شكل مثلثاتٍ صغيرة غير متناسقة. راحت السيّدة تصبُّ الشاي وتراقب **هوفسيب** خفية وتقرأ ملامحه، ثمَّ ناولته الكوب وقالت:

– أنت تقرأ الفلسفة. شيءٌ مُبهرٌ حقًّا.. فتىً بعمرك يقرأ الفلسفة.. كم عمرك بالمناسبة؟

قال:

– 16 سنة.

– تبدو أصغر من ذلك، لكنني أتفهم. بعض الناس لديهم وجوه طفولية ترافقهم طويلاً. لا عليك.. اووه كم أنا فظّة نسيت أن اخبركَ بإسمي، أنا **غيرترود بيل**. هل لي أن أعرف اسمك؟

– **جوزيف**.

– **جوزيف**.. يا له من أسم جميل.. من أين أنت يا **جوزيف**؟

– **أضنة**.

– أمم.. فهمتُ الآن.

– ماذا فهمتِ؟

– فهمتُ سبب تكتمك وخوفك.. لا تقلق أنتَ بأمان معي.

امتلأت عينا **هوفسيب** بالدموع، لكنه حاول منعهما من الاستمرار ونجح في ذلك، لكنه عاد إلى الصمت من جديد.

شعرت **المس بيل** بأنها أخطأتْ وتسرعتْ بقولها إنّها فهمتْ كلَّ شيء وكان من المفترض بها ألا تفصح له عن درايتها، فحاولتْ أن تعيد الثقة بينهما وتخرجه من صمته، فقالت له:

– هل تعرف أنه ورد في ملحمة **جلجامش** ذِكرُ **أضنة**؟

لم يجب **هوفسيب** بشيء وبقي ساكتًا، لكنه ما زال يمسك بكوب الشاي ويتناول منه على فترات.

واصلت **المس بيل**:

– إن كنت لا تعرف ما هي ملحمة **جلجامش** فهي باختصار بسيط ملحمة سومريَّة مكتوبة بخطٍ مسماري على أحد عشر لوحًا طينيًا، اكتشِفَتْ منذ أكثر من خمسين عامًا في موقع أثري في **نينوى**، في ولاية **الموصل**. الموقع أُكتشف بالصدفة وتبيَّن فيما بعد أنه المكتبة الشخصية للملك الآشوري **آشوربانيبال**.

ملحمة **جلجامش**، أهم وأكمل عمل أدبي أبتدعه البشر. إنَّها أسطورة شعريَّة تكاد تكون معجزة. كُتبتْ في العهد **السومري** بين عامي 2750 و2350 قبل الميلاد. تتحدث عن الملك **جلجامش** الذي عاش في مدينة **أوروك** الواقعة على الضفة الشرقية لنهر **الفرات** في بلاد ما بين النهرين **ميسوپوتاميا**. تتحدث الملحمة عن أعماله الخارقة، وسعيه الدؤوب والمستميت إلى معرفة سرِّ الحياة الخالد، فهي حكايات أسطورية عن رجل اسطورة قريب من مرتبة الآلهة.

تبسم **هوفسيب** وسأل بلطف إن كان بمقدوره أن يشرب كوبًا آخر من الشاي، فأخذت **المس بيل** كوبه وراحت تصبُّ له الشاي وواصلت كلامها:

– مدينة **أضنة** مدينة قديمة جدًا، يرجع تأريخها إلى أكثر من 8000 عام، ويُعتقد بأن حائطها الحجري وقلب المدينة قد بُني في العصر الحجري، وكما أخبرتك بأنه في إحدى أساطير ملحمة **جلجامش** قد تم الحديث عن مكان ما يسمى **أضنة**، ووفقًا لهذا المعتقد فيقال بأن اسم المدينة **أداد** على اسم إله الرعد **السومري**. بعد ذلك كانت **أضنة** تحت حماية **الحثيين** تقريبًا عام 1335 قبل الميلاد، وكانت تعرف المدينة بـ **أضانيا**، أما سكانها فكانوا يعرفون بـ **دانونا**. ومع انهيار الإمبراطورية **الحثيَّة** عام 1200 تقريبًا قبل الميلاد، بدأت الغزوات الخارجية بالتناوب عليها. غزاها **الاشوريون** في القرن التاسع قبل الميلاد، ثمَّ **الفرس** في القرن السادس قبل الميلاد، بعدها أحتلها **الإسكندر** عام 333 قبل الميلاد، وهكذا حتى انهيار الامبراطورية **الرومانية** نهائيًّا عام 395 بعد الميلاد، حينها أصبحت **أضنة** جزءً من الامبراطورية **البيزنطيَّة** حتى منتصف القرن السابع الميلادي، إذ تمَّ الاستيلاء عليها من قبل العرب. وفي عام 964 استعاد **البيزنطيون أضنة**. وبعدها احتلها **السلاجقة** ثم عاد **البيزنطيون**، ثم خضعت إلى مملكة **الأرمن** عام 1132. وفي عام 1268 ضرب زلزالٌ مدمر جزءً كبيرًا من المنطقة، وعقب الزلزال تم إعادة بناء المدينة من جديد وبقيت تحت حكم مملكة **أرمنيا** حتى عام 1359م، ثمَّ خضعتْ لحكم السلطان المملوكي **المصري** من قبل **قسطنطين الثالث**. وبدخول المماليك إلى المدينة فقد تمَّ تأمين استقرار بعض

العائلات **التركيَّة** في **أضنة**. وأصبحت عائلة أبناء **رمضان** الذين هم من نسل المماليك واحدة من العائلات **التركيَّة** التي استمر حكمها في المدينة حتى استيلاء **العثمانيين** على **أضنة**.

كان كلامًا مملاً لك أليس كذلك؟ لكنه شغفٌ بالنسبة لي، فأنا مهوسةٌ جدًا بدراسة الانسان، دراسة جوانبهِ وفلسفتهِ في المجتمعات السابقة والحالية.

قال **هوفسيب**:

– حديثك جميلٌ وغير مملٍّ اطلاقًا، وهذا يعني أنكِ على علم بما حدث في **أضنة** من حوالي ستَّة أشهر؟

– المجزرة التي قام بها **الأتراك** بحق **الأرمن** هناك تقصد؟

– لقد قتلوا أبي وأمي وأُختيَّ، ولم ننجُ إلا أنا وأخي الأكبر.

– أنت فتىً قويٌّ يا **جوزيف** فلا استغرب أنك نجوت؟

– حدثَ كلَّ شيء بسرعة، يبدو أن قوات الجيش التركي الموالية للسلطان المخلوع كانت تخطط للمجزرة منذ زمن. لقد هجم علينا الجنود الغاضبين بمساعدة السكّان. جيراننا من قتلونا. أنا ابن تاجرٍ معروف، وكان أكثر شخصٍ ساعد جيرانه، خصوصًا أولئك الذين هجَّرتهم **روسيا** وكانوا بلا مأوى. لقد فتح لهم أبي محاله وبيوته ورفض أن يأخذ منهم مقابل بقاءهم. رأيتهم وهم يهجمون على بيتنا.

– كيف حدثَ وتركوك؟

– لم أكن في البيت، كنتُ في المدرسة **البريطانية** في الشارع المقابل لمنزلنا. في

البداية لم يقتربوا من المدرسة، وهذا ما اعطى الوقت للمدير والمعلمين بأن يخرجوننا من الباب الخلفي ويخبؤوننا في الاسطبل، في مخزن المدرسة تحت الاسطبل. استمر القتل حتى ساعات المساء الأولى. بعدها قال لنا المدير أنه لن يستطيع حمايتنا بعد الآن وأنه لا بدَّ أن يذهب إلى عائلته في **القسطنطينية**، وطلب منا الّا نشكَّ في قدرة القدير وفي حكمته، وتركنا ورحل.

كان الشارع فارغًا فذهبتُ إلى بيتنا. لم يكن عندي مكان آخر أذهب إليه، فوجدتُ أنهم قد دمّروا كلَّ شيء. وفي الدور الثاني في غرفة اختي الصغيرة وجدتُ جثث عائلتي. وقفتُ لا أعرف ماذا أفعل حتى تحرك أبي وفتح عينيه، فذهبتُ إليه وكان ضعيفًا جدًا، فلمّا عرفني أوصاني بأن أذهب إلى خالي في **النجف** وأبقى عنده. خالي قد اعتنق الإسلام وغيّرَ اسمه وهو الآن يعيش في **النجف**.

هل أخبرتكِ أن أمي وأبي بالأصل، من **آذربيجان** من مدينة **خُوي** من قرية **مَخين**، تزوجا هناك وانتقلا إلى **أضنة** لاحقًا؟

– لقد أخبرتني الآن..

وسكتتْ لحظة ثمَّ استدركتْ:

– وكيف خرجتَ من هناك؟ وأين أخاك الأكبر؟

– أخي في **لبنان**، فقد بعثه أبي قبل الحادثة بثلاث سنوات كي يدير أعمالنا هناك، لكنه خسر كلَّ شيء ولم يعد، ولا نعلم مكانه.

أبي طلب منّي ألا أخبر أحدًا بأني **أرمني** وأن أذهب إلى خالي وهو سيعتني بي.

أوصاني أن أتحرك بسرعة، أن أذهب إلى بيت صديقه **سليم** الشركسي، القريب من الميناء، وهو سيتدبر أمر إرسالي إلى **البصرة**، ودلّاني على مكان سرّي تحتفظ به العائلة بالنقود للأمور الطارئة، فأخذتها، وأفادتني المدرسة والتعليم الجيّد الذي حصلت عليه بالوصول إلى هنا.

– يا لك من فتىً شجاع. بالرغم من أني سافرتُ إلى أماكن كثيرة واختلطتُ بأقوام مختلفة إلا أنك الأغرب من بين كلّ من التقيت بهم.. إذن فأنت ذاهبٌ إلى **النجف** وليس إلى **بغداد**.

– نعم، لكن لا يوجد قطار من **البصرة** إلى **النجف**، لذلك فأنا ذاهبٌ إلى **بغداد** ومن هناك أذهب إلى **النجف**.

– لا انصحك بالذهاب إلى **بغداد**. لا أريد أن أُخيفك، لكنك رأيت ماذا حصل لك بمفردك في **البصرة**، ولا أعلم ماذا حدث معك حتى وصلت إلى **البصرة**. حاول أن تتجنب المدن الكبيرة لأنها تستهوي الغرباء والباحثين عن الربح السريع، إضافة إلى ان قوّة **الأتراك** في **بغداد** أكثر من **البصرة**. حاول أن تتنقل عن طريق المدن الصغيرة والقرى، فإنها لم تزل بِكرًا. ما زال أهلها بسطاء ويساعدون الغريب ولا يعتدون عليه. أنصحك بالنزول في محطة **الحلة** ومنها تذهب إلى **كربلاء** ومن ثمَّ إلى **النجف**. أنها طريق الحجاج إلى قبر **علي بن ابي طالب** ابن عم النبي **محمد**، لا أعرف إن سمعتَ به، لكن ما أن تقول بأنك "زاير" فستجد الجميع يساعدونك، ويستضيفونك ويعاملونك معاملة السيد وسيكونون سعداء بخدمتك.

للأسف فأنا في مهمّة غاية في الحساسيّة ولا يمكنني مساعدتك، لكني أعدك بأن كلَّ شيء سيتغير في غضون السنوات القادمة. سأخبركَ بسرّ وأتمنى أن تحافظ عليه كما سأحافظ على سرّك.. هذه البلاد خلال مدة قصيرة ستصبح تحت الاشراف المباشر لحكومة صاحب الجلالة، وعندها ستأتي إلى **بغداد** وتسأل عنّي وسأكون سعيدة بمساعدتك، لكن عليكَ أن تعدني أن تحافظ على نفسك وتختبئ جيدًا وأن تبتعد عن المشاكل.

– تبدو خطتكِ أسلم لكني لا أريد الاختلاط بالناس، خوف أن يكتشفوا أني مسيحي. سأجازف بالذهاب الى **بغداد**، فحتى هذه اللحظة حياتي عبارة عن مغامرة ولا أدري كيف ستنتهي.

– لحظة! هل تخبرني أنك متنكر بزي رجل دين فارسي، ولا تعرف عن طقوسهم شيء؟ كيف وصلت إلى هنا اذن؟

– بقيتُ في بيت **سليم** الشركسي قرابة الشهر، وهو من سلمني إلى صديق له، القبطان **تشارلز** الذي يعمل في شركة **الهند** الشرقية، وهو من أعطاني هذه الثياب وأرسلني بسفينة أخرى من **الهند** إلى **البصرة** وأوصاني بأن آخذ القطار المتوجه إلى **بغداد**.

– أنت فتىً ذكي وستتعلم بسرعة. أنا واثقة من ذلك. سأخبرك ببعض الأمور وستتدبر أمرك. ما زال الطريق طويلاً حتى **الحلّة**، لذلك فنحن نملك الوقت. سأعلمك الصلاة فهي من الأشياء المهمّة هنا، وما داموا يرونك تصلي فلن يشكّوا أبدًا من أنك منهم.

في البداية، المسلمون لديهم طوائف كما في المسيحية، كما في معظم الأديان، لكن لا تفكر كثيرًا، فهي أمور بسيطة والناس هنا بسطاء فيمكن خداعهم بسهولة، لكن عليكَ أن تكون غامضًا، فكلّما كنتَ غامضًا كلّما قدَّسك الناس أكثر.

المسلمون لديهم خمس صلوات في اليوم، تبدأ من الفجر وتنتهي بحلول الظلام. اسماؤها سهلة مأخوذة من الأوقات التي يقيمونها فيها. صلاة الفجر تكون في الفجر قبل شروق الشمس، ثمَّ صلاة الظهر وهي تمامًا عند منتصف النهار، وبعدها بوقت قصير صلاة العصر وقت العصر، عندما تخفت الشمس قليلاً، ثمَّ صلاة المغرب في لحظة غروب الشمس، وأخيرًا صلاة العشاء عندما يحلّ الظلام. لاحظ انهم في الحقيقة يعبدون الشمس، لأنهم يصلون لدى كلِّ تغيّر يطرأ عليها خلال النهار.

– أراها صعبة ومعقدة ولا أظنني قادر على تعلمها.

– بالعكس طقوسهم أبسط من طقوس الكنيسة. إنها بسيطة.. ركّز معي.. بالنسبة لمواقيت الصلاة فلا تشغل بالك بها، لأن هناك من يقوم بتنبيهك عليها. انهم يستخدمون رجلاً يناديهم إلى الصلاة عند كلّ وقت، لا بدَّ أنك تعرف ذلك **فأضنة** مليئة بالمسلمين. وصلاتهم عبارة عن كلمات وحركات بسيطة ستتقنها بسرعة. الكلمات يمكن أن تتعلمها من خالك هناك، لكن بالبداية يمكنك تحريك شفتيك دون صوت، وما دمتَّ تقوم بالحركات فلن ينتبه أحد إن كنت تقرأ الكلمات بصورة صحيحة أم لا. هم بالعادة يقيمون الصلاة في المساجد، حاول أن تتجنب الذهاب الى المسجد ويمكنك البدء بالصلاة مع سماع صوت

الأذان في أي مكان تكون فيه فلن يزعجك أحد ويطلب منك الذهاب للمسجد بل سيقدرونك ويحترمونك لأنك مستعجل إلى لقاء الله بسرعة، لكن تأكد بأنك تقف بمواجهة الكعبة.

الصلاة عندهم هي اتصال بالله والتحدث معه. هذا بالنسبة لمواعيد الصلاة أما بالنسبة للصلاة نفسها فهناك خبر جيّد، فما دام خالك في النجف فهذا يعني بأنه مسلمٌ شيعي، والشيعة تصلي في أوقاتٍ ثلاثة فقط وليست خمسة، فقد وفرتَ الآن وقتين لن تصلي بهما. الصلاة عند الشيعة: أول النهار ووسط النهار وآخر النهار.

كيف يبدو لكَ الأمر الآن؟ مستعد للتعليم العملي؟

- يبدو ذلك.

- بقي شيء أخير. المسلمون يقفون باتجاه **مكّة** في صلاتهم أينما كانوا، ويسمونها القبلة، حيث الكعبة، بيت الله، أقدس مقدسات المسلمين. فعليك أن تسأل أي أحد عن اتجاه القبلة وسيشير إليك. لا تخف، لن يشكَّ بكَ أحد لأنك غريب والغرباء يسألون عن القبلة دائمًا.

حسنًا.. راقبني جيدًا سأعملك الآن كيف تتحضر للصلاة، فلا بدَّ أن تغسل يديك ووجهك بالماء وتمسح مقدمة رأسك ومقدمة قدميك. سأقوم بها الآن بدون ماء، وسأكرِّرها حتى تتقنها، وبعدها سندخل في طريقة الصلاة وسأعلمك الحركات وستقوم بتكرارها حتى تحفظها، ثمَّ في وقت الصلاة الحقيقية سنستغل انشغال عامل القطار في الصلاة وسنذهب سويًا للحمام كي

تطبِّقَ ما تعملتهُ ونعود إلى الحجرة كي تؤدي الصلاة يا شيخ.

ضحك **هوفسيب** ببراءة ولمعت عيونه، وقال لها:

- كيف تعرفين كلَّ هذه الأشياء وأنتِ عالمة آثار؟

- لنقل أنا أيضًا لديَّ بعض الأسرار، ولستَ أنتَ الوحيد الذي يملك أسرارًا.

قبل الوصول إلى محطة الحلّة طلبت **المس بيل** من **هوفسيب** أن يسمح لها بأخذ صورة تذكاريَّة له، فردَّ بأنه لا يُمانع. فتحت حقيبتها الوسطى وأخرجتْ منها كاميرتها وقامت بنصبها، وكان **هوفسيب** قد ارتدى ثياب الشيخ بعمامتهِ البيضاء الكبيرة والتقطت له الصورة.

الفصل السادس

حينما نزل **هوفسيب** في الحلّة ورأى الناس هناك بثيابهم العربية البالية ولحاهم الطويلة الكثّة ولهجتهم التي لا يفهم منها شيء، شعر بالخوف يسري داخل جثته ويهزها بعنف، فارتعشت قدماه ويداه ووجهه. أحسَّ بالندم لأنه سمع كلام **المس بيل** ولم يكمل إلى **بغداد**. لم يكن مستعدّا إلى هذه المغامرة وتغيِّر الخطة. شَعَرَ بوحدةٍ مهولة وكأنه أفاق من تعويذة رمتها عليه **المس بيل** وجعلته يطاوعها. ومع سماعه لصوت أذان المغرب من المسجد القريب من المحطة، حاول تذكر الصلاة والحركات التي علمتها له، لكنه لم يتذكر شيئًا وكأن هناك حاجزٌ ضخمٌ بينه وبين ذاكرته. أراد أن يبكي، لكنه واصل المشي مع الجموع نحو باب المحطة وهو لا يدري ماذا يصنع. وما أن خرج من الباب الخارجي حتى سمع صوتًا يعرفه ينادي عليه:

– يا خَشَبَة.. إلى هنا يا خشبة.. يا خشبة.. يا خَشَبَةْ.

إنَّه **عنبر**، ذلك المنغولي، من **البصرة**، الذي أوصلهُ من المرسى إلى المحطة. كان

يجلس على عربته وفي فمه أكثر مما في يده من الخبز، ينادي عليه ويرفع يده ويشير إليه.

– أجلس على العربة ودعنا ننطلق. قال له ذلك والزبدُ يتطاير من فمه مصحوبًا بفتات الخبز.

– إلى أين؟ قال **هوفسيب** في نفسه ولم يستطع اخراج الصوت، فقال له:

– إلى حيث نبات الليلة، وغدًا من الفجر سآخذكَ إلى خالك الخشبة العتيقة التي تحولتْ إلى هلال.

استسلَم له **هوفسيب** وركبَ معه ولم يُطل الأمر. استسلمَ للقدر في الواقع. إنَّه لا يعرف أحدًا هنا ولا يعرف أين هو، وليس لديه خطّة بديلة.

قادهُ بهدوء، ليس كالمرّة السابقة، مع أن الشوارع هنا ليست مزدحمة مثل شوارع **البصرة**، والوقت ليل، فقد أغلقت كلَّ المحال والخانات والمقاهي، وعربات الحمالين غادرت. الدنيا هنا في المدن الصغيرة تنام مع الشمس وتصحو معها.

شارع المحطة كان فيه فوانيس قليلة مضاءة، وما بعد المحطة ليس سوى الصمت والظلام.

وما زال يقوده بوتيرةٍ واحدةٍ حتى وصلا إلى بيتٍ كبيرٍ داخل البساتين، مضاءٌ بفانوسين على جنبي درفتي الباب. فتوقف عند أحد الفانوسين وطلب من **هوفسيب** النزول، وقال له:

– دعني أتولى أمر الكلام.

دقَّ الباب بواسطة حلقةٍ نحاسية معلقة هناك، فخرج رجلٌ كهلٌ قارب على الأربعين، بلحيةٍ لم يزرها الشيب بعدُ إلا قليلاً، وما أن رآهما حتى فرِحَ وقال:

– أحسنتَ يا **فَوح** فلقد جلبتَ لي زائرًا. أنت لم تخذلني قط. تفضلوا.. تفضلوا.. أهلاً وسهلاً.

دخل قبلهما وسار أمامهما وفتح بابًا أخرى تطلُّ على حديقةٍ أخرى وخلفها مضافة فخمة، وتحت إحدى نخلات الحديقة كان هناك فرشٌ ووسائد وإبريق ماء وطشت. وقف عندها الرجل وأشار بيده إليهما وقال:

– تفضلا.. ارتاحا.. وتوضِئا أن كنتما لم تصليا بعد بينما أعدُّ لكما الطعام.

فقال **فَوح**:

– لقد توقفنا وصلينا في المسجد، وهذا سبب تأخرنا. نريد أن نرتاح فقط.

فقال الرجل:

– ارتاحا أرجوكما.. تفضلا.. وسأحضر بعد قليل.

بعدما ذهب الرجل قال **فَوح لهوفسيب**:

– هذا الرجل أحد أعيان الحلّة، نسبه يعود إلى رجل دين معروف، انَّه يفتح مَضافتِهِ لكلِّ الزوار الذاهبين لزيارة قبر **علي بن ابي طالب** في **النجف** أو زيارة قبر ابنه **الحسين** في **كربلاء**، **فالحلة** ملتقى طُرق. سنأكل هنا وغدًا مع صلاة الفجر التي ستتذكرها لاحقًا، سنغادر ولن نتوقف إلا في خان **دبي** ثمَّ وقبل

الغروب سنتوقف عند خان **اليهود** في **الكفل**. المسلمين يسمونه **الكفل** واليهود يسمونه **حزقيال** أما أنتم يا خشبة فليس لديكم هنا موضع قدم. الزائرون يقطعون المسافة من هنا إلى **النجف** في ثلاثة أيام لكننا سنقطعها في يومين أو يوم ونصف. لن نذهب إلى **كربلاء** كما اخبرتك الجاسوسة، بل لديَّ طريقٌ أفضل.

– لكن من أنت؟ ألم تكن في **البصرة**؟ كيف وصلت إلى هنا؟ هل ركبت القطار معنا؟ لكن كيف؟ قال **هوفسيب** وهو يريد أن يسأله أكثر، لكن **فَوح** قاطعه قائلاً:

– بعد قليل سيأتي الرجل بالطعام وهو لا يجيد التركيَّة أو الفارسيَّة، فلمّا يرى أنك لا تجيد العربيَّة سينصرف. وسأحدثكَ بكلِّ ما تريد.

حينما عاد صاحب البيت بالأكل كان **هوفسيب** يغطُّ في نومٍ عميق، فلم يشأ الرجل ازعاجهما بعدما اتضح له بأنهما متعبان إلى هذا الحدّ، فقال **لفوح**:

– لو شعرتما بالبرد أثناء الليل فيمكنكما الانتقال إلى الحجرة الكبيرة هذهِ واتركا كلَّ شيء هنا. الحجرة فيها فرشٌ وأغطية... وتركهما وذهب.

أكلَ **فوح** بشراهة ثمَّ نام هو الآخر ليس بعيدًا من صينية الأكل النحاسيَّة، لكنه استفاق قبل الفجر، فمدَّ يده وهزَّ **هوفسيب** وقال له:

– أفق يا خّشَبَة. حان الوقت للرحيل.

لم يترك له مجالًا للسؤال عن شيء، بل قاده وهو ما زال نصف نائمٍ ووضعه على عربته وانطلق به إلى أحد الخانات القريبة. تسوَّرَ سورها وفتح الباب المغلق من الداخل. تزامن ذلك مع أول بحَّة صوت مؤذن المسجد مناديًا للصلاة. فتح الباب وأدخل عربته وأخذَ بغلاً من البغال المربوطة هناك وخرج به. وضع **هوفسيب** عليه وأعطاه خبزةً ناشفةً وتمرتين وقال له:

– كُلْ يا خَشَبَة وتمسك جيدًا فأننا سنطير.. ليس إلى المسجد الأقصى بل إلى خان **دبي**.

أحسَّ **هوفسيب** بأن البغل يطير، كان أسرع من أي شيء ركبه من قبل، لكنه لم يكن أسرع من **فوح** الذي كان يتقدمهم. كان كلَّ من يصادفهم في الطريق يتوقف ليراقب مشهد حركات **فوح** وهو يركض بطريقة مضحكة ويسبق البغل الذي كان يركض بسعادة خلف **فوح**، بينما كان **هوفسيب** الممتلئ الجسم قليلاً، الأبيض أكثر حتى من عمامته الكبيرة، ممسكًا بعنان البغل بيديه الضخمتين وملامحه السعيدة ولمعة عينيه وحركات خديه، وظهور واختفاء غمازتيه كانت الأكثر اضحاكًا للعابرين.

وصلا إلى خان **دبي** عند الظهر، مع إنَّ الزائرين الذين يعبرون المسافة بقوافل كانوا يصلون إليه قريب المغرب ويباتون فيه، ثمَّ يكملون مسيرهم في اليوم التالي حتى خان **الكفل**.

خان **دبي** يملكه أحد **اليهود** الذي أسرعَ وقدَّم لهم الفاكهة والماء، فلم يكن من شأن صاحب الخان أن يطبخ للنزلاء. لم تكن المطاعم قد عرفتها المنطقة بعد. اعتنى صاحب الخان كذلك بالبغل، سقاه وقدَّمَ له العلف، وبالطبع فقد أخذ مالًا مقابل هذه الخدمة، مع أن أكثر الخانات في طريق الزائرين هي خانات مجانيّة. أنشأها الميسورون من التجار أو من أعيان المناطق القريبة لخدمة زوار المراقد المقدسة. يعمل بها أشخاص يتم تعيينهم من صاحب الخان وأكثرهم يتطوعون للعمل ويقدمون خدماتهم مجانًا للزائرين طمعًا في الثواب الأُخروي.

ليس بعيدًا عن خان **دبي** كان قد عَبَرَا بين تلّين مرتفعين، أحدهما كان مرتفعًا أكثر وعليه بقايا أطلال بناءٍ مرتفع، سأل **هوفسيب** عن التلَّين؟ فهزَّ **فوح** رأسه ولم يجبه. لم يعلم **هوفسيب** مغزى هزّة رأس **فوح**، هل كانت تعني أنه لا يعلم، أم أنه هزَّ رأسه من حرارة الجو؟ لأنه واصل هزَّ رأسه بعد ذلك كثيرًا ولم يكن يتكلم معه بشيء.

كان هناك بعض الجندرمة **الأتراك** على مسافة قريبة من الخان يرافقون بعض التجار. كانوا ينظرون إلى **فوح وهوفسيب** بنظرة شكّ، لكنهم لم يعترضوا طريقهم، وحتى داخل الخان حينما جلس الجميع متقابلين، كان الجندرمة ينظرون إليهم ويتهامسون بينهم، لكن الأمور لم تتطوّر أبعد عن ذلك.

قُبيل الغروب وصلا إلى مرقد النبي **ذي الكفل**، لكن **فوح** لم يتوقف أمام باب المرقد الكبير ولا أمام باب الخان الملاصق له (خان الكفل) بل توجه صوب النهر، خلال بستانٍ هناك وعبر غابةً كثيفة من أشجار النخيل والسدر والبرتقال والرمان والنارنج، ممتدة من ساحل نهر الفرات حتى الخان من الخلف. وبعد مسافة ليست بقصيرة. ترك **فوح** البغل وأمسك بيد **هوفسيب** وتوجه به نحو بابٍ صغيرة تكاد لا تُرى تقع عند الجدار الفاصل بين مرقد النبي وبين الخان، وقال له:

– ستبات هذه الليلة هنا، ومن الفجر عليك عبور النهر والتوجه إلى **النجف**.

– سأبات!

– لا تخف، انَّهُ عجوز طيب، سيهتم بك هذا المساء وربما سيساعدك في عبور النهر.. كلُّ ما عليك فعله هو الذهاب إلى ساحل النهر خلف مرقد النبي. المعبرُ ليس بعيدًا من هنا، ستجد الكثير من العبّارين والكثير من الناس الذين يريدون العبور ويمكنك أن تعبر معهم. وإذا عبرتَ فابحث عن رجلٍ يُقال له **طارش**، إنَّه يملك أسرع حصانين في المنطقة، حتى تصل النجف قبل أن تُغلق أبوابها ولن تضطر إلى المبيت في المقبرة.

– ألن تأتِ معي؟ هل تتركني هنا؟ سأعطيكَ أي مبلغ تطلبه، فقط، أبقَ معي لحين الوصول إلى بيت خالي.

– أنا لا أستطيع عبور الأنهار.. ولا أريد منك مالًا، فقد أخذتُ منك ورقة كبيرة حينما كنت نائمًا وتركتها في صينية الرجل الطيب الذي استضافنا في **الحلّة**.

– أخذتَ ورقة كبيرة من المال! أين وجدتَ المال؟

– إنه داخل كتابك الذي لم أرك تفتحه وتقرأ منه ورقة.. هناك شيء أخير: عندما تصل الى **النجف** لا تسأل شخصًا كبيرًا عن خالك، بل اسأل الصبيان فهم سيرشدونك أسرع، ولا تخبر أحدًا بأنه خالك، بل قلْ إنه قريبك.

بعد أن أنهى كلامه مع **هوفسيب**، عاد **فوح** الى طبيعته المنغوليَّة وسال المخاط من أنفه ووصل إلى فمه. ثقل لسانه، وانحنى طوله وكأنما الجاذبية الأرضية امتصته فجأة، وطرق الباب بعبث. خرج رجلٌ عتيق يشبه الغبار في البيوت المهجورة وابتسم بوجه **فوح** بفرحٍ أبوي وقال بتلقائية:

– أين أنت يا **فوح**؟ لقد اشتقتك جدًا.. ثمَّ انتبه لوجود **هوفسيب** فرمقه بنظرة سريعة غير كافية لتعلق صورته في مخيلته، ومدَّ يده وأمسك بيد **فوح** وقال:

– أدخل يا **فوح**، تعال لترتاح، لا بدَّ أنك عطشان وجوعان.

سحب **فوح** يده برفق وقال بعد توقف قصير ونفس عال:

– لقد جلبتُ لك ضيفًا، وجدته تائهًا، أما أنا فعليَّ تسليم البغل لصاحبه قبل الظلام. حاول أن تعوضه عن ربّه الذي رفعته على خشبة.

الفصل السابع

سرعان ما حلَّ الليل.. فلم يكن غير أن جاء العجوز بطعامٍ **لهوفسيب** وتركه يأكل حتى رحل النهار. جاء له بجرَّةٍ فخاريّة من الماء وبعض التمر والزبيب المجفف والخبز والبيض المسلوق والفجل. كان يخطو ببطء مثل شجرة تنزع عروقها وتنقلها عِرقًا بعد عِرق لتعود تنزعها من جديد لتنتقل خطوة أخرى. ما أن جلسَ – قرب مكتبته الصغيرة التي تحوي كتبًا بلغات عدّة – على كرسيٍّ خشبي عريض بحجم سرير الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا العاشرة، وأخرج غليونًا، ووضع فيه التبغ وأشعله، وراح يبحث عن عويناته الزجاجية، وانتقى كتابًا بالفرنسيّة، حتى لم يعد الظلام محتملاً، ممّا استدعى العجوز أن يؤجل القراءة ويعود لنقل جذوره إلى زاوية قريبة من سريره. أخرج من صندوق نحاسي هناك ثلاث شمعات كبيرات وقام بإشعالها. وضع واحدة على طاولة الطعام التي كان يجلس عندها **هوفسيب** بلا حراك وكأنه تمثال من الحجر، ووضع الثانية عند المكتبة – على طاولة صغيرة بين كرسيّه والأريكة الكبيرة – ووضع الثالثة في الشمعدان السباعي الصدئ الذي كان نسخة مقلدة عن **المينوراه** بجانب جدار مرقد النبي، وعاد إلى مكانه. ثمَّ قال دون أن ينظر إلى

هوفسيب:

- الشموع غالية هنا ونادرة، لذلك فأنا احتفظ بها للمناسبات الدينية فقط، لكن هذه الشموع جلبتها حفيدتي معها من بغداد. أبوها يعمل في القنصلية البريطانية حيث تتوفر لديهم أجود أصناف الشموع وبكثرة، فتراني أشعلها دون ندمٍ كبير..

ثمَّ سكت وهو يقرِّب غليونه من الشمعة في محاولة لأعادته إلى العمل وقال أثناء ذلك:

- يبدو أنك من عائلة مترفة، والدنيا تقسو عليك. وانتَ بحاجة بين فترة وأخرى لقليل من الرفاه. هذا لو اعتبرنا أن ضوء الشموع رفاه.. بالمناسبة اسمي **مراد شلومو**.

أجالَ **هوفسيب** برأسه في الحجرة بعدما توقف عن الأكل والغيبوبة التي كان فيها. كانت الحجرة باردة وخالية من الأثاث تقريبًا إلا من سريرٍ خشبي يلتصق به صندوقٌ نحاسيّ، وأريكةٍ عليها سجادة ملونة غير سميكة، وكرسيٍّ كبيرٍ نسبيّا، وثلاثة أبواب: الباب الذي دخل منه وباب على جدار ضريح النبي وباب على الخان، ومكتبة وعجوز.

- أنا **جوزيف**.

- **يوساف**.. اسم جميل ومبارك. قال **شلومو** ذلك، ثمَّ التفت اليه وأضاف:

– لو أنك انتهيت من طعامك فيمكنك الانضمام إلي.. الجلوس هنا أكثر راحة من كرسيِّ المائدة. لا تكن خجولًا.

قام **هوفسيب** من مكانه، جلسَ على الأريكة مقابل **شلومو** وراح يراقبه كيف يمتص الغليون وينفث الدخان. راح يراقب الدخان وهو يتلوى فوق ضوء الشمعة وتسربتْ منه ابتسامة دون أن يشعر.

سأله العجوز عن الابتسامة؟ فقال بأن الدخان يشبه جدائل اخته الصغيرة، فقال له **شلومو**:

– أرى انكَ مهتمٌ بالفلسفة.. كتابك "موجز تأريخ الفلسفة المبسَّط" مدخل جيد للولوج في هذا العالم الجميل. هل تعرف **سبينوزا**؟

– **سبينوزا**؟

– أنا مثلك أحبُّ الفلسفة وأحبُّ **سبينوزا** بشكلٍ خاص. أحبُّه شخصيًّا وأحبُّ فلسفته. **سبينوزا** معجزة. **سبينوزا** فيلسوف هولندي عاش منذ ما يقارب الثلثمائة سنة. أقل من ثلثمائة سنة. عندي له هنا كتابين لو أحببت التعرف على فلسفته، لكنه صعبٌ على ما أظن. يحتاج الشخص الذي يريد فهم **سبينوزا** لأن يكون لديه الشكّ الذي كان عند **سبينوزا** والشجاعة التي كانت لديه، واعتقد بأنَّها شجاعة نادرة. شجاعة أن تفكر بعيدًا عمّا تظنه حقيقة. كنتُ أتمنى لو أني تعرفتُ عليه مبكرًا.. **سبينوزا** باختصار يقول: **" أنّ الخير الأسمى يكون في فرح المعرفة"** أسعدني رؤية كتابٍ للفلسفة مع شابٍ صغير.

عمري الآن تسعون سنة وربما أكثر... ثمّ أن **شلومو** توقف قليلاً وقال: هل يبدو حديثي مملاً لك؟

- أبدًا.

- أرجو أن تخبرني حينما تشعر بالملل، فنحن الكبار في السنّ لا نعرف متى ينبغي علينا التوقف عن الكلام. وكأننا خلال عمرنا الطويل لم نقل كلَّ ما أردنا قوله، لذلك فإننا نستغل أي فرصة كي نتكلم، نتكلم كثيرًا، وأكثر كلامنا تافه وبلا معنى.

- كلامك مريح، أرجوك لا تتوقف.

- هل يمكن أن أسأل عن سبب وجود فتىً مثلك في هذا المكان. اعذر فظاظتي لكني أشعر بالفضول ليس إلا.. لا يمرُّ من هنا أشخاصٌ مثلك.. ماذا يفعل فتىً مسيحيٌّ وحيدٌ ظاهرٌ عليه معالم الدلال، في مكانٍ مليءٍ باللصوص والأشرار، في وقتٍ صعب؟

لم يجب **هوفسيب** بشيء وبقي ساكتًا، فشعر **شلومو** بفراسة سِنِّهِ وعقلهِ أنه أخاف الفتى، فحاول أن يبددَ مخاوفه، فقال:

- ربما تفكر الآن في لو كان كلام هذا العجوز صحيحًا، فلماذا ما زال هنا، يعيش بين الأشرار؟ والجواب ببساطة: ليس لدي مكان آخر أذهب إليه. روحي عالقة هنا. أنا تاجر وابن تاجر، ورثتُ هذا الخان عن أبي الذي بناه لاستضافة الزائرين اليهود إلى النبي **يحزقيل، أنت تعرف النبي يحزقيل اليس كذلك؟** لكن سبب

بناءه الأصلي كي يكون حصنًا لليهود الذين يتعرضون للاستفزاز على طول الخط. تلجأ إليه العوائل اليهودية المقيمة هنا حينما تندلع حرب بين العشائر العربية الذين لا يتوقفون عن الحرب كلما جاعوا، والجوع هنا كثير.

الخان يمتلئ بالزوار في مناسبات دينية مُعيَّنة، ويكون فارغًا أكثر الأوقات، مثل هذا الوقت مثلاً.

لقد سافرتُ إلى أماكن كثيرة أبعد مما تتخيّل. لقد ذهبتُ إلى **تركيا** وإلى بلاد **فارس** وإلى **اورشليم** وعبرتُ البحر إلى بلاد **الأسبان**. حتى أني فكرتُ بالذهاب إلى **أمريكا**، لكن روحي عالقة هنا، وليس لديَّ مكان آخر أشعر فيه بأنَّه مكاني. أنا روحٌ قديمةٌ ملعونةٌ مرتبطة بهذه الأرض الملعونة.

هل رأيتَ التلّين المرتفعين في طريقكَ إلى هنا؟

– نعم، وسألتُ **فوح** عنهما ولم يجبني.

– هذا المكان هو مدينة **بورسيبا**، التلّ الأعلى الذي ما زال عليه بقايا جثة برج، هو برج **بابل**. حيث تجمَّعَ الناس هنا بعد الطوفان وأرادوا أن يربطوا الأرض بالسماء فبنوا برجًا فوق برج، حتى بلغو ثمانية أبراج، وكان في نيتهم أن يصلوا إلى السماء لكن الإله السرمدي لم يقبل بهذا التحدي فبَلبَلَ ألسنتهم كي لا يستطيعوا فهم بعضهم البعض، ثمَّ شتَّتهم بعد ذلك في الأرض. كلُّ أهل لسانٍ اختاروا لهم بلدًا وتكاثروا فيه. ولأن الإله بَلبَل ألسنتهم فقد سمِّيت المدينة **بابل** بعد أن كان اسمها **شنعار**. أنا أشعر أني روحٌ قديمة من بُناة البرج، لذلك لا أستطيع مغادرة المكان.

- وماذا عن التلّ الثاني؟

- التلّ الثاني يُقال بأنه مكان ولادة **أفراهام (أبرام، إبراهيم)** وهناك أساطير للأهالي تقول بأنه أيضًا المكان الذي رمُي فيه بالمنجنيق وسط النار العظيمة، إلا انه لم يرد في التوراة أن **أفراهام** قد تعرض للحرق، نعم لقد مرَّ **ببابل** بعدما أمره الإله السرمدي بترك **أور** الكلدانيين والتوجه إلى الأرض الموعودة.

هل رأيت؟ كلُّ شيء متشابكٌ هنا في هذه الأرض، التأريخ والدين والحبُّ والكره والتسامح والانتقام والأسْر والعبودية والتطلع للحريَّة والانعتاق. ملوك بعد ملوك وامبراطوريات بعد امبراطوريات، القوّة والضعف، الخوف والأمل، الشر والخير. فكيف يمكنني الخلاص من كلِّ هذا؟ أنا عبد هذه الأرض، وخلاصي الوحيد أن أموت هنا وتختلط ذرات جسدي مع ذرات غبار برج **بابل**.

يقول سبينوزا أيضًا: " **أهواء الإنسان الدينيّة والسياسيّة هي سبب بقائه في حالة العبوديّة**"

- لماذا يقتل البشر بعضهم بعضًا؟

- يا لهول خسارتك أيها الصغير! ماذا رأيتَ كي تسأل هذا السؤال؟! لقد كبرتَ سريعًا يا فتى، وعلى العالم أن يتقبل أنك كبرت. على العالم الذي لا يستطيع تصحيح خطأَه تحمُّلَ الانعكاسات المضادَّة لذلك الخطأ. لقد غادرتك البراءة يا **يوساف**، لكن أرجوك ألّا تغادرها أنت.

لم يقل **هوفسيب** شيئًا. كانت عيناه مستغرقتان في ضوء الشمعة، وأذنيه عند فم **شلومو**، ولأن **شلومو** قارئ نفوسٍ محترف قال:

– هناك أسبابٌ كثيرةٌ للقتل. العالم مبني على القتل. كلُّ شيءٍ يقتلُ كلَّ شيء. ليس النباتات والحيوانات فقط، وليس على اليابسة أو في أعماق البحار أو فوق السحاب فقط. الليل يقتل النهار والنهار يقتل الليل. الربيع يقتل الشتاء والشتاء يقتل الخريف والخريف يقتل الصيف والصيف يقتل الربيع. الحرارة تقتل الماء والماء يقتل الحرارة.
ليس النقيض من يقتل النقيض فقط، بل الشبيه يقتل الشبيه أيضًا. الحبُّ الجديد يقتل الحبُّ القديم. الذكريات لا تُنسى ولا تختفي إلا بذكريات جديدة. هناك أشخاص يحترقون من عدم الاهتمام وهناك أشخاص يحترقون من الاهتمام الزائد. الحبُّ قاتلٌ ومقتول، والذكريات قاتلة ومقتولة، والاهتمام قاتل ومقتول، وكذلك الإنسان.

قد تسأل أين الله إذن؟ لكني لا أسأل عن ذلك، لقد غادرتُ منطقة ذلك السؤال منذ زمن بعيد. أنا أسأل أين الإنسان؟ أين الأخلاق؟ أقصد بالأخلاق هنا هي دوافعنا الحميدة التي من أجلها اخترعنا القرية والمدينة والأديان والفلسفات والقوانين والحروب؟ كيف يمكن أن نصل إلى الدافع الحميد بأسلوبٍ غير حميد؟ أنهم يبرِّرون الحرب بأنها وسيلة إلى الوصول إلى العدل. يبرَّرون القتل

بالاعتراف بأنه أسلوب غير حميد لكنه طريقةٌ للوصول إلى نتيجة حميدة!؟ ألا تضحكك هذه الفكرة؟

يضحك **شلومو** بصوتٍ عالي، يشاركه **هوفسيب** الضحك، ثم يعود ليقول:

– لا أحد يقتلك ويقول أنا قتلتك لأنني شرّير، بل يقول أنا قتلتكَ لأحقق العدالة. أليس العدالة خيرٌ والقتل شرّ؟ كيف يمكن للعدالة أن تتحقق عن طريق القتل؟ إذا كانت دوافعنا الحميدة تؤدي إلى ذات النتيجة التي تؤدي إليها دوافعنا السيئة، فما فائدة دوافعنا الحميدة؟ ما فائدة الأخلاق والفلسفة والدين؟

يوساف لا أدري إن كنتَ ما زلتَ صغيرًا على هذا الكلام أم لا؟ فالحياة علمتني ألّا علاقة للعمر ولا للتعليم بالنضج، إلا بمقدار نسبيٍّ قليل جدًا.

النضج موهبة.. أعتقد ذلك. النضج رؤية. النضج معرفة. لذلك فأنا سأفترض بأنك تفهمني. لكن ما الداعي لأن أقول لك ما سأقول لك؟ ربما لأني أرى فيك شخصًا استثنائيًا، والعالم يُشكِّله الأشخاص الاستثنائيون، بخيرِهِ وشرّه. وربما لأني أريد لك أن تفهم كي تتجاوز التجربة التي مَرِرْتَ بها، أيًّا كانت. وربما هو نفس السبب الذي يجعل الانسان يقتل: البقاء.

نعم يا **يوساف** هي غريزة البقاء. ما دام هناك موتٌ فسيكون هناك قتل. نحن نقتل كي نبقى. لسنا حيوانات بل أسوأ، الحيوان يقتل دون متعة.. نحن نقتل ونستمتع بالقتل. الحيوان يقتل ويأكل فريسته.. نحن نقتل ونرمي فرائسنا للدود والكلاب. وأنا أريد أن أبقى من خلالك، لكن هل هو البقاء فقط ما يدعونا إلى

القتل؟ لا.

ما أردتُ قوله وخشيتُ أنك لن تفهمني، أو لن تتقبل فهمي للأمر، هو أن شرائعنا المقدسة هي مِنْ وَضْعِ أنفسنا، إذ لا يمكن للكامل أن يضع شريعة ناقصة، وكلّ شرائعنا ناقصة.. حتى لا تتهمني بالانحياز لشريعةٍ على حساب أخرى. لا يمكن يا **يوساف** أن يخلق الإله السرمديّ الشرّ، ويجعلنا قادرين مثله على صنع الشرّ، ويطالبنا بأن نكون أفضل منه ونصنع الخير فقط.

– قلتَ بأن البقاء ليس هو السبب الوحيد الذي يجعلنا نقتل، فما هي الأسباب الأخرى؟

– أنت تؤكد كلامي من إنك شخص استثنائي. نعم البقاء ليس هو السبب الوحيد الذي يدفعنا للقتل، فهناك أسباب كثيرة أخرى، لكني أُرجِّحُ أسباب **سبينوزا** فهو يرى بأنَّ السبب الذي يدفع الإنسان لقتل أخيه الإنسان: وقوعه تحت سطوة **الانفعالات الحزينة**. بالطبع فأنه قد فصلَّ هذه الفكرة بتفصيل طويل لكني سأختصر لك فكرته كما فهمتها أنا.

سبينوزا يقول بأن أصل كلِّ عملٍ قبيح، شرّير – ومن ضمنها القتل – هو الحزن، فالحزن هو الأصل وينتج عنه انفعالات أخرى كالكراهية، الخوف، الشفقة، الاستياء، السخط النفور، الاستهزاء، الحسد، الغضب، وغيرها. ولأن الإنسان بطبعه مُحبٌّ للفرح والنشوة والنصر فهو مُلزَمٌ بفعل كلّ شيء لإبعاد الحزن وتهديم الشّيء الّذي يسببه. فالقاتل يرى في القتيل سبب حزنه. أنت تقتل

لأنك تشعر بالحزن، وهذه مأساة لأننا كلّنا نشعر بالحزن، فكلّنا باستطاعتنا القتل، لكن تنقصنا الشجاعة....

قطع شلومو كلامه عندما سمع ضجة وهمهمة من الخارج، قادمة من وراء الباب الفاصل بين حجرته والضريح. أمال برأسه عن **هوفسيب** نحو مرقد النبي وحاول الاستماع بتركيز، لكنه لم يلتقط أيَّ كلامٍ واضح، فتوجَّهَ صوب الباب الآخر المؤدي إلى الخان. فتحهُ وأطلَّ برأسه فلم ير شيئًا أو يسمع شيئًا، واربهُ دون أن يغلقه، وعاد وهو يهزُّ رأسه بمرارة وأعاد نظره **لهوفسيب** وقال:

– أخشى أن العشائر العربية جاعتْ من جديد.

– ماذا تقصد؟ قالها **هوفسيب** بخوف وعيونه آخذه في الاتساع.

– هناك بعض أفراد العشائر الخارجين عن القانون يقطعون الطرق وينهبون الخانات والمتاجر. ينشطون بين فترة وأخرى بحسب ضعف الدولة وقوّتها. لكن لا تخف، فالخان محصنٌ جدًا ومن الصعب عليهم اقتحامه.

– هل سيكونون عند المعبر فجرًا؟ هل سيعترضون طريقي إلى **النجف**؟

– لا.. لا.. الطريق إلى **النجف** مطروقة على الدوام ومحروسة جيدًا. انَّهم يقطعون الطرق على القوافل في القفار. ويَسْطون على الخانات والمتاجر في الليالي غير المقمرة. كهذه الليلة. وضحك **شلومو** ممازحًا **هوفسيب** كي يخرجه من حالة الهلع التي انتابته، ثمَّ قال له:

– هل لديك معارف في **النجف**؟ يمكنني مساعدتك في الحصول على مأوى لك هناك. أعرف رجلاً أمينًا في خان **شعلان** في **عكد اليهود** سيساعدك إذا ما عرف أنك من طرفي.

– لديَّ خالي هناك.

– هذا خبرٌ جيد.. لا تقلق ستكون غدًا مع خالك. والآن أخبرني هل تريد النوم؟ أم تريد السهر قليلاً بعد؟

– لا أشعر بالنعاس.

– حدثني: ماذا كنت تعمل في مدينتك؟

– أنا أدرس علم اللاهوت والفلسفة وتاريخ الكنائس الشرقيّة، في مدرسة أجنبية، بريطانية، فلقد كان والدي يعدُّني لأن أكون قسًّا. كما كانت أمّي تعلمني العزف على الكمان.

– لديك مواهب كثيرة يا **يوساف**، ولحسن الحظ فلديَّ هنا كمان، فهل تمتعنا قليلاً؟ ودون أن ينتظر ردَّ **هوفسيب** سار نحو صندوقه وهو يقول:

– لقد مرَّ وقت طويل على آخر مرّة سمعتُ فيها صوت الكمان، ولقد كبرتُ جدًا على استخدامه.

انحنى ببطءٍ وأخرج علبة الكمان من الصندوق وفتحتها بخشوع وأخرج كمانًا رمّانيًّا وأعطاه إلى **هوفسيب**.

لمعتْ عينا **هوفسيب** وأخذ الكمان ومسح عليه بابتسامة وحضنه كما يحضن أمّه

وراح يعزف حتى توهج وجههُ وأصبح شمعةً رابعة.
كان عزفًا يشبه الصلاة أو الهروب. كان عميقًا بحيث أنه ترك مسافة ضائعة في الوقت بين النهاية وبين سؤال شلومو:

– هل هذهِ سوناتا الكمان الثانية **لبيتهوفن**؟
– انها "شاكون" **ليوهان سيباستيان باخ** يا جدّي.

جاء صوت **ياعيل** من الزاوية المظلمة بين الحائط والباب. جفل **هوفسيب**، التفتَّ لا إراديًّا نحو الصوت، وأشاح ببصره نحو **شلومو** بعد أن تقدمت خطوتين نحو الضوء وأنكشف وجهها الأبيض، بينما مازال شعرها الأسود وثيابها الداكنة تعوم في الظلام.
أجابها **شلومو** بلغة **لادينو** أنه يعرف أن المقطوعة لـ**باخ** وهي عالمٌ غامض لا نهائيّ من أعمق وأنبل وأقوى الأفكار والمشاعر التي ألفها للتعبير عن حزنه بوفاة زوجته، لكنه أحبَّ أن يسمع من **هوفسيب** سبب اختياره لهذه المقطوعة بالذات وعزفها الآن. ثمَّ ودون فاصلة قال **لهوفسيب**:

– هذهِ حفيدتي **ياعيل** يا **يوساف** – ابنة حفيدتي على وجه الدقّة – لا بدَّ أن عزفك الجميل شدّها إلى هنا، فأنا لم أرها منذ الصباح.

ثمَّ قال **لياعيل**:
– هذا **يوساف**، ضيفنا هذه الليلة، ومرحبٌ به بالبقاء إلى حيث يشاء. وألتفت

إلى هوفسيب من جديد وقال:

- **ياعيل** تقول إن هذه مقطوعة باخ.

قال **هوفسيب** باستغراب وفرح:

- نعم إنها شاكون.. ولكن..

فقال **شلومو**:

- **ياعيل** تعلمتْ **الإنجليزيَّة** مبكرًا، فهي تقضي معظم وقتها في القنصلية البريطانية مع أبيها، وصارت تستعير الكتب من هناك، كما أنها تذهب إلى مدرسة الراهبات التقدمية **الأمريكيَّة** في **بغداد**، فلديهم مشغلٌ ملحقٌ يعلم البنات التفصيل والخياطة، وهي مشاغبة جدًا وتتعلم العزف في السرّ. مع إن لدينا مثلاً يقول: " **ألف طفل مجنون ولا بنت خاتون**" لكن والديها من الجيل الجديد المتأثر بالغرب والذي يؤمن بتعليم البنات.

- الفتيات عندنا لا يعرفن هذه الأشياء بالعادة.

- وعندنا كذلك، فالفتيات هنا تتزوج بعمر الثامنة وتبقى في بيت أهل زوجها حتى تبلغ. الفتاة التي تصل إلى سن السادسة عشرة ولم تتزوج تقل فرصة زواجها وتوصف بأنها عانس. لا أحد يهتم بتعليم الفتاة غير أمها التي تعلمها كيف تكون زوجة جيّدة، لكن **ياعيل** مختلفة، فهي في عمر الثانية عشرة الآن ولم تتزوج بعد.. لديها أحلام.

في هذهِ الأثناء دخل عليهم، **عوفاديا،** حارس الخان وهو يرتجف ويلهث مردداً:

– لقد دخلوا يا سيدي، لقد دخلوا.

قال له **شلومو**:

– مَنْ؟

– العرب.. العرب دخلوا الخان.

– ماذا؟

– لقد نجح رجلان بتسوّر السور الخارجي وفتحوا الباب لجماعتهم، وهم يتوجهون الآن صوب الباب الداخلي.

فقال **شلومو لهوفسيب**:

– خُذ **ياعيل** يا **يوساف** واخرج من الباب الخلفي الى البستان، أنا لا آمن عليها هنا. ستجد كوخًا صغيرًا على النهر، **ياعيل** تعرف طريق الوصول إليه، اجلس فيه حتى أبعث **عوفاديا** خلفك. لا تخف لن يصل أليكما أحد، فلم يحدث أن هاجمنا اللصوص من النهر من قبل.

ثمَّ قال **لعوفاديا**:

– اغلق الباب خلفهم وتعال معي لنكلم اللصوص ونحاول إقناعهم بعدم وجود شيء لسرقته.

خرجتْ **ياعيل** في صمتٍ، خلفها **هوفسيب** مرتبكًا لكنه غير منهار، وقبل أن يغلق **عوفاديا** الباب خلفهما قال **شلومو**:

- **يوساف**.. من باب الاحتياط فقط، إذا لم يأتكَ **عوفاديا** حتى شروق الشمس فلا ترجع إلى هنا. خذ **ياعيل** إلى خان **شعلان** في **عكد اليهود** وأسأل عن **إلياهو دنگور** وهو سيعيدها إلى **بغداد.**

الفصل الثامن

كانت ليلة بلا قمر. مظلمة كالشيطان. تعثَّر **هوفسيب** أكثر من مرّة وهو يتبع **ياعيل** التي تسير بخفَّة مثل فراشة، وقد بدأت المسافة بينهما تزداد. توقفت وانتظرته، ثمَّ ازدادت المسافة ثانية، فتوقفت وانتظرته.

وصلا إلى الكوخ المحاذي لضفَّة النهر. لا شيء منه يشبه الكوخ الذي يعرفه أو الذي رسم خياله صورة له عندما سمع مُفردة كوخ وهي تخرج من فم **شلومو**. سعفٌ يابسٌ مرصوص بعشوائيَّةٍ بين نخلتين قصيرتين غَضَّتين، لا يمكن تميزهُ عن أي نخلة أخرى في البستان – هذا إن كان هناك ضوء – أمّا في الليل فيغيب عن العيون كأنه شرخُ ذكرى قديمة في رأسٍ مصابٍ بالزهايمر، فلا يمكن لأحدٍ تميزه حتى لمن يعرفه.

دخلتْ **ياعيل** حبوًا من فتحة الكوخ المواجهة للنهر، تبعها **هوفسيب** وجلسا بمواجهة المدخل. فتحةٌ صغيرة تتسع لدخول ثعلب، لكنها تتمطى لدخول بقرة. فالجدران غير مربوطة من الجانب، حتى السقف غير مغلق تمامًا، فيه شروخٌ للتجسس على السماء وبإمكان المطر اختراقه.

المكان في الداخل يتسع لشخصين ونصف. تفترش أرضه (بارِيَّة) حصيرةٌ من القصب المحبوك، كانت قديمة وبالية، ظنَّها **هوفسيب** بعدما استقر وتلمَّسها بأنها من الخيزران، حتى رآها قبيل الفجر وسأل **ياعيل** عنها.

مرَّ وقتٌ طويلٌ من الصمت. كان النهر أشبه بالهارب من شيءٍ ما. أمواجهُ متسارعة مثل مَنْ يلهث. وكان نقيقُ الضفادع عاليًا ومتواصلاً، يُشكِّلُ مع عرير الصراصير، وصوت يرقات الخنافس التي تأكل جذوع الشجر، مع أزيز الحشرات الطائرة بالقرب من الجرف. كانت الأصوات المتداخلة تشكِّلُ إعلان استقبال الفجر الذي يقترب، لكن، ومع كلّ هذا الضجيج، كان صوت تسارع نبض **هوفسيب** هو الأعلى.

– ماذا بك يا **يوساف**؟ هل أنت على ما يرام؟

سألته **ياعيل** بلغةٍ تركيّة ركيكة مصحوبة بلكنة خفيفة.

أجابها **هوفسيب** بصوتٍ واطئ يكاد لا يُسمع:

– تحدثي معي بالإنجليزية، إن كنتِ ترتاحين للكلام بها، فقالت له بلغةٍ إنجليزية سليمة وبذات اللكنة الخفيفة:

– نعم، أرتاح للإنجليزية أكثر.. سألتك إن كنتَ على ما يرام؟

فقال لها:

– فهمتُ سؤلك.. ولكن، ماذا لو وجدنا اللصوص؟ هل سيقتلوننا؟

– اللصوص لا يقتلون.. يسلبون ويغتصبون.

– لا أراكِ خائفة؟

– أنا ابنة هذهِ البلاد، وهذهِ حياتنا الطبيعية. الخطر يمشي معنا كظلنا.. لا تخفْ، لا أحد سيأتي غير **عوفاديا**، فعلى يميننا غابة شاسعة من الأشجار والبساتين تمتدُّ طويلاً، والنهر واسعٌ وسريع، وعلى يسارنا المَعْبَر، حيث أغلب أصحاب القوارب لا يغادرونها أيام مواسم الحجيج، فلا يجرأ اللصوص على الاقتراب. اللصوص لا يبحثون بين النخيل. إنَّهم يسرقون ما يجدونه أمام أعينهم. طالما تعرض بيتنا في بغداد إلى السرقة وكانت أمّي ترسلنا إلى مخبئ في البستان حتى يذهب الخطر.

كان **هوفسيب** منزعجًا من الكلام. عاد إليه نفس الشعور الذي رافقه حينما كان مختبئًا تحت الإسطبل في مخزن المدرسة **البريطانية** حين هجم الجيش والأهالي على بيوت **الأرمن**، وكان أحد الفتيان يبكي بصوتٍ عالٍ فنهره فتىً آخر – كان يجلس بجوار **هوفسيب** – نهرهُ بغضب: "اخرسْ وأبكِ بصمت" فكاد قلبه أن يتوقف.

كان يود لو أنه يمتلك شجاعة ذلك الفتى ويصرخ بوجه **ياعيل** ويطلب منها أن

تخرس، لكنه بقي ساكتًا علَّها تسكتْ، لكنها استمرت، وكأن لا شيء يمكن أن يُسكتَ شهيتها للكلام:

- أرسلني أبي هنا كي يقنعني جَدِّي شلومو بالزواج من ابن عمي. يعرف أبي أنّي أحبُّ جدّي جدًا وأحبُّ قصصه وافكاره وأنني الحفيدة المفضلّة لديه، بينما أتيتُ أنا كي أُقنع جدّي بالتوسط لأبي كي يعفيني من هذا الزواج، وأظنُّ أنني نجحتُ بإقناع جدّي.

فقال **هوفسيب** على مضض:

- ولماذا لا تريدين الزواج؟

- لأني أريدُ أن أكون مثل السيِّدات الإنجليزيات اللاتي أراهنَّ في القنصلية. نساءٌ من طرازٍ نادر.. شجاعات، مستقلات، متعلمات، قويّات، لسن بحاجة لأحد...

قطع أذان الفجر استرسال **ياعيل** في الكلام. وفجأة طلب **هوفسيب** منها وهو يحبو ليخرج بأن تبقَّ في مكانها حتى يعود، لأنه ذاهبٌ للاستكشاف. توقفَّ في الخارج فشاهد الحصيرة تلمع كالذهب وسط منجمِ الليل:

– ما هذهِ السجَّادة التي كنّا نجلس عليها؟

– إنها حصيرة من القصب، يصنعها الأهالي للجلوس عليها ولتغليف جدران وسقوف بيوتهم.

دار **هوفسيب** خلف الكوخ. لم يتعثَّر هذهِ المرّة. عيناه تعودتا على الظلام الذي بدأ يخفّ بالتدريج مع انسياب نور الفجر، ومن هناك توجه صوب صوت همهمات أصحاب القوارب عند المعبَر وأكترى أحد القوارب لوحده، وعبر إلى الضفّة الأخرى.

الفصل التاسع

وصل **هوفسيب** إلى المدينة المقدسة عصرًا، حيث السماء بلون الذهب، والشمس تحتضن القبَّة الذهبية لقبر **علي بن ابي طالب**. وصل في تلك اللحظة التي كانت القُبَّة فيها ترتعش من ذلك الالتصاق كامرأةٍ عرفتْ اللذة متأخرة. كانت القبَّةُ المنحنية على جسد المدينة تتأوهُ لذةً صفراء، يتبخَّرُ عَرَقُها إلى أمواجٍ ذهبيةٍ تسدُّ الأفق. أمّا الأرض فكانت رمل. جرداء كجرادة. لا زرع ولا ماء ولا رحمة. قاسية مثل قلبٍ لم يصادف الحبّ.

تكفَّلَ صاحب الأحصنة بالجندرمة **التركية** الواقفين على باب السور. كان يعرفهم ويعرفونه، وقد أخذ بالطبع بعد ذلك من **هوفسيب** تسعة أضعاف المبلغ الذي دفعه كرسمِ دخول للمدينة.
الرسوم كانت تُفرَض فقط على أصحاب الجنائز الآتية من البعيد لتدفن في مقبرة الله العظيمة. كان يمكن ألّا يدفع شيئًا ويسمح للجندرمة بتفتيش الأحصنة وركّابها، لكن هذا سيأخذ منه وقتًا طويلاً وسيجد **الأتراك** في النهاية ما يجب على الداخل دفعه، حتى لو كان باستعطافه، فأختصر كلَّ ذلك بمبلغٍ بسيط.

وقف هوفسيب الصغير أمام قَبرِ عليٍّ الكبير. للمرّة الأولى خلال رحلته يجدُ شيئًا يلفتُ انتباهه ويبهرهُ وينسيه منظر المجزرة.

شاهد هناك شخصًا يشبه **فوح** فراح مسرعًا وسأله عن خاله لكن الفتى المنغولي لم يفهم عليه شيئًا وراح يزبُد ويبتعدُ عنه ويشتمه، فتجمع عددٌ من أصحاب المحال الموجودة على مدخل القبر وسألوا **هوفسيب** عن مراده من مشاكسة هذا الفتى المجنون وبعضهم اتهمه بالإساءة إليه.

هوفسيب كان خائفًا فلم يعرف كيف يتصرف، فأطرقَ وأبتعدَ سريعًا واندسَّ داخل الضريح.

عند الإيوان الخارجي للقبر تذكَّرَ وصية **فوح** وأنَّ عليه أن يسأل الصبيان عن خاله وألّا يذكر لأحدٍ بأنه خاله. توقف من لحظتهِ وراح يراقب الداخلين والخارجين، فلمح من بعيد صبيًّا بثيابٍ رثّة، بعمره تقريبًا، أو أصغر قليلاً، يمشي مخترقًا الإيوان الخارجي متوجهًا إلى الإيوان الداخلي. أوقفهُ **هوفسيب** وسأله عن دار خاله فلم يفهم الصبي في البداية لأنه لا يتحدث الفارسية، فأعاد **هوفسيب** عليه الاسم بطريقة بطيئة:

آقاااي.. جَوووودَتَ.. مَخِيييينيي.

فقال الصبي تقصد السيد **جودت المخيني**؟ فقال **هوفسيب**: "بلي" فقال له الصبي اتبعني. وابتعد عنه خطوات، فلما أحسَّ بأن **هوفسيب** لا يتبعه عاد وأمسكهُ من يده وجرّه معه، وبعد مسافة قصيرة ترك يدّه لما تأكد بأنَّه يتبعه.

خرجا من المرقد ودخلا في أحد الشوارع العادية، ثمَّ دخلا في شارعٍ أضيق، وما زال الشارع يضيق ويضيق حتى دخلا دربًا من الصعب أن يسيرا فيه سويّا من ضيقه، إذ لا يتسع إلّا لشخصٍ واحدٍ نتيجة لتواجد أصحاب الحرف في الدرب وعَرْضِ خدماتهم على الملأ.

وعند تقاطعٍ يؤدي الى ثلاثةِ دروبٍ مسقَّفَة تشبه الجروح الملتهبة المليئة بالقيح في جسدٍ متعفن، توقف الصبي وضلَّ يتلفتُّ بطريقةٍ تشبه رأس الدجاجة، ودون أن ينتبه اصطدم برجل دينٍ عابر. قال الرجل بالفارسية بلكنة تنطوي على السخرية: "هل أنت أعمى" وتَبعَ قوله بابتسامة.
رجل الدين كان أعمى، يحمل عصًا رفيعة طويلة، رأسه مائلٌ إلى الخلف وعيناه البيضاء تنظران صوب السماء كمن يُذكِّر الله بعملٍ لم ينجز.

سألَ الصبيّ رجل الدين:

- هل تعرف بيت السيد **جودت المخيني**؟

ثمَّ التفتَ إلى **هوفسيب** وقال له:

– اسأله بالفارسيّة عن بيت السيد **المخيني**. أنا أعرف أن بيته في آخر دربٍ من هذه الدروب الثلاثة، لكني لستُ متأكدًا أيّ دربٍ هو.

فهم **هوفسيب** أن دليله قد تحيّر، فسأل رجل الدين عن "**منزل آقای مخینی**" فقال رجل الدين:

–اتَّبِعْ الرائحة النتنة فستجده في قعرها. وأشار بعصاهُ إلى الدرب الثاني على اليسار.

– المنطقة برمَّتها رائحتها نتنة. قال **هوفسيب**.

– لم أقصد رائحة الحجر بل رائحة الطين. قال رجل الدين ذلك ومضى.

أمسك الصبي بيد **هوفسيب** ودخلا الدرب الذي أشار إليه رجل الدين وبعد نجاحهما، أكثر من مرّة، بالالتفاف حول روث الحيوانات الطريّ الذي يفترش الدرب، فشل **هوفسيب** في تلافي أحدها وغرستْ قدمه فيها، قبل الوصول إلى آخر الدرب المسقوف المظلم، فانحرفا يمينًا عند بقايا درجٍ حجريٍّ عتيقٍ ينزل بهما إلى شقٍ منخفضٍ في الأرض.

من فوق الدرج الحجري، أمام الباب الخشبي المتهالك الذي لا يتسع إلى قامة رجل، الموسوم بنصف نعلٍ من الجلد الناشف لإبعاد عيون الحاسدين، توقف الصبي وأشار إلى البيت قائلاً:

– السيد **جودت المخيني**.

نزل **هوفسيب** وطرق الباب، وما أن رأى وجه خاله وهو يفتح الباب حتى تذكر وجه أمّه.. الوجه الذي بدأ يتلاشى من ذاكرته..

- أنا **هوفسيب ملكيان** أبن اختك **سيلفا**..

قالها بلغته الأرمنية التي يتحدث بها في كوابيسه، وبكى، وكسفينةٍ ضائعة رأت من بعيد ضوء فنارٍ خافت: تبسم.
احتضنه خاله وأدخله إلى البيت. كان هناك صبيٌّ بثياب قصيرة في بيت الخال. خرج فور أن رأى إشارةً سريعة من رأس السيد **المخيني**. وعلى بساطٍ صوفي بنيّ عتيق مليء بالبقع السوداء الداكنة، في ذات الحجرة التي يفضي بابها إلى الخارج، أجلس الخال، **هوفسيب**، وذهب إلى زيرٍ عند الباب وأحضر ماءً بقدحٍ نحاسي بلون البساط.

بعد أن تجرّعَ **هوفسيب** الماء - كان يشربه على مهل، شيئًا فشيئًا، كأنما يعدُّ القطرات التي يمتصها - مدَّ الخال يده إلى رأس **هوفسيب** ونزع عنه عمامته الثقيلة البيضاء، وراح يمسح شعرهُ المتعرِّق بأصابعه النحيلة الوردية، وقال له بنبرةٍ فيها الكثير من الشفقة والقليل من التصنع:

- لقد سمعتُ عن المجزرة التي حصلت في **أضنة** من أحد العاملين في قنصلية **بلاد فارس**، والذي أكد على عدم نجاة أحد. وبعدها تناقل الناس أخبار المجزرة في المقاهي. لكن ما أكد لي الخبر هو انقطاع رسائل والدتك والأموال

التي يبعثها والدك، فأنا أدين لهما بالكثير وبالأخص لوالدك، فلولاه لم أكن لأنجو – وهذه قصة طويلة لن أخبركَ بها أبدًا – أنا سعيدٌ بنجاتك، وسعيدٌ أكثر بشهادتي على معجزة. لقد أعدتَّ لي الثقة بوجود المعجزات. أن تكون هنا، معي هنا، فهذه معجزة.

– كم اتمنى لو أني متُّ معهم يا خال.

– هناك شيءٌ كبير في داخلك يريد أن يحيى، يريد أن يخرج، يريد أن يخلق شيئًا عظيمًا، لذلك وصلتَ إلى هنا. أنت في أمان الآن. أنت في أأمن مكان في العالم.

– كنتُ أريد أن أذهب إلى أخي **أرتين** في **لبنان**.

– دعك من أخيك **أرتين** الآن فهو أيضًا يمرُّ بمشاكل صعبة وكثيرة نتيجة حمقه. أخوك أحمق. كان والدك يشتكي منه في كلِّ خطاباته. أنت تعلم أنه خسر كلَّ ثروة أبيك هناك على عاهرة. وكي يتزوجها قام بتغيير طائفته. إنه ماروني الآن. هل كنت تعرف هذا؟

– نعم أخبرتني أمي بذلك لما رأيتها تبكي وحيدة في غرفتها وهي تقرأ رسالة **أرتين**.

– هل تريد أن تأكل شيئًا يا **هوفسيب**؟ عندي لبن طازج وخبز بائت وتمر. هذا كلُّ ما موجودٍ عندي في البيت. كنتُ أعيش حياة أكثر رفاهيةً عندما كانت تصلني الأموال من أبيك. لكن منذ أن انقطعت مساعدته وأنا أعيش في ضنك، حتى إني تركتُ البيت الواسع الجميل الذي كنتُ أسكن فيه وأعيش في هذا

المكان القذر كالجرذ. لا عليك سنتدبر أمرنا. لقد اعطيتني أملاً ورغبةً في العيش. إذا احتجت إلى الطعام فهو في ذلك القدر النحاسي الكبير في الزاوية.. سأصنع لك غدًا وجبةً فاخرة. سأقوم لأعدَّ لي نارجيلة، فقد وصلني أفيون فارسي جيد.. الأفيون هنا مغشوش على الدوام. لا أدرى كيف يدَّعون القداسة وهم يغشون كلَّ شيء.

- لم تسألني عمّا حدث هناك؟

- لا أريد أن أعرف الآن.. أنت مرهق والأيام طويلة.. سنتحدث عن كلِّ شيء. سأجلب لك مخدة وغطاء لو أنك شعرت بالنعاس. يمكنك النوم في مكانك. البيت ليس فيه غير هذه الغرفة والغرفة التي أنام فيها وصدقني هذه الغرفة أنظف وأكبر من تلك. ستعتاد الحياة هنا يا **هوفسيب** لا تقلق. ملامح الامتعاض والقرف التي على وجهك منذ دخولك البيت أعرفها جيدًا. تأكد أنك ستتأقلم.

بينما قام الخال وأشعل النار في الموقد عند الزاوية اليمنى من باب البيت الرئيسي، راح **هوفسيب** يحاول التأقلم. المكان مظلم. الفانوس اليتيم المعلق على باب حجرة الخال استسلم لقوة الظلام ولم يعد يهتمّ إلا بإنارة نفسه. رائحة المكان نتنة بشكلٍ لم يسبق له أن صادفه، ربما لأن الأطفال والباعة والسقَّائين يقضون حاجتهم أمام الباب من الخارج وعلى الحائط، لأن المنزل في سردابٍ عند نهاية الدرب فيحجب الرؤية عمن ينحني هناك ويقضي حاجته، وربما لأن المنزل لا

شبابيك فيه، فهو عبارة عن قولون في بطن الأرض. أكثر الرائحة كانت قادمة من الحمّام. انه مخزن ضخم للرائحة النتنة. شقٌّ عميقٌ في الأرض يحتفظ بالقاذورات تحت أرضيته كالمحكوم بالسجن المؤبد. لا أمل له بالفرار أو التحرر. مخزن كبير تمتصه الأرض إلى أن يفيض فيتم تفريغه. وهذا الأمر يحدث مرّة كلَّ سنوات طويلة.

أما الموقد فليس سوى حفرة صغيرة غير عميقة تشبه عين إنسانٍ أعمى. عين الاعمى تلك قريبة من الباب حتى إذا ما زاد الدخان أو ارتفعت حرارة القبو، فتح الباب كي يستعيد القبو هواءه العفن ذاته.

– هل تعيش وحيدًا يا خال؟ قال **هوفسيب** وهو يتابع خاله.

– لا أحد يستطيع أن يعيش وحيدًا في هذه المدينة. الناس لن تتركك في شأنك. لديَّ امرأة، لكني أخذتها إلى بيت أبيها منذ أيام وتركتها هناك. انها دائمة الشكوى ولم أعد أطيق تصرفاتها. ما زالت صغيرة وتغضب على أتفه الأشياء. هذه ليست أول مرّة تزعل فيها. ستهدأ بعد أيام وسأذهب وأُرجِعها.

غفى **هوفسيب** من ساعته وهو يراقب الخال الذي بدى عليه تأثير الأفيون وراح ينظرُ إلى السقف ولا يتحرك إلا قليلاً.

في الصباح كان الخال كما هو مستغرقًا في اللاشيء وكأن الوقت لم يمرّ. لم يعلم هوفسيب إن كان خاله قد وصل الليل بالنهار أم أنه استفاق مبكرًا وجلس

جلسة الأفيون ذاتها؟

تقلَّبَ **هوفسيب** في مكانه وتلفتَّ حوله، ثم قال لخاله:

- أين عمامتي يا خال؟

- لقد تخلصتُ منها.

- لماذا؟

- سأخبرك لماذا، بعدما أعود. سأذهبُ لحاجةٍ ضرورية. لن أتأخر. أثناء غيابي لا تفتح الباب لأي أحد مهما كان، ولا تخرج أبدًا مهما حصل ولا تتحدث مع أحد. هل هذا مفهوم؟

- نعم.

الفصل العاشر

عاد السيِّد **المخيني** مع صوت المؤذن الذي كان يدعو الناس لصلاة الظهر. يحمل سمكةً كبيرة وخبزًا طازجًا وبصلاً وباقة فجلٍ أبيض. ترك الأشياء بالقرب من الموقد وجلس بالقرب من **هوفسيب** الذي كان يتصفح كتابًا قديمًا بالفارسيَّة من كُتب خاله، وتبادلا كلمات قليلةٍ عن الكتاب ولغة **هوفسيب** الفارسيَّة، ثمَّ سحب السيَّد **المخيني** الوسادة التي كانت خلفه ووضعها تحت مرفقه الأيسر وأتكأ عليها وقال بنبرة جديَّة وبهدوء تام:

– اسمع يا **هوفسيب**، أنا لا أريد أن أجبرك على شيء، لكننا لا نعلم كم سيطول الأمر، وكما أرى فأن **تركيا** ماضية في سياستها، وأنتَ ما زلتَ صغيرًا على العيش وحدك. هذا العالم مكان مخيف وقاسٍ ولا يرحم الضعفاء ولا يرحم الطيبين. أقترح أن تعيش هنا معنا ونترك الربّ يأخذنا حيث يريد. ألا تؤمن بمشيئة الربّ؟

–**" ليأتِ ملكوتكَ، لتكن مشيئتك، كما في السماءِ كذلك على الأرض"** قال **هوفسيب**.

– تمامًا يا **هوفسيب**. لذلك...

قاطعه **هوفسيب** بخجل:

– لكنك أتيتَ بفعل الردّة يا خال وتركت الله الحيّ وأتبعتَ الدجّال.

– هذا ما أريد الحديث بشأنه وأتمنى أن تفهمني يا **هوفسيب** وأن تفكر بما أقول لك، لأنه من أجلك فقط ومن أجل والدك، ووالدتك بالطبع.

أنا لم أترك المسيحيَّة ولم أدخلها، ولم أدخل إلى الإسلام ولم أتركه. الإسلام ليس أسوأ من المسيحيَّة، والمسيحيَّة ليست أفضل من الإسلام. أنا فعلتُ ما فعلت كي أنجو وكذلك ستفعل أنت.

المدينة هنا ليست كباقي المدن التي تعرفها يا **هوفسيب**. **النجف** عبارة عن مدرسة، ومقبرة. رجال دين، وحفارو قبور. أسياد، وعبيد. الأسياد قليلون والعبيد كثيرون. أن لم تكن سيّدًا فستكون عبدًا، لا شيء غير ذلك.

كي تبقى بعيدًا عن الأنظار والشكوك، عليكَ أن تنتمي لطبقة رجال الدين..

– ماذا؟ صرخ **هوفسيب** باستغراب وخوف.

– لا تستعجل دعني أُكمل... لكن كي تطمأن فأنا لا أطلب منك أن ترتد عن دينك. المدينة هنا يا **هوفسيب** مدينة فارسيَّة بحتة. يحكمها رجال الدين الفُرس وتعيش على هِبات ملوك **الفرس** وحسنات تجارهم والجثث القادمة من **الهند** وبلاد **فارس** والولايات المجاورة كي تُدفن هنا. الأموال القادمة كلها تصل إلى

رجال الدين وهم من يوزعون تلك الأموال. في الحقيقة الدولتين العثمانيَّة والفارسيَّة تتسابقان على رضا رجال الدين هنا، لأن تأثيرهم يعبر حدود هذه المدينة البائسة ليشمل أراضي الدولتين، فالناس من تبعية الدولتين تُقدِّسَهم وتسمع كلامهم.

وهنا أريدك أن تعلم بأنَّ رجال الدين الذين يلبسون العمامة السوداء أكثر حظًا بكثير من أولئك الذين يلبسون العمائم البيضاء. وهذا اللون الأسود السحري يفتح لك كلَّ الأبواب المؤصدة التي لا يمكن فتحها بالدراسة ولا بالترقي في المناصب بل هو بالوراثة، بالنَسَب، بالانتماء إلى دماءٍ ملكية إلهية مقدَّسة منحدرة من النبي **محمد**. وهذهِ ليست مشكلة بالنسبة لك. الطريق ممهدٌ أمامك، لأني أدعيتُ من سنين – منذ أن فهمتُ طريقة سير الأمور هنا – بأني من نسل النبي **محمد** وأن جدي وليٌّ من الأولياء وله مزارٌ معروف في **أذربيجان** من **بلاد فارس..** كلُّ ما عليكَ فعله هو أن تخبر الناس بأنك إبني.

– ماذا؟

– لا تستبق الأمور.. كنتُ أخبرتُ الناس هنا بأني متزوج في بلاد فارس ولي ولدٌ ذكر وبنات ثلاث، لكني أتيتُ إلى هنا لطلب العلم وسأعود بعدما أحصل عليه. كلُّ أتباع بلاد فارس هنا، جاؤوا من مختلف المناطق لدراسة الدين ويتوافدون باستمرار لهذا الغرض. بعضهم يعود وبعضهم يستقر هنا. لقد ذهبتُ إلى قنصلية **بلاد فارس** في الصباح وقابلتُ صديقًا لي، يدين لي بأشياء كثيرة، واستخرجتُ

لك الأوراق التي تثبت بأنك ولدي **يوسف** ولقد سرق الأتراك أوراقك خلال الرحلة، وقد دعانا إلى بيته ليرحب بك ويتعرف عليك، لكني أخبرته بأنك متعبٌ من السفر ومتوعك وسنقبل دعوته ما أن تتحسن حالك.

أنت الآن، وبحسب الوثيقة الصادرة من القنصلية: **يوسف المخيني** ابن **جودت المخيني**. كُنْ على ثقة بأنَّ لا أحد سيشك بك أو سيبحث عن أصلك وبهذا ستبقى هنا بقدر ما تشاء دون أن تخاف من شيء، وكذلك ستُسكِت زوجتي وستجعلها تكفُّ عن معايرتي بعدم الإنجاب وستنكسر شوكتها وستعرف أن العُقم منها وأني كنتُ كريمًا جدًا معها ولم أطلقها أو أتزوج عليها حتى الآن.

– لكن يا خال أنا خائف. ليس سهلاً أن أنخرط في مجتمعٍ غريب كهذا لا أعرف عنه شيء، حتى إني لا أعرف أين تقع **مَخين** تلك التي يجب عليَّ أن أحمل اسمها؟

– لا تخف. الأمر ليس بتلك الصعوبة التي تتخيلها. صدقني أنا كنتُ خائفًا مثلك في البداية، لكني اكتشفتُ أن الأمر بغاية السهولة. الناس هنا لا يقرؤون ولا يكتبون ورجال الدين مشغولون في الله أكثر من أي شيء آخر. لا يعرفون أي شيء خارج الحلال والحرام. سور المدينة الذي رأيته وأنت قادمٌ إلى هنا لا يحجبها عن أعدائها فقط، بل يحجبها عن العالم كله وكأن لا وجود لمدينة أخرى ولا أناس غير هنا. الناس هنا بسطاء جدًا، يمكن لشخصٍ بذكائك وتعليمك أن يسيطر عليهم بكل سهولة ويُسر.. لا تخف سأعلمك كلَّ شيء وسأجعل حتى رجال الدين ينحنون لك. أما بالنسبة **لمَخين** فهي قرية صغيرة في أطراف مقاطعة

خُوي في أذربيجان من بلاد **فارس**. قرية صغيرة لا يعرفها أحد، وبالمناسبة أنا اخترتها لأنها القرية التي وُلِدَتْ فيها أمّي، جدَّتك. وكان أكثر سُكانها من الأتراك الشيعة وهي مهجورة منذ أن كنتُ طفلاً لصعوبة الوصول إليها ووعورة طرقها وتربتها الجبلية الميِّتة غير الصالحة للزراعة.
ستلتقي بالناس، وستسمع بأسماء مناطق لا أحد يعرف عنها شيئًا، ولن يهتم أحد بمعرفتها.

بَقِيَ **هوفسيب** ساكتًا، استسلم لخاله وترك له تدبير الأمور دون معارضة، حتى أنهُ لم يعترض حينما أفاق ذات يوم ولم يجد المال الذي كان يخبئهُ داخل كتاب الفلسفة وحين سأل عنه خاله؟ قال:
- أنتَ لستَ بحاجة إلى شيء ما دمتَ معي.

لم يكن من الصعب على الخال نشر خبر وصول ولده إلى المدينة المقدسة من **أذربيجان فارس**، فالمدينة صغيرة ولا تَحدثُ فيها أشياء جديدة. السور المحيط بها يردِّدُ صدى الحكايات التي تدور داخل بيوتها وسراديبها وعلى سطوحها. إن مجرد خروج **هوفسيب** جنوبًا، أول وصوله إلى المدينة، من تحت القبة الذهبية وتوجهه مع ذلك الصبي الذي يعرف خاله ودخوله محلة **البُراق**، فإن سكان منطقة **جبل النور** حيث بيت السيد **المخيني**، عرفوا بوصول **هوفسيب** حتى قبل أن يعرف الخال. هذا بالإضافة إلى شبكة الخال الكبيرة من النساء الباحثات

عن معاجز لهنَّ ولبناتهنَّ وحفيداتهنَّ وصاحباتهنَّ. حيث كان السيد **المخيني** معروفًا بأعماله وتعويذاته ودعواته وتنبؤاته التي لا تكذب أبدًا، وكان لا يأخذ أجرًا حتى تتحقق نبوءاته وتحمل من أرادتْ الحمل، وتتزوج من أرادتْ الزواج، ويُرجِعُها طليقها من أرادتْ الرجوع على ضرائر ثلاث. وكعادة المدينة المقدسة بتقديس المجهول فقد انتشر خبرٌ مفاده أن السيد **يوسف المخيني** يصنع المعجزات لأنه وُلِد بمعجزة. فلقد ظهر الإمام المهدي المنتظر إلى السيد **جودت المخيني** في ليلة النصف من رجب حيث كان السيد **جودت** معتكفًا في قبر جده الولي، وطلب منه أن يذهب في الحال إلى بيته ويجامع زوجته لأنها ستحبل هذه الليلة بأحد الأبدال، والأبدال هم أصحاب الأمام المنتظر وعددهم ثابتٌ في كلِّ زمان، ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، بعدد أصحاب النبي في معركة **بدر**، منتشرون في كلِّ بقاع الأرض، وكلّ رجلٍ منهم يعرف حرفًا واحدًا من اسم الله الأعظم. هؤلاء نخبة النخبة وخميرة الله في الأرض وهم سبب بقاء العالم. يوكل الإمام إليهم مهام محددة فيفعلونها له دون تردد وفي أي وقتٍ وفي أي بلد. أنهم وزراؤه وأولياؤه، وقادة جيشه حين يخرج، ويمتلكون قدرات خارقة كطي الأرض، وتحويل التراب إلى ذهب، وجعل النساء تحبل من دون رجل، وتحويل الرجل إلى امرأة، والمرأة إلى رجل كما حدث مع أحد أصحاب النبي وتحول إلى امرأة وأنجبَ بنتًا ثم عاد إلى طبيعته وتزوج منها.

يُدعَونَ بالأبدال لأنهم يموتون، وكلما مات منهم أحد استبدله الله برجلٍ آخر وهكذا حتى يشاء الله **للمهدي** المنتظر بالظهور فيجمعهم سبحانه وتعالى له من

أقاصي الأرض في ليلة واحدة، يكون الواحد منهم نائمًا مع امرأته وفي لحظة يجد نفسه في **مكة**.

وكذلك ظهر **هوفسيب** تحت قبة المدينة المقدسة الذهبية، ظهر من اللاشيء، وما كان من اصطحابهِ أحد الصبية وسيره في محلة **البُراق** ودخوله **جبل النور** وسؤال رجلٍ أعمى عن الطريق، إلا تمويه، ولإبعاد المتطفلين.

في الحقيقة لم يكن السيد **جودت المخيني** وراء هذه الإشاعة، لكنه لم ينفِها، ولم يؤكدها. كان يترك الغموض يفعل فعله في نفوس السائلين الذين لم يكن في عزمهم معرفة الحقيقة، فقد آمنوا بالحقيقة التي يرغبون بالإيمان بها.

العجائز اللاتي ينقلن هذه الأخبار في جلسات الغيبة النسائية اللذيذة، يقلنَّ بأنهنَّ سمعنَ هذا الكلام من فتىً منغوليٍّ معروف بالنقاء والطهر اسمه **جودي** يجر عربة لنقل البضائع والموتى والأشخاص الكبار في السن منذ أعوام، فالأنقياء فقط من يمكنهم معرفة الأبدال.

بينما كانت الشائعات تُحاك وتنتشر حول **هوفسيب**، كان خاله يأخذه معه أينما ذهب. وكان حريصًا أن يؤدي الصلاة في أوقاتها تحت القبة الذهبية للإمام **علي** في الصحن المقدس، حيث يجتمع العلماء والتجار والزوار القادمين بالهدايا والنذور من كلِّ مكان. ولأن الخوف كان يقف على عتبة فمَّ **هوفسيب** كالملاك الحارس فقد ظن البعض بأن **هوفسيب** أخرسٌ، بينما أعتقد آخرون بأن صمته

دليلٌ على قدسيته وأنه يمضي كلَّ وقته في التسبيح وأنه مرتبطٌ بالله بكلِّ جوارحه.

في البداية كان السيد **جودت** سعيدًا بهذه الإشاعات والكرامات التي تحيط **بهوفسيب**، لكنه بعد سنة من وصول **هوفسيب** بدأ يشعر بأن هذه الاشاعات تقفُ حائلاً في طريق تقدمه، فهو الآن بحاجة إلى تعلم أمورٍ وعلوم في الدين فوق مستوى معرفة الخال. السيد **جودت** يُدرك أن الأساطير وحدها لا تصنع المجد حتى في مجتمع بدائي كمجتمع **النجف**. المجد بحاجة إلى رجلٍ ذكي يوظف الأسطورة ويدافع عنها ويحرج المشككين بها. **هوفسيب** ذكيٌّ وهذا مما لا شكَّ فيه، لكنه بحاجة إلى تعلُّمِ الأسطورة وطرق الدفاع عنها، وهذا لا يتمُّ إلا عن طريق واحدةٍ فقط هي الطريق الطبيعية التي مضى عليها أكثر من ألف سنة في هذه المدينة: طريق الدراسة الدينية في الحوزة، والطريق تمرُّ بثلاث مراحل: مرحلة المقدمات ومرحلة السطوح ومرحلة الخارج.

لكنه لا يريد أن يخسر هذه الهالة المقدسة التي تكوَّنت بسرعة مدهشة حول **هوفسيب**، لذلك فقد ذهب إلى عالمِ دينٍ معروفٍ عنه أنه من أتقى العلماء في وقته. إنه **الميرزا التبريزي** ويطلق عليه أيضًا العارف بالله وسيد الأولياء والعلاّمة وآية الله العظمى. ولقب الميرزا يطلق على الشخص الهجين من أمٍّ علوية من دمٍ إلهي من نسل النبي ومن أبٍ من عامة الناس. ولأن المدينة المقدسة قائمة على تفضيل وتقديس نسل النبي فالميرزا يأتي بالمرتبة الثانية في الفضل.

بالرغم من أنه كان عالمًا زاهدًا تقيًّا ورعًا والمعلِّم الأشهر للعرفان وطرق السير والسلوك إلى الله، إلا أنه كان رجلاً بسيطًا. هذه البساطة كان يعتبرها السيد **جودت** سذاجة ونقطة ضعف يمكنه من خلالها السيطرة على صاحبها.

ذهبَ إليه مع **هوفسيب** فجر يوم الجمعة، وصلّى خلفه مباشرة صلاة الصبح – في الصفِّ الأول للمصلين – وما أن انتهى **الميرزا** من الصلاة حتى زحف إليه السيد **جودت** وقبَّلَ يدهُ وقال له:

– أنا السيد **جودت المخيني** من نسل الولي السيد **زين العارفين المخيني** صاحب المقام المعروف في أذربيجان. وهذا ابني **يوسف** الذي وُلِد ببركة **صاحب الزمان**. بعد فترة قصيرة من ولادته رأيتُ في المنام صاحب الأمر والزمان **الإمام المهدي** وأمرني بترك عائلتي والذهاب إلى **النجف**. ولم تشرق عليَّ شمسُ اليوم التالي حتى كنتُ في الطريق إلى هنا. كنتُ أظنُّ أن الإمام المنتظر أمرني بذلك لأنه يريد مني ان أتفقه في الدين، لكن الحياة هنا تقاذفتني كما تتقاذف الأمواج جثة الغريق، ولم أعلم ما عليَّ فعله، فذكائي محدود ولم أستطع تعلم الكثير من أمور الدين، لكني كنتُ دائمًا أعلم وموقنٌ بأن لصاحب الزمان خطته الإلهية التي عليَّ اطاعتها وتنفيذها دون مناقشة أو شكّ، وكنتُ أستعين بقبر المولى **علي بن أبي طالب** صلوات الله وسلامه عليه، على اعانتي على التحمّل. حتى قبل فترة قصيرة رأيتُ سيدي ومولاي **الامام المهدي** من جديد في المنام وهو يخبرني بأنه أرسلني إلى هنا كي أمهدَّ الأرض لأبني **يوسف** لأنه

سيكون صاحب شأن وهو قادمٌ لي بعد أيام. عندما وصل **يوسف** إلى هنا أخبرني أن صاحب الزمان زاره وأمره بالتوجه إلى **النجف** وأنه سيوكل بتعليمه أتقى أهل الأرض والسماء وانه سيرشده إليه. حقيقة يا مولاي أنا لم أعرف من هو هذا الشخص الذي سيعلم ولدي حتى قبل ساعة عندما كنتُ نائمًا وزارني سيدي ومولاي المهدي المنتظر وأمرني بجلب **يوسف** إليك.

أُغشيَّ على **الميرزا التبريزي** في الحال بعد أن قال السيد **جودت** كلمته الأخيرة، وهرعَ إليه طلبته الذين كانوا يستمعون إلى حديث السيد **جودت** مع معلمهم وصَبُّوا على وجهه الماء فلما استفاق بَقِيَ فترةً طويلةً ينحب ويشهق ويبكي ويقول:

– مَنْ أنا حتى يرسل إليَّ **صاحب الزمان** وليٌّ من أولياءه كي أتعهده وأعلمه؟

ثمَّ أنهُ استعاد رباطة جأشه وأوصى لبعض تلاميذه أن يتعهدوا **يوسف** بتعليمه النحو والصرف والعلوم البلاغية والعروض والمنطق والفقه وأصول الفقه، وأوعز لمسؤول نفقته أن يُجري **ليوسف** معاشًا شهريًّا إسوةً بباقي تلامذته وأوصاهُ بأن يحضر درسه الأسبوعي في الأخلاق، إذ سيكون هو معلمه الخاص في هذا المجال.

حينما خرج السيد **جودت** قال أحد تلامذة **الميرزا التبريزي** لمعلمه:

– هناك أقاويل سيئة حول السيد **جودت** يا سيِّدنا، وأكثر الناس تعتقد بانحرافه.

فقال **الميرزا**:

– هذا دليلٌ قويٌّ على أن السيد **جودت** وليٌّ من أولياء الله، إذ أن الأولياء دائمًا ما يشيعون للغير بأنهم أشخاصٌ سيئون كي يبعدوا عن أنفسهم الأمارة بالسوء غرور الصلاح والكمال واحترام الناس لهم، كي يعبدوا الله في صمت وسكينة، لأنهم لا يريدون شيئًا من الناس، بل كلَّ مطلبهم هو الله.

مع بداية شروق الشمس، في الطريق إلى البيت، عند مدخل محلّة **البراق**، جرَّ السيد **جودت، هوفسيب** فجأة، وأدخله في زقاق هناك وأكملا طريقهما إلى البيت، ولمّا استفسر **هوفسيب** عن الأمر؟ أخبره خاله بأنه رأى والد زوجته من بعيد، ولا يريد أن يتحدث معه الآن. وما أن دخلا إلى البيت حتى وَجَدا **فرناز** في انتظارهما، زوجة السيد **جودت** التي كانت غاضبة، وقد عادت.

الفصل الحادي عشر

مضتْ سنتان ونصف الآن على وجود **هوفسيب** في النجف، قضى أكثرها طالبًا نجيبًا وأشبه بالابن الذي لم يُرزق به **الميرزا** الذي لديه من البنات حتى الآن ثمانية. البِرُّ والحبّ متبادلًا بين **هوفسيب** وبين معلمه **الميرزا**. كان المعلم يحنو عليه ويعلمه كلّ شيء وكان الطالب يحترم معلمه ويبجله ويسمع كلامه ويطيعه. وطالما طلب **الميرزا** من **هوفسيب** مرافقته إلى الكوفة، لكنه كان يتحجَّجُ بحجةٍ ما وكان **الميرزا** في كلِّ مرّة يتقبل الأمر بأريحية، لأنه يعتقد فعلاً بأن **هوفسيب** لا يتصرف من تلقاء نفسه وأنه مأمورٌ من قُوىً عُليا. لكنه قَبِلَ أخيرًا مرافقة معلمه إلى مسجد **السهلة** في **الكوفة**.

– يُشرفني أن تكون زيارتك الأولى إلى الكوفة ومسجدها معي سيدنا **المخيني**. فأنا لا أفهم كيف يمكن أن تمرَّ عليك هذهِ المدّة الطويلة منذ قدومكَ إلى **النجف** الأشرف ولم تأتِ إلى مسجد **الكوفة**. أنا موقنٌ بأنكَ تسير على خطىً مرسومة لك من **صاحب الزمان** عجل الله تعالى فرجه، وأنا لا أسأل عما لم أُحِط به خُبرا، لكني ألتمس منك الدعاء سيِّدنا، وأتمنى ألّا تنسنِ من فاضل دعواتك وعباداتك. الدعاء مستجاب في مسجد **الكوفة** للجميع كما تعلم، لكن للقادم

أول مرّة كرامة أكثر من الباقين، إذ إن له ثلاث أمنيات محققة بإذن الله، وأتمنى أن تكون واحدة منها لي.

بهذا الكلام حاول **الميرزا التبريزي** إخراج **هوفسيب** من صمته. إنهم يقتربون من **الكوفة** بعد ثلاثة أرباع الساعة قضاها **هوفسيب** في التراموای «الگاري» صامتًا.

الصمت أصبح ميزة من ميزاته، يحسده عليها أقرانه الطلاّب وأساتذته. صمته وعمامته السوداء المُتَرَبة وزيّه الأسود الرثّ، والذي اختاره له السيد **جودت** بعناية، يجعل بياض بشرة وجههِ أكثر إشراقًا، ويهبه هيبةً وتفردًا لا يتمتع بها أغلب رجال الدين. ولقد آتت زراعة السيد **جودت** أُكلها سريعًا، فقد كان الزوار المحملين بالنذور والهدايا وأموال الخُمس يعرضونها على **هوفسيب** قبل أي أحدٍ آخر. كان الزوار من النساء والرجال يرون فيه نورًا إلهيًا واضحًا. وكان من فوائد صمته وعدم ثرثرته أنه يصفّي ذهنه تمامًا فيستطيع التركيز بدروس اساتذته ويحفظ كلَّ ما يقولون، ولا يشرد ذهنه مثل أقرانه الذين تشغلهم الثرثرة عن التركيز. كانت أنظار الطلاّب تستطيل إليه عندما يطلب منه الأستاذ تلخيص الدرس، عندها فقط يتكلم وبإيجازٍ شديد، ومثل صيّادٍ ماهر كان يصيب المسألة بدقة، وبعدها لا يترك الأستاذ مجالًا لأحدٍ للتعقيب، لأنه دائمًا ما كان يُنهي الدرس بالطلب من التلاميذ حفظ ما يقوله «السيد **يوسف**» لأنه خلاصة الدرس.

لم يقلْ **هوفسيب** شيئًا ردًّا على طلب أُستاذه الدعاء له، بل أكتفى بهزِّ رأسه وأستمر في تحريك شفتيه دون صوت، وهذهِ طريقة أعتمدها **هوفسيب** لإبعاد المتطفلين عنه بكلِّ أدبٍ ووقار، إذ يظنُّ المتطفلُ بأن السيِّد غارقٌ في التسبيح فلا يزعجه أكثر.

طوال الرحلة في التراموای من النجف إلى الكوفة والتي امتدت قرابة الساعة كان **هوفسيب** مستغرقًا في ذرّات رمال هذه الصحراء النظيفة المسطحة المدهشة، التي تشبه بحرًا من القمح الناضج ساعة الشروق. التغيّر الوحيد الذي كان يعتلي ملامحه هو ظهور ابتسامةٍ خفيفة على وجههِ مثل الضوء الأول بعد الخسوف حينما يمرَّ التراموای على زهيرات برَّية زرقاء كلون مشبك شعر **فرناز**، وتكبر ابتسامته مع رؤيته لبعض الجداول التي تخترق المكان كخصلات شعرها. لقد قبل **هوفسيب** بهذه المخاطرة لأجل الهروب من التفكير الذي لم يعد يُحتمل **بفرناز**.

– ذهابك إلى مسجد الكوفة مخاطرة كبيرة يا **هوفسيب**.. المسجد له طقوسٌ خاصة: صلوٰت وأدعية وحركات، حتى أنا لم أستطع القيام بها...
هذا كان رأي السيد **جودت** عندما أخبره **هوفسيب** الليلة الماضية بنيته الذهاب إلى الكوفة مع استاذه **الميرزا التبريزي**.

لقد قبل بهذه الرحلة فور أن طرح عليه **الميرزا** الفكرة، لأنه رآها فرصةً كي ينشغل بشيء آخر غير **فرناز**. لقد كان يتصور أن التراموای ذا الطابقين الذي تجره الخيل ووجود أكثر من خمسين شخصًا معه في هذه الرحلة، وصوت ضحكاتهم، وضجيج أصوات حيواناتهم، وتشابك لغاتهم من هنديَّة وتركيَّة وفارسيَّة وعربيَّة، ستجعله ينشغل عن التفكير بها.

لكن كلَّ شيء يشبهها. نعومة الرمل بنعومة صوتها. لون انعكاسِ الشمسِ على خدِّ الأرض بلون رقبتها. صوت أقدام الحصانَين الذَين يجران العربة بحماسةِ صوت خُلخَالها. نسمات الهواء العليلة التي تضرب قطرات عرق جبينه تشبه الهواء الخارج من صدرها وهي تتمنى له ليلةً سعيدة. تجويد آيات القران بصوتٍ حزين رخْمٍ من بعض تلامذة **الميرزا** كانت تدعوه إلى السقوط أكثر في شفتيها الورديتين كقُبلةِ فراشة على ثغر نهر، حتى رائحة العطر المنبعثة من بعض صُرَر الطلاَب الهنود كانت تُذكرهُ برائحة عنقها الذي يرمي بحباله نحو روحه حينما تأتي بالطعام إليه وتقترب منه على بُعْدِ قُبْلةٍ من نحرها.

لم تنفع كلّ المعوذات التي قرأها منذ ابتعاد التراموای خارج سور المدينة، فقد بدأ بقراءة التعاويذ من هناك حيث المشهد الأخير للقبة الذهبية لقبر الإمام عليٍّ وهي تبتعد، كانت تشبه صدر **فرناز** النافرِ المكوّرِ كرُمّانتين من شمعٍ مليءٍ بالعسلِ الجبليِّ الطافح.

مع أنه يخرج كلّ يوم من الصباح حتى المساء، من مسجدٍ إلى مدرسة، إلى الحرم العَلَوي، وانشغاله بالدروس ومجالس العزاء الحسينيَّة، فأن رؤية **فرناز** حالما

يعود إلى البيت تجعله يشعر بالحزن أكثر من أي شعورٍ آخر. شعوره بالحزن هذا جلب له مشاعر هو في غنىً عنها. إنه لا يريد التورط في شيءٍ غير الخوف. الخوف حصنه الذي يحارب به الموت القريب منه كظله. يكاد وجه **فرناز** وجسمها الغض أن يهدم هذا الحصن ويتركه عاريّا في مواجهة العالم. لو كانت **فرناز** أكثر سعادة لخفَّف ذلك من حزنه، لكنها حزينة. إنه يسمع صُراخ ذبول جسدها العطشان كلَّ ليلة وهو يتكسَّرُ على مذبح عدم اهتمام خاله ولامبالاته. في الفترّة الأخيرة بات **هوفسيب** يقضي الليالي في قراءة القرآن وأدعية الصحيفة السَجَّادية، بعد أن فشل الإنجيل بعهديه القديم والجديد في تهدئة روحه ومساعدته على الكفّ عن التفكير **بفرناز**. حتى تلك الساعات القليلة التي كان يغلب عليه النوم، كانت أكثر الساعات مجلَبَةً للتعب والقلق، فقد كان يجد نفسه غارقًا في مياهِهِ وبذَكَرٍ مُنتصبٍ شاهقٍ كمنارة المسجد، مخترقًا ثيابه وفراشه، وكان يخشى أن تراه **فرناز** في تلك الحالة، لأنها آخر من ينام في المدينة، وأول مَنْ يصحو.

حين وصلوا إلى **الكوفة** طلب تلامذة **الميرزا** أن يرتاحوا قليلاً قبل الذهاب الى المسجد، لكن **الميرزا** قال لهم أنه من سوء الأدب أن يرتاح الشخص قبل الصلاة في مسجد **الكوفة** الذي لا يبعد سوى مسافة قليلة.
كان تلامذة الميرزا الثلاث من أشدِّ تلامذته ورعًا وزُهدًا وطاعةً له وإخلاصًا. وكانوا يرافقونه في كلِّ مشاويره وأسفاره إلى **الكوفة** و**كربلاء** و**سامراء**

و**الكاظميّة** وكان **الميرزا** لا يقبل أن يرافقه سواهم، وطلبِهِ من **هوفسيب** أن يرافقه أثار نوعًا من الحيرة في نفوسهم، لكنهم بالطبع لا يجرؤن على الحديث مع **الميرزا** حول ذلك، لاعتقادهم بأنه وليٌّ صالح ولا يتصرف من تلقاء نفسه، بل لا بدّ من أمرٍ إلٰهي خلف تصرفه هذا. وهم في الحقيقة لم يكن لديهم تحفظ على **هوفسيب** فهو شخصٌ طيبٌ ومسالمٌ ولا يتدخل في شؤون غيره ولا يسبب أذىً لأحد، لكنهم كانوا على خلاف مع السيد **جودت** لأنهم كانوا يعتقدون بانحرافه.

لم يطل وقوفهم كثيرًا حتى نادى **الميرزا** على عربة يجرها بغل، وطلب من صاحبها توصليهم إلى مسجد الكوفة. كان هناك عربات كثيرة عرضت عليهم أن تقلَّهم لكن **الميرزا** كان يرفض، لأنه متعوّدٌ على هذا الفتى المنغولي الذي يُدعى **جودي**.

طلب **جودي** من السيد **النوّاب**، تلميذ الميرزا الأقدم، ذو الأصل الهندي، وكان عظيم الجثة، طلب منه الجلوس على البغل بينما طلب من الباقين الجلوس على أركان العربة المسطحة، لتوزيع الحِمل، وأمسك هو بلجام البغل وسار أمامه.

أثناء ما تحركت العربة سأل **هوفسيب، الميرزا،** عن سبب رفضه أصحاب العربات الأخرى واختياره هذا الشخص بالذات؟ فقال:
– هذا **جودي**. أعرفه منذ زمنٍ بعيد. منذ وصولي إلى **النجف**. يعمل حمّالًا في

سوق المدينة وينقل جثث الموتى الى مقبرتها. وفي يومي الخميس والجمعة يأتي هنا لكثرة الزوار الذين يأتون لزيارة الأماكن المقدسة، ودائمًا ما يصحبني إلى مسجد **الكوفة** والمزارات القريبة منها ويبقى معي طوال فترة بقائي ولا يناقشني بالأجر، وحتى إذا ما نسيتُ ولم أعطه شيئًا، فلن يطالبني بشيء.

– هل حقًّا قبر النبي **يونس** هنا يا سيِّدنا؟ أليس هو من أهل نينوى – **الموصل** – وله مقامٌ هناك؟ سأل أحد تلاميذ الميرزا أُستاذه.

– المعروف بأن النبي **يونس** عليه السلام بقي في جوف الحوت ثلاثة أيام على رواية، وسبعة أيام على رواية أخرى، يُسبّحُ الله ويطلب منه جلَّ وعلا المغفرة، فجال به الحوت البحار السبع حيث التقمهُ الحوت أول مرّة عند بحر **القلزم** ثمَّ سار بهِ إلى بحر **مصر**، ثمَّ بحر **طبرستان**، وما تبعه من بحار حتى ألقاه على ساحل نهر الفرات في **الكوفة**.

– ما يحيرني يا استاذنا في قصة النبي **يونس** عليه السلام، أنه لم يفعل شيئًا يستحق ما حصل له؟ سأل طالبٌ آخر **الميرزا** الذي أجابه على الفور:

– بل فعل معصيةً عظيمةً وخطيئة كبرى. إنَّ النبي **يونس** عليه السلام رفض ولاية الأمام **عليّ** وإمامته حينما عُرضتْ عليه، فأن الله سبحانه وتعالى عرض إمامة المولى – **علي بن ابي طالب** – على كلِّ نبيّ ووصيّ. فلما رفض الإمامة حصل ما حصل له، تأديبًا له، وليس عقابًا، وأدرك **يونس** ذلك لاحقًا فقال في

بطن الحوت: « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ظلمتُ نفسي بعدم قبول ولاية **عليّ**، وهذا الدعاء حقيقة هو ليس دعاء **يونس** إذ أن المولى **عليّ** هو من أوحى به إلى **يونس** في بطن الحوت.

مع ارتفاع أصوات التلامذة بالصلاة على **محمد وآل محمد**، أنزلهم **جودي** في باب المسجد، مسجد **الكوفة**، وهو مسجدٌ يقع في الصحراء، في منطقة مرتفعة. لا شيء في المكان سوى بعض نخلات متناثرة هنا وهناك حول بناءٍ قديمٍ من ثلاث مستطيلات متصلة بعضها ببعض وعلى مقربة منه في أعلى التلة هناك اثار لبناءٍ قديمٍ بقبة.
على مدخل المسجد منارة ليست بذلك الارتفاع الشاهق وداخله على مسافة بين المستطيل الثاني والثالث قُبَّتين عتيقتين على أطراف السور العظيم الذي يحيط بالبناء مثل سور **النجف**.

قال **الميرزا** لتلاميذه قبل أن يتوجه لتجديد الوضوء:
- لا حدَّ للفيوضات الإلهية في هذا المكان. فوقَ كلِّ شبرٍ في هذا المسجد خطوة نبيّ أو وصيّ أو رفَّة جناح مَلَك. ولكلِّ شخصٍ كأسه الخاص، عميق أو ضحل، فاذهبوا واملؤوا كؤوسكم. وأعلموا إن الصلاة المكتوبة فيه لتعدل ألف صلاة وإن النافلة فيه لتعدل خمسمائة صلاة، وإن الجلوس فيه بغير تلاوة ولا ذِكر: لعبادة، وإن احتجتم إليَّ في شيء، فسوف تجدونني إمّا عند منبر المولى **عليّ**

صلوات الله وسلامه عليه أو عند دكّة قضائه، وإمّا في بيته عند الدكّة التي غسلوا عليها جسده الطاهر روحي فداه.

اقترب **جودي** من **هوفسيب** وهمس في اذنه:

– تأخَّرْ عنهم أنت يا خَشَبَة.

وتركه وذهب إلى وسط المسجد حيث منخفض من الأرض تجمَّعَ حوله بعض الفقراء وكانوا يفعلون أشياء غريبة، فتبعه **هوفسيب** إلى هناك ووقف بجنبه وسأله عما يفعل الناس؟ فقال **جودي**:

– الناس هنا لا يعرفون من العالم غير مدينتهم هذه، فكلُّ شيء حدث منذ بداية العالم، حدث هنا، وكلُّ شيءٍ سيحدث حتى نهاية العالم، سيحدث هنا. أنهم يعتقدون أن هذا المكان هو بيت **آدم**، أول بيت في الأرض، وهو بيت **نوحٍ** أيضًا، وأن **نوح** بنى سفينته هنا، ومن هنا فار التنور وسال الطوفان الذي أغرق العالم، وأن سفينة **نوح** قد رست هنا، وكأن لا زمان ولا مكان إلا هذه البقعة. لذلك ترى الناس يتبركون ببقايا السفينة ويلمسون جدرانها، كما أن هذه الاسطوانة الرخامية التي تراها كانت في الأصل شاخصًا يتعين به الزوال لموعد صلاة الظهر، لكن خدم المسجد يشيعون إن الإمام **عليّ** رماها من **البصرة**. ويخدعون السذج من الناس وخصوصًا القرويين كي يسرقوا منهم النذور. أنهم يحثون الإنسان البسيط الذي بحاجة إلى معجزة تنقذه من العادية وتدخله في زمرة المتميزين.

يقولون للقروي أن يدير ذراعيه حول هذه الاسطوانة، فإذا التقتْ أصابع يديه، قالوا له إنك ابن أبيك بلا شكّ ومن أهل الجنة، وإلا فلا، ويقولون للنساء العواقر ومن لم تحمل بعد أن تلف الأسطوانة بذراعيها وتلصق عليها بطنها كي تحبل.

– ولماذا لا يتدخل رجال الدين ويمنعون هذه الخرافات؟

– الناس لا تسمعُ ولا تتبع رجال الدين الذين يخالفون خرافاتهم، بل أن رجال الدين من يَتبعون الناس ويُغذون تلك الخرافات بخرافات جديدة. وجود رجال الدين مرتبط ببقاء تلك الخرافات.

دعك من الناس وخرافاتهم، أنت تتقدم بسرعة كبيرة في دراستك يا خشبة فلقد أنهيتَ تقريبًا دراسة المقدمات في سنة وشهرين وهذا ما لم يحدث في هذه المدينة من قبل. هذا سيجلب لك أعداء كُثر أكثرهم من الأصدقاء. عليك أن تكون حذرًا أكثر. الناس هنا لا تنسى السَقَطات. ورجال الدين أدهى وأقذر مما تعتقد. سيستخدمون تأريخ خالك المشين ضدك، فخالك العقبة الكبيرة أمامك، وضعفك الأكبر. عليك أن تبتعد عنه. اطلب من **الميرزا** أن يخصص لك حجرة في مدرسته. أخبره بأنك تريد مُعتكفٍ خاصٍ بك كي تتفرغ للدراسة وأن بيتك لا يوفر لك تلك الخلوة. توجد مدارس كثيرة توفر الإقامة للطلبة المغتربين وحتى للمقيمين هنا من عزّاب ومتزوجين، وتُقدم لهم الملجأ والمطعم والخلوة والهدوء، من أجل الانقطاع للعلم كما يصفونها.

– وكأنك يا **جودي** تقرأ أفكاري، فأنا أشعر بالخوف من سمعة خالي السيئة أكثر

من خوفي من الأتراك، وهناك بعض الأشخاص بدأت تلميحاتهم تضايقني وتحرجني.

– وسيضايقونك أكثر.. حاول أيضًا أن تتخلص من رسائل خالك وأبيك. عودتك إليها باستمرار لن يفيدك بشيء، فما حدث قد حدث ولا دخل لك به.

– كيف علمتَ بتلك الرسائل؟ كيف علمتَ بأني سرقتها من خالي؟

– هناك شيءٌ آخر: عندما تعود اليوم إلى **النجف** لا تذهب إلى بيتك. اذهب إلى أي مكان آخر حتى غروب الشمس.

في طريق العودة إلى **النجف** طلب **هوفسيب** من **الميرزا** حجرةً خاصة للانقطاع بها إلى العلم، فقال الميرزا أنها فكرة جيدة وهو يباركها، لكن في الوقت الحاضر لا توجد لديه حجرة فارغة في مدرسته. فالمدرسة فيها ثلاثون حجرة وكلّها مشغولة من قبل طلاّبه وأكثرهم من الهنود والفرس والتُرك الذين ليس لديهم مكان يقيمون فيه، لكنه يستطيع أن يجد له حجرةً في مدارس العلماء الآخرين، وأنه سيتحمل كافة مصاريفه هناك، إذ أن المدارس كثيرة والحجر الفارغة متوفرة لكن العلماء يكونون أحيانًا غير قادرين على تلبية احتياجات الطلبة المادية فلا يستقبلون الغرباء، وأخيرًا طلب من **هوفسيب** مهلة، اسبوعًا واحدًا ليس أكثر، وربما أقل، لتدبير الأمر.

الفصل الثاني عشر

وصلوا إلى **النجف** قبل المغرب بساعة، فتذكر **هوفسيب** بعد أن ودَّعهم كلام **جودي** بعدم عودته إلى بيت خاله فور وصوله وأن عليه الانتظار إلى المغرب، لكن الفضول والحيرة من أمر **جودي** وعلمه بكلِّ شيء وأسماءه الكثيرة تشغل باله باستمرار ولا يجد لها حلاً ولا ربطًا. انَّه يشبه التائه داخل دائرة. لماذا عليه أن ينتظر إلى المغرب؟ زوجة خاله **فرناز** تذهب إلى بيت أبيها كلَّ جمعة.. وخاله يذهب إلى المقبرة كلّ جمعة كي يقرأ ما يحفظه من القرآن على قبرٍ ما يزوره أهله فيعطوه شيئًا من الفاكهة أو (خبز **العباس**) أو ربما بعض (البارات) وربما وجد عجوزًا أو أرملة حديثة العهد بالترمل فعمل لها حرزًا أو تعويذة وعاد بما تجود به نفسها عليه. لكنه فكّر بالنهاية بأن **جودي** ليس سوى فتىً منغوليّ مجنون ويقول الترهات، فلماذا عليه أن يتبعه ويصدِّق كلَّ ما يقوله، لذلك فقد عاد **هوفسيب** إلى البيت كي يُريح عقله من كثرة التساؤلات والافتراضات التي يضعها حول **جودي**.

ما أن فتح باب البيت حتى سمع كلامًا فاحشًا من خاله وصوت طفلٍ صغيرٍ يستغيث به بأنه غير قادر على المواصلة وأنّه يتوجع، ويرجوه أن يدعه يرحل،

لكن السيد **المخيني** كان ممسكًا به بقوة من خلفه بيديه الكبيرتين ويضغطه عليه. فقد كان السيد **جودت** منبطحًا على بطنه على مرتبة قطنية بائسة يعتليه الغلام والسيد ممسكٌ به من الخلف ويعصره عليه ويقول له بأن عليه أن يكون شجاعًا ويُدخل ذكره بقوَّة مثل الأبطال، ويعدهُ أنّه سيستمتع آخر المطاف.

مع رؤية السيد **المخيني لهوفسيب**، ترتخي يداه، فيستطيع الغلام الإفلات ويترك المكان. ينقلب السيد **جودت** على قفاه على المرتبة القطنية البائسة، يتمدَّدُ على ظهره دون أن يستر عورته، يضع ذراعه حول عينيه، ويقول **لهوفسيب**:

– أنا أعلم بأنك سرقتَ رسائلي مع أبيك، وأعلم أنك عرفتَ كلَّ شيء.

يقترب **هوفسيب** من خاله، يأخذ الوسادة القريبة من رأسه، يضعها على وجه الخال، ويجلس عليها بجسده الممتلئ الضخم ويُردِّد:

– وصلنا قبل أيام يا خال في درس الفقه إلى حدّ اللواط، وقد ثَبُتَ عن **علي بن ابي طالب** بأنه خيّر اللوطي بين ثلاث: ضربة بالسيف في عنقه بالغة ما بلغت، أو إهدارهِ من جبلٍ مشدود اليدين والرجلين، أو إحراق بالنار.. ولأن الفقه الجعفري يجيز الاجتهاد، فقد اجتهدتُ بهذا الحدِّ الذي عليك أن تستسلم له.

أليس كنتَ تُريد مني أن أصبح مجتهدًا؟

وخوف أنك لم تعتنق الإسلام بعد، فسأقرأ عليك من العهد الجديد والعهد القديم:

من الرسالة الأولى **لبولس** الرسول إلى أهل **كورنثوس** يقول:

"أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الظَّالِمِينَ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ؟ لاَ تَضِلُّوا: لاَ زُنَاةٌ وَلاَ عَبَدَةُ أَوْثَانٍ وَلاَ فَاسِقُونَ وَلاَ مَأْبُونُونَ وَلاَ مُضَاجِعُو ذُكُورٍ"

وقد ورد في سفر **اللاويين**:

"وإنْ ضاجَع أحدٌ ذَكَرا مُضاجعَة النّساءِ فكلاهُما فَعلا أمرًا مَعيبًا فلْيُقتلا وَدُمُهما على رأسيهما"

غابتْ الشمس ذلك اليوم بسرعة، اختبأت خلف القبة الذهبية للمرقد المقدس، واختفتْ. كانت المدينة هادئة أكثر من المعتاد، وكان بيت السيد **المخيني** هادئًا جدًا، لا يُسمع فيه شيء سوى صوت **هوفسيب** الهادئ الرخيم وهو يقرأ سورة الفاتحة، ثمَّ نهض، أشعل الفانوس، أخذه بيده وذهب إلى الحمام. حرَّك حجارة هناك، أستخرج من خلفها مجموعة من الرسائل، والنقود التي حصل عليها من النذور والأخماس التي كان يخفيها عن خاله، وعاد وأراح عجيزته السمينة على كرسيَّه الجديد: رأس خاله.

وضعَ الفانوس على الأرض، فتحَ رسالة من تلك الرسائل، أمسكها بيده اليمنى، رفع الفانوس بيده اليسرى، وبدأ القراءة بصوت ضعيف، بلغته **الأرمنيَّة** التي بدأتْ تخفت مثل جمرةٍ أنهكها الرماد:

«حبيبي **ماسيس**، لن أتخلّى عنك أبدًا، أريدك أن تعرف هذا جيدًا. حتى لو تخلى عنك العالم كّله فأنا لن أتخلى عنك، مازلتُ أحبك ولم أشعر بالسعادة إلا معك، لا أنكر أن وجه أختك يسبب لي بعض السعادة لأنه يذكرني بوجهك.

لن أنسى أبدًا شجاعتك وحمايتك لي وقتلك الراهبة التي أمسكتْ بنا في سرداب الكنيسة. كنتَ شجاعًا بينما كنتُ أنا أرتعش خوفًا مثل أي جبان. سأبعثُ لك بعض المال مع هذه الرسالة التي كتبتها مباشرة بعدما وصلتني رسالتك، ولا أدري كم ستستغرق حتى تصل إليك؟ سأعرف عندما تصلني رسالتك التالية، وسأبعث لك بالمزيد كلما وجدتُ طريقة. أنت تعلم أن لا أحد يذهب مباشرة من **أضنة** إلى **النجف**، والمال يجب أن يذهب إلى بلاد **فارس** أولًا ثم يجد معارفي هناك من يذهب إلى الحج إلى المدينة المقدسة من المسلمين الشيعة. سأبقى أحبك أبدًا وأرجوك أن تحذر جيدًا وتعتني بنفسك حتى نلتقي، كما أتمنى أن تُتلف الرسالة ولا تحتفظ بها»

نهض من جديد حاملاً الرسائل، رماها في الموقد، وأشعل فيها النار، وعاد وجلس قُرب خاله وراح ينظر إليه بعينين مفتوحتين حتى وسعهما. توقَّف عن الرمش وبدأت يداه ورجلاه ترتجف كالأرض الواقعة على عِرق زلزال في بداية نشاطه، ثمَّ وقف فجأة، ودون أن يلتفت لشيء خرج إلى الشارع.

خرج وسار بسرعةٍ من يريد اللحاق بشيءٍ ما، أكثر مما يبدو أنه يهربُ من شيء

ما، وكالنسرِ انقضَّ وارتمى على قبر **علي بن أبي طالب** بقلبٍ مكسور مثل جرّة خزفيَّة سقطتْ من فوق الرفّ، وقال له:

– لقد تعبتُ يا **عليّ**.. لم أعد أعرف ما عليَّ فعله؟ لم أعد أعرف ما أريد؟ كلُّ ما أريده الآن ألا أعود إلى البيت، هل تستطيع أن تحقق لي ذلك؟
الناس يقولون بأن لك كرامات ومعاجز مثل **يسوع**، لكن **يسوع** لم يفعل لي شيء، وكأنه غير موجود، وكأني لا أستحق أن يفعل لي شيء. فهل أنت مثل **يسوع**؟ أرني معجزتك وسأتبعك.. سأترك كلّ شيءٍ وأتبعك.

– تبدو متعبًا يا سيِّدنا.. هل حدثَ شيء؟ أم أنك لا تثقُ بأحدٍ غير **المولى عليّ** تشكو وتبثّ إليه حزنك، أم أنك تغتنم آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة التي يسمع الله فيها مناجاة عباده ويهب لهم كلَّ شيءٍ يطلبونه؟

كان **هوفسيب** مشغولًا بالحديث مع القبر، فللوهلة الأولى ظنَّ أن الصوت الذي كلمه خرج من القبر، لكن الصوت كان من السيد **النوّاب**، تلميذ **الميرزا** الأبرز والمرشح لخلافته. فابتسم **هوفسيب** ردًا على ابتسامة السيد **النوّاب**، لكن ابتسامتهِ كانت أعمق، ممزوجة بمرارة مُخمَّرة، وكأنما هناك من أشعل فانوسًا وقربه من الضريح.
قال **هوفسيب** للسيد **النوّاب**، بهدوئه المعتاد:

– لو كانت لكَ حاجة فهل كنت ستطلبها من الأمير أم من رعيته؟

– من الأمير طبعًا، لكني لن أرفض أي مساعدة يقدمها لي أحد الرعيّة.

– ماذا تقصد؟

– دعنا نصلي صلاة المغرب والعشاء جماعة وبعدها سأخبرك.

كان المؤذن قد وصل في أذانه إلى جملة: «أشهد أن **محمدًا** رسول الله» وبينما خرجا من الضريح وذهبا إلى المسجد الملاصق حيث تقام صلاة الجماعة ووجدا لهما مكانًا في الصفوف الأخيرة كان المؤذن قد انتهى وبدأت صلاة الجماعة بإمامة السيد **الكاسنَوي** الابن، ابن المرجع الكبير السيد **الكاسنَوي**.

بعد الصلاة طلب السيد **النوّاب** من **هوفسيب** السَيْر معه. خرج يتبعه **هوفسيب** من باب الضريح الشمالي وسارا ليس بعيدًا في السكة الرئيسية ثمَّ دخلا زقاقًا هناك حيث كان ينتظر السيد **النوّاب** شخصٌ ملثّم أعطاه مظروفًا وانصرف دون أن يقول له شيئًا.

وضع السيد **النوّاب** المظروف في جيبه وقال **لهوفسيب**:

– هذهِ أموالٌ خَيريَّة من **الهند** أُوزعها على الفقراء من طلبة العلم وغيرهم.

أكملا طريقهما داخل الزقاق، توقفا بعدها أمام بابٍ كبير يجلس عنده رجلٌ سمين لا يكاد وجهه يُرى من شدّة سماره وظلمة المساء.

حيَّ السيد **النوّاب** الرجل فردَّ عليه التحيّة بصوتٍ أبح ونبرةٍ متعالية. تركاه

ودخلا المبنى، ومن يمين الساحة المستطيلة الكبيرة صعدا الدرج الكبير المؤدي إلى الدور الثاني، وسارا بمحاذاة الساحة حتى وصلا آخر حجرة. أخرج السيد **النوّاب** مفتاحها من جيبه ودخلها وتوجه صوب الفانوس فأشعله وطلب من **هوفسيب** الدخول.

دخل **هوفسيب** بحذر وهو يقول للسيد **النوّاب**:

- ألا تريد أن تخبرني أين نحن، وماذا نفعل هنا؟

- نحن في حُجرتي في مدرسة السيد **الكاسنَوي**.. لقد سمعتكَ اليوم وأنت تطلب من **الميرزا** حجرة للتفرغ فيها لطلب العلم، ورأيتُ ونحن في حرم الأمير كم أنت محتاجٌ للخلوة. أنا سأرافق **الميرزا** غدًا إلى **كربلاء** المقدسة لزيارة الأمام **الحسين** عليه السلام وستبقى الحجرة شاغرة للثمانية أيام التي سأكون فيها مع **الميرزا**.. سأُثقِل عليك فقط هذه الليلة، ومن الغد ستكون الحجرة لك.

- هل سمعتني وأنا أتكلم مع **الأمير**؟

- هل كنتَ تطلبُ منه أن يوفر لك حُجرة؟ هذه معجزة.. أنت مستجاب الدعوة يا سيد **يوسف**. لقد استجاب لك المولى وشرفني بأن أكون وسيلته. كم أنا فرحان وأشعر بالزهو.. لطالما **الميرزا** أخبرنا بأنك وليٌّ صالح، وهأنذا أشهد بنفسي على ذلك.

بعد صلاة الفجر وعلى ضوء الفوانيس الخافتة المنتشرة في أروقة المدرسة قام السيد **النوّاب** بأخذ **هوفسيب** في جولة ليريه المكان. وعند الباب الخارجي حيث يجلس الرجل الغاضب أعطاه المفتاح بعدما أوصى الرجل بأن يسمح للسيد **المخيني** بالبقاء في حجرته حتى عودته من الزيارة وأن يقدم له المساعدة متى ما احتاجها، فقال الرجل الغاضب بنبرته العصبية المعهودة:

– هل أخبرتَه بأني أُغلق باب المدرسة بعد صلاة المغرب بساعة، ولن افتحها أبدًا لأي أحد حتى صلاة الفجر، باستثناء ليلة الجمعة حتى منتصف الليل؟

– نعم أخبرته، وها هو يسمعها مرّة ثانية منك.
أجابه السيد **النوّاب** وودع **هوفسيب** وانصرف، بينما عاد **هوفسيب** الى ساحة المدرسة غير مصدقٍ ما حصل.

المدرسة مستطيلة، تحتوي اثنتين وثلاثين غرفة موزعة على طابقين، ست عشرة حجرة في كلِّ دور. حُجرتان على جانبي المدخل، ومثلهما فوقهما بذات التصميم. الحجرة التي على اليسار تحوي ثماني حمّامات بشريَّة نظيفة وليست مثل حفرة العفن في بيت خاله، والحجرة التي على اليمين متوضأ طويل، وعلى الجانب الآخر منها ست حُجراتٍ صغيرة للاغتسال.
ثمَّ ست حُجر كبيرة في الجانبين الأيمن والأيسر من المدرسة، وفوقها بالضبط في الدور الثاني مثيلاتها. تفصل الحُجر ساحة كبيرة – عشرة في عشرين مترًا –

مكشوفة السقف، فارغة إلا من شجرتي أثل في الوسط وأريكتين حديديين متلاصقين من الظهر تحت كلِّ شجرة.

في نهاية الساحة، عند الركن الأخير من المدرسة توجد قاعتين كبيرتين، الواحدة فوق الأخرى. القاعة السفلية مطبخٌ كبيرٌ يحتوي على أرائك خشبية وطاولات لتناول الطعام كالسادة وليس كالعبيد كما في مدرسة **الميرزا** حيث يتناول الطلاب الطعام على الأرض. أما القاعة العليا فمخصصة لحلقات الدرس، حيث يقوم المعلمون وأغلبهم من سكّان المدرسة بتدريس الطلبة الباقين كلٌّ بحسب استيعابه ومرحلته، وتحتوي القاعة على مكتبة ضخمة تُغطي تقريبًا أغلب جدرانها، أما في يوم الخميس عصرًا فالقاعة مخصصة للسيد **الكاسنَوي** الابن، حيث يحضر مع حاشيته ويشترك كلَّ طلاب المدرسة وأصدقاءهم من مدارس أخرى في مجلس عزاء حُسيني طمعًا بتناول وجبةٍ دسمة يقدمها السيّد **الكاسنَوي** الابن على نفقته الخاصة وليست على نفقة السيد **الكاسنَوي** الأب.

بعدما ودع **هوفسيب** السيد **النوّاب** جلس قليلاً على الأريكة تحت الشجرة. فتح رئتيه للسماء الصافية وسمح لروحه أن ترتاح قليلًا، ثمَّ صعد إلى غرفته، لكنه دخل الحمّامات في طريقه وكأنه يريد استكشافها من جديد. جلس هناك طويلاً حتى نسي لِمَ هو هنا، ثمَّ خرج من الحمّام كما دخله، دون أن تعلق به رائحة الجدران التي بلا رائحة. توجه بعدها إلى الحجرة الثانية ودخل إحدى حجيرات الاغتسال. وَجَدَ ماءً في جرَّةٍ كبيرة تصل إلى سُرَّته. ارتعب بنشوة من كميَّة الماء

التي لم يرها من قبل في بيت خاله. خلع ثيابه وأمسك الطاس النحاسي الطافي على سطح ماء الجرّة الفخارية العظيمة وملأهُ حتى تفايض ورمى بوجههِ دفعةً واحدةً داخل الماء الخارج من الطاس. لم يترك الوقت للماء كي يصل إلى وجهه بل استقبله في منتصف المسافة كطيرٍ يرتطم بغيمة يعصرها ملاك. بعدها جرّب رغوة صابونة الغار المتروكة على رفٍ حجري بجانب الجرّة. في بيت خاله هناك صابونة مشابهة لكنها تبخل برغوتها على الماء المالح الرخيص الذي يشتريه خاله من سقَّاءٍ أعرج، أكل الملح رُكبته.

حُجرة السيد **النوّاب** – كما كلِّ حُجر المدرسة – اثنا عشر مترًا مربعًا، الواجهة ثلاثة أمتار والعمق أربعة. في الواجهة بابٌ خشبي جيد الصنع، وشباك خشبي أيضًا، كبيرٌ نسبيًا – بالنسبة لشبابيك المباني الأخرى – عرضه متر وارتفاعه متر وربع، يعلوه قوسٌ يشبه القبَّة على طراز القبّة العلَوية الذهبية. من الخارج مدعمَّ بأعمدة حديدية عمودية متقاربة، لا تسمح بدخول جسمٍ أكبر من كفِّ اليد، ومن الداخل مصنوع من درفتين من الزجاج، وهذا ما يجعل الحجرة مُضاءة طوال النهار وطوال الليالي المُقمرة. وهو بالطبع شيءٌ جديد ومفرِح **لهوفسيب**، الذي كان قد نسيَ أن للبيوت شبابيك بعد مكثه في كهف خاله. وبخلاف بيت خاله أيضًا فأن في الحجرة سريرٌ للنوم، فلن يضطر إلى النوم على الأرض، ويملك السيد **النوّاب** مكتبة جيدة، تمتدَّ على طول الحائط المقابل للسرير. فيها كتب بالفارسيَّة والهنديَّة وهي كُتب دينيَّة بالطبع وليس فيها كتب فلسفة، بعدما

بحث فيها **هوفسيب** بشوق، لان الفلسفة بشكل عام مُحرَّمة في المدينة. وبالقرب من المكتبة يقف هناك مثل الحارس: كرسيٌّ خشبيٌّ عتيق.

بدأ الضوء بالدخول إلى الحجرة، فأطفئ **هوفسيب** الفانوس الموضوع على رفِّ المكتبة من الأعلى، وجلس على الكرسيِّ ومدَّ يده داخل جيب ثوبه الجانبي وأخرج النقود، لكنه سرعان ما أعادها مع سماعه طرقُ الباب وصوتٌ يقول له:

- افتح الباب يا خَشَبة فقد مات خالك.

كانت **فرناز** قد عادت مع الفجر ووجدتْ زوجها ممدّدًا على قفاه، مُسبِلاً يديه بجانبه، ووجههُ تحت المخدّة، وعورته ظاهرة، وقد فارق الحياة. صرختْ بعد أن غطّتْ عورته حتى لا يُقال بأنه مات وهو يحاول مضاجعتها، واجتمع الناس وأخرجوا الجثة من البيت ونقلوها إلى المسجد القريب، كي يفسحوا المجال للنساء بتعزية زوجته، وهم هناك بانتظار أن يحضر **هوفسيب** ويدفنه.

- أنا لا أعرف ماذا أفعل يا **جودي**؟
- هلْ معكَ مال؟
- نعم.
- المالُ سيفعل كلَّ شيء.

في الطريق إلى المسجد أخذهُ **جودي** إلى **عبد الله الحفّار** وأعطاه 16 روبية..
عشرة روبيات لدفن السيد **المخيني** في الصحن المطهر لأمير المؤمنين **عليّ**، وهذا المبلغ يسمّى بـ (رسم رفع الصخرة) حيثُ يدفن الأشراف والتجار والعلماء، أمّا من لا يملك المال فيدفن في مقبرة بعيدة خارج السور، فحتى مقبرة وادي السلام التي تمتدُّ من النجف إلى كربلاء، لا يُسمح بدفن أحدٍ لا يملك 5 روبيات؛ رسم الدفن في مقبرة وادي السلام. أما الست روبيات الإضافية التي أعطوها إلى **عبد الله الحفّار** فهي تسمى إكراميّة لكنها في الحقيقة أجور الدفن التي يتقاضها الحفار القائم بالدفن. هذه الإكرامية تزداد وتنقص حسب الحالة المالية لذوي المتوفّي. وست روبيات لا يدفعها إلا الأشراف.

المال فعل كلَّ شيء كما قال **جودي**. المالُ غسَّلَ وكفّنَ ودفن. لم يفعل **هوفسيب** شيئًا غير الصمت ومصافحة المعزين الذين كان معظمهم يُقبِّلُ يده. كان من ضمن المعزِّين القنصل **الفارسي** الذي شدَّ مطوَّلًا على يدِّ **هوفسيب** وأكد عليه بأنه ليس وحيدًا وأن القنصليَّة مفتوحة دائمًا له، وبيته كذلك، في أيِّ وقت. وحضر أيضًا **أبو القاسم الشيرواني** القنصل **الروسي** الفخري في النجف.

الفصل الثالث عشر

وقت العصر، في اليوم الرابع لوفاة خال **هوفسيب،** وبينما كان ممدَّدًا على السرير عاريًّا، بعد عودته من الحمّام مبلَّلِ الثياب، حيث اغتسل وغسل ثيابه، ولأنه لا يملك غير طقمٍ واحد فقد بقي بثيابه الداخلية طوال الطريق من الحمّام إلى الحجرة، وما أن دخلها حتى خلع قميصه العلوي وسرواله وتركهما بالقرب من الشباك تعترضان طريق الريح وبقي عاريًّا باستثناء خرقةٍ خفيفة تغطي ما بين سُرَّته وركبتيه. بينما هو ممددٌ على السرير، لمح شبحًا يسترق النظر إليه من خلال النافذة، فصاح على الفور من هناك؟ فأجابه صوتٌ متلعثم: أنا.

قفزَ من فوره وارتدى قميصه الذي كاد ينشف، وسِروالهِ نصف المبتَلِ وفتح الباب. كان السيد **الكاسنَوي** الابن – ابن العالم الكبير آية الله العُظمى السيد **الكاسنَوي** – صاحب المدرسة، وما أن رأى **هوفسيب** حتى قال:

– سبحان من أعطاك جمال **يوسف**.

لم يجب **هوفسيب** بشيء. لاذ بالصمت كعادته. دائمًا ما نجحت معه هذه الطريقة في استكشاف الآخر. فقال السيد **الكاسنَوي**:

– أنا السيد **مصطفى الكاسنَوي**، ابن آية الله العظمى السيد **الكاسنَوي** صاحب المدرسة، وقد أتيتُ للترحيب بك، وتفقد ما إذا كنت محتاجًا لشيء أو ينقصكَ شيء. وأعزيك بوفاة والدك السيد الفاضل **جودت المخيني** رحمه الله وحشره مع **محمد وآل محمد** صلوات الله وسلامه عليهم. أُعزيكَ نيابة عن السيد الوالد وعنّي شخصيًّا، كما أود أن أعتذر على عدم مشاركتي لكَ العزاء قبل هذا الوقت لأني كنتُ خارج **النجف** الأشرف.

– أطال الله في عُمر السيد المرجع وحفظه الله لنا ولكلّ الأمة. قدومكم يعني لي الكثير سيّدنا. وهذا ليس غريبًا عليكم فأنتم أهلٌ للفضل، وأرجو ألّا يضايقكم وجودي في المدرسة، فقد وعدني استاذي **الميرزا** بتوفير سكن لي ما أن يعود من **كربلاء** المقدّسة.

– ما هذا الكلام يا سيّدنا؟ لن نسمح لك بمغادرة المدرسة. ستحظى بأفضل حجرة هنا، وكلُّ طلباتك مُجابة ولنا الشرف بأنَّ السيد العابد العارف **يوسف المخيني** يُقيم في مدرستنا.

– لكن...

– قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان... والآن سأتركك وسأطلب من الحارس والطباخ تخصيص الحجرّة الخاصة لك. لقد كانت لي والآن هي لك. أنا لم أعد استخدمها كثيرًا بعد زواجي وانتقالي للسكن في بيت ملاصق لبيت السيد

الوالد. صحيح أنَّه بيت صغير لكنه يكفيني وزيادة، ولو أني احتجتُ إلى الخلوة فلن تمانع أن أُثقلَ عليك ليلة أو ليلتين.

– هذا شرفٌ لي سيِّدَنا وتفضلٌ منك وكرمًا ما بعده كرم.

لم يطل الأمر كثيرًا، مرّت ساعتين أو ربما أقل، فأذان المغرب لم يُسمع بعد. سمع **هوفسيب** خطوات الحارس الثقيلة وصوت عصاه ولهاث أنفاسه، ودون أن يطرق الباب، قال بامتعاض:

– ألم تسمعني وأنا أناديكَ من ساحة المدرسة؟ هل يجب أن أصعد هذهِ السلالم الكثيرة كي أطلب من حضرتكَ الانتقال إلى حجرتك؟

في البداية ظنَّ **هوفسيب** أن الحارس يتكلم مع شخصٍ آخر، لكن الحارس ضرب باب حجرة السيد **النوّاب** بعصاه ورفع من صوته أكثر قائلاً:

– معكَ أتحدث.. هل أنت نائم؟

أجابه **هوفسيب** على الفور:

– أعتذر يا عمّ لم اسمعك، كنتُ مستغرقًا في المطالعة.

فقال الحارس:

– حجرتك جاهزة كما أوصى السيد **الكاسنَوي**.. وأضاف في سرّه: "أنا لستُ عمّ أحد".

نزل **هوفسيب** بعد قليل وكان الحارس قد نزل الدرج الكبير ووقف أمام المدخل المؤدي إلى باب المدرسة الخارجي وبيده مفتاح كبير بطول عشرين سنتيمترًا تقريبًا. ألتفت الحارس إلى الخلف بعدما أحسّ بخطوات **هوفسيب** على الدرج وبإشارة منه طلب منه أن يتبعه، فسار حتى خرج من باب المدرسة وتوقف أمام بابٍ كبيرٍ بحجم باب المدرسة الرئيسي وفتحه وأدخله وأعطاه المفتاح وقال له:

– كما ترى فأنَّ باب حجرتك خارج المدرسة. تأكد أن تغلق الباب عندما تريد المغادرة. تأكد أكثر من مرّة، لأن للحجرة بابًا صغيرًا يقود إلى ساحة المدرسة، وهو يقفل ويُفتح من الداخل فقط. فلو أنك نسيتَ أن تقفل الباب، فستُعرِّض الجميع للخطر.

ثمَّ وقبل أن يتركه ويذهب ليجلس على كُرسيِّهِ أمام البابين قال له:

– الثياب التي على السرير تركها السيد لك.

طمأنه **هوفسيب** وأكد له بأنه سيحرص على ذلك، ودخل الحُجرة التي لم يكن يعلم بوجودها واتضح أنها الحُجرة (33). لقد سمع من بعض الطلاب أثناء تناول وجبات الطعام بعض الهمزِ واللّمزِ عن هذه الغرفة، لكنه لم يكن يفهم عما يتحدثون، خصوصًا وأن عدد غرف المدرسة اثنتان وثلاثون غرفة فقط.

الحُجرة (33) كانت بحجم غرفتين كبيرتين من غُرف المدرسة، في اقصى الزاوية اليمنى منها حمّامٌ خاص للاغتسال ومرحاض جيّد التهوية، بكوّة في الأعلى مشبَّكة بحديد صلب تطل على الشارع. زاويتها اليسرى من الحائط حتى الباب الصغير مكتبة كبيرة من الأرض حتى سقف الغرفة، تحتوي على كُتب نادرة ونفائس وأكثرها لم يُفتح أصلاً.. شيءٌ كهذا لا يخفى على **هوفسيب**. وفي الجهة اليمنى بالقرب من الباب سريرٌ كبيرٌ يسعُ لشخصين بدينَيْن، وفي المنتصف – منتصف الحجرة بين السرير والمكتبة – أريكتين كبيرتين بفراشٍ وفير تتوسطهما طاولة عليها سلّة فاكهة متنوعة.

على السرير كان هناك قميصان وسروالان وعمامة سوداء كبيرة أكبر من عمامته، وقباءين – شتويٌّ بلونٍ أسودَ ثخين وصيفيٌّ رَقيقٌ بُنّيّ – والقباء لباس طويل يغطي الجسم من الأكتاف لغاية أسفل القدم. يوضع في الأمام إحدى أطرافه على الطرف الثاني، ويشد بزرَّين من الداخل والخارج، ولهُ – للقباء – أكمامٌ طويلة، وفتحتان تحت الإبط لدخول الهواء.. وله أيضًا جيبان كبيران، يستخدمهما رجل الدين لوضع طرف القباء عند دخوله للمرحاض وعند الوضوء. أمّا ياقة القباء فتكون بالعادة على شكل رقم ٧ الهندي. وبجانب السرير من الأعلى كانت هناك عباءتان معلقتان بمسمارين حديديين ضخمين. عباءة صيفية يدوية الصنع يميل لونها إلى الأصفر أكثر من الأبيض، وعباءة سوداء سميكة من الوبر.

أول شيءٍ فعله **هوفسيب** في حجرته الجديدة أنه تأكد من قفل البابين ودخل الحمام واستمنى واغتسل. لبسَ الثياب الجديدة، وقفَ أمام المكتبة مطولًا، اختار ديوان **حافظ الشيرازي**، أمسكَ بعنقود عنبٍ كبير في يدهِ الأخرى، واستلقى على الأريكة.

بقي ثلاثة أيامٍ كاملة لم يخرج من المدرسة ولم يذهب إلى الصلاة في حرم الأمير. يذهب فقط إلى المطبخ ليأكل مع الطلبة ثمَّ يعرّج على قاعة الدرس. يجلس هناك، يستمع إلى الطلبة وهم يتدارسون، لكنه لم يجد ما يبحثُ عنه، فكلُّ هذه الدروس قد حفظها وأتمها، ثمَّ يعود إلى حجرته.

في اليوم الرابع بعثَ له السيد **الكاسنوَي** بشهريّة طلاّب العلم التي يوزعها والده على طلبة العلم، وكان مبلغًا لا بأس به خصوصًا وأن الأكل والإقامة مجانية، لكنه ليس مبلغًا كبيرًا.

طلبة العلم أو رجال الدين لديهم معاشٌ دائم حتى آخر عمرهم من مراجع الدين الكبار. فكلَّ مرجع لزامًا عليه أن يدفع للطلبة لديه أو لدى غيره – من مُقلديه أو من مُقلدي غيره – مبلغًا من المال كلَّ شهر تسمى بالشهرية، وهي من الأموال التي تُجبى إليه من الأتباع المؤمنين من مختلف بقاع الأرض. هذهِ الأموال يدفعها الناس للمرجعِ بكامل رضا وطيب خاطر، يشترون بها مرضاة الله، وتكون أقسامًا عدّة، منها هدايا ونذورات وكفّارات وصدقات أو خُمس. وهذا الخُمس يُشكِّل أغلب ثروات المراجع، حيث يدفعه الكّل – رجالًا من

عمر الرابعة عشرة سنة ونساءً من عمر التاسعة – يدفعون خُمس صافي أرباحهم السنوية إتباعًا للآية 41 من سورة الأنفال:

((وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))

قبل غروب اليوم الخامس من انتقاله إلى حجرته الجديدة عاد السيِّد **النوّاب** من **كربلاء المُقدَّسة** ولمّا سأل الحارس عن السيِّد **المخيني** أخبره بانتقاله إلى الحجرة (33) فطرق الباب عليه ودخل حجرته وهنَّأهُ على حصوله على حُجرة.

كانت تبدو على ملامحه آثار الدهشة والريبة وهو يجول بنظره في المكان، لكن **هوفسيب** أخبره بأن لا فضل لأحدٍ عليه فهذه عطايا الإمام صاحب العصر والزمان.

جلس قليلاً عنده وأخبره بعض ما شاهده في **كربلاء** وخلو مرقد سيِّد الشهداء **الإمام الحسين** من الزوار في ظاهرة عدّها غريبة ونادرة، وعن تعرُّضهم للمضايقات التركيّة الكثيرة، وبعدها انصرف قبل صلاة المغرب.

في اليوم التالي مرَّ مجدّدًا على **هوفسيب** وطلب منه مرافقته إلى درس **الميرزا**، وقبل أن يسمع إجابته أخبره بأن **الميرزا** شدّدَ عليه أن يحضره معه، فقال **هوفسيب** بأنه اشتاق إلى استاذه وكان ينوي أن يذهب ويسلّم عليه ويستحمد له سلامة الوصول.

بعد الدرس اختلى **الميرزا بهوفسيب،** وبعد تقديمه لواجب العزاء بوالده والترحم عليه والدعاء له، قال:

– سمعتُ أنكَ حصلتَ على حجرةٍ جيّدة في مدرسة السيد **الكاسنَوي**؟

– نعم.

– يُقال إنَّها حجرة السيِّد **مصطفى** شخصيًّا.

– نعم. قال بأنه لم يعد يحتاجها بعدما تزوج واستقر في بيتٍ ملاصقٍ لبيت والده المرجع.

– كنتُ أتمنى يا سيد **يوسف** أن أجد لك غرفةً بقربي، وتحت عينيَّ كي أخدمك وأخدم مولاي صاحب الزمان روحي لتراب مقدمه الفداء، فهو من أوكل لي شرف تدريسك ورعايتك. لكن في الوقت الحاضر كلُّ الغرف مسكونة، ولقد بعثتُ اليوم بأكثر من فاضلٍ للبحثِ عن غرفةٍ فارغةٍ لدى معارفي، لكن للأسف ليس لديهم شيء الآن ووعدوني بأنها مسألة أيام وأسابيع قليلة وستكون الغرفة حاضرة.

سكتَ **الميرزا** ما أن دخل الخادم بالشاي، فنظر إليه وأشار عليه بتقديم الشاي إلى السيد **المخيني** أولًا ثمَّ أمره بترك الصينية أمامه ودعا له بالرحمة والمغفرة.

وعاد إلى كلامه وسأل **هوفسيب**:

– إلا تستطيع العودة إلى منزل والدك يا سيِّدَنا؟

– مِمَّ تخشَ يا مولانا؟

سأله **هوفسيب** هذا السؤال المباشر بعدما فشل أسلوبه في الصمت الذي كان يستكشف به نوايا الآخرين. يبدو أن **الميرزا** يلفُّ ويدور وأسلوب الصمت لن يجدِ معه.

– أخشى أن تتورط في السياسة يا سيِّد **يوسف**. ما فعله معك السيِّد **مصطفى** يثير الريبة. أنه ليس بهذا الكرم، ولا أستبعد أن تكون القنصليَّة الفارسيَّة والقنصليَّة الروسيَّة وراء ذلك.

– كلُّ هذا وراء إعطاء طالبِ علمٍ مغمورٍ حجرةً في مدرسة؟

– أنت لديكَ قدرات ومواهب عظيمة يا سيِّد **يوسف**، كلُّ من عرفك يعرف ذلك، أنت طالب نبيه وذكي ومُسدَد من قبل المولى ولديك ملاحظات وتقارير على الدروس لا يستطيع الإحاطة بها إلا المتقدمين جدًا في العلوم الدينية، وأنا واثق بأنك ستكون أصغر مجتهدٍ عرفته الحوزة يومًا. ثمَّ أنها ليست أي حُجرة، إنها الحُجرة (33).

– ما قصة الحُجرة (33) يا مولانا؟

– كنتُ واثقًا بأنك لا تعرف. وسبب انفرادي بكَ الآن كي أُبينَ لك ما يحدث في الخفاء في هذه المدينة. من واجبي أن أخبرك ما أعرفه وأحذرك، وهكذا أكون قد أبرأتُ ذمتي لإمامنا صاحب العصر والزمان عجَّل الله تعالى فَرَجَهُ الشريف. النجف يا سيِّدنا هي الحاكمة الفعلية لكلّ الشيعة في العالم وبالأخص بلاد فارس. وأن علماء الدين المراجع هُم الحُكّام الحقيقيون وليس أحدٌ غيرهم.

ولا بدَّ أنك سمعت بقصة الملك القاجاري **ناصر الدين** شاه، شاه **بلاد فارس**، الذي لم يتمكن من تدخين التنباك داخل قصره بعدما أفتى **الميرزا الشيرازي** بتحريمه. زوجة الملك وخدمه كانوا من مُقلدي **الميرزا الشيرازي** والتزموا بالتحريم وقاموا بتكسير النارجيلات الموجودة في القصر كلّها. الفتوى كانت عقابًا للملك الذي منح حقَّ امتياز التنباك لشركة بريطانيَّة لمدّة خمسين سنة، مما أجبر الملك على إلغاء حقّ الامتياز وطاعة المرجع. وهذا بالطبع كان بداية لمطالبة الملك بوضع دستورٍ للبلاد وحدثت هذه الفتنة المستمرّة لحدّ الآن. فتنة الحركة الدستوريَّة (**المشروطة والمستبدّة**) فقد نجح المطالبون بالحركة الدستوريَّة وبدعم من بعض مراجع الدين في **النجف** وبالأخص **الملاّ الهراتي** المرجع الكبير بجعل الشاه **مظفر الدين القاجاري** الذي استلم الحكم بعد مقتل والده **ناصر الدين شاه**، بأن يوافق على جعل **بلاد فارس** دولة ذات حكم دستوري، ومات بعدها بشهرين. ومع بداية تولي الشاه **محمد علي** انقلب على الحركة الدستورية بمباركة السيِّد **الكاسنَوي** الذي كان يجتمع بالقنصل **الفارسي** والقنصل **الروسي** في الحُجرة (33).

القنصل الروسي أبو **القاسم الشيرواني** استطاع التأثير على السيِّد **الكاسنَوي** وأقنعه بأنَّ **بريطانيا** وراء الحركة الدستوريّة، وأن هدفها التحرُّر من التقاليد الدينيّة والأعراف الحميدة والابتعاد عن مذهب آل البيت والعلماء المراجع.

وبعد وقوف السيد **الكاسنَوي** مع الشاه **محمد علي** ووصفه للدستوريين بالمنحلِّين والكفرة وتحشيد الناس ضدّهم استطاع **الشاه** أن يوجه للحركة

الدستوريَّة ضربة قاصمة، إذ أعلن الأحكام العرفية وطلبَ من جنود **(القوزاق)** بقيادة **لياخوف** الروسي بمحاصرة مجلس الشورى وفتح أخيرًا نيران مدافعه على المجلس. فانتشر الموت والخوف في العاصمة، ولاذ أنصار الحركة الدستوريَّة بالفرار في كلِّ اتجاه. تمكن البعض منهم من دخول المفوضيَّة البريطانيَّة واللجوء إليها وحصلوا على الحماية، بينما وقع البعض الآخر في قبضة القوات الحكوميَّة وتم التنكيل به.

– وما كان موقفك من كلِّ ما حصل يا مولانا؟ سأله **هوفسيب**

– أنا اعتزلتُ الفريقين وذهبتُ إلى **كربلاء** المقدسة وجاورت سيد الشهداء صلوات الله وسلامه عليه حتى وفاة **الملاّ الهراتي** رحمه الله.

ثمَّ أخذ قطعة من السكر الصلب **(قند)** من السُكَّريّة **(قندون)** التي كانت أقرب إلى **هوفسيب** منه، ووضعها داخل فمهِ وأكمل شرب ما تبقى من استكان الشاي وقال:

– المؤكد بأنكَ سمعتَ وعايشتَ هذهِ الأمور يا سيِّد **يوسف** لكنَّ ما لا تعرفه هو أنَّ الصراع بين الرجلين، وبالأخص عند السيّد **الكاسنوَي،** هو صراع من أجل الدنيا والسياسة وحُبُّ الزعامة وليس من الدين في شيء. لذلك أنا أخشى عليك من هذهِ الحُجرة وهذهِ المدرسة، فأنت رجلٌ مُبارك وتبتغي رضوان الله والدار الآخرة ولا دخل لكَ بأحد غير درسك وعلمك وتطورك الأخلاقي والعبادي.

– أنا لا دخل لي بالسياسة يا مولانا. أنا طالب علمٍ وآخرة، ولن تجد منّي إلّا ما يسرك.

ابتسم **الميرزا** وقام من مكانه وقبَّل **هوفسيب** في جبينه وقال له:

– هذا ما أحببتُ سماعه منك.

الفصل الرابع عشر

يوم الخميس وكعادة السيِّد **مصطفى الكاسنَوي**، حضر إلى المدرسة عصرًا لإقامة مجلس العزاء **الحُسينيّ** الأسبوعي. كان معه أربعة رجال. طلبَ منهم أمام الباب الخارجي للمدرسة، أن يسبقوه إلى القاعة في الدور الثاني. توقف عند الحارس وراحا يتهامسان قليلاً ثمَّ طرق باب حُجرة **هوفسيب**. لم يدخل للداخل بل حيَّاه من مكانه بتحايا رقيقة ومليئة بالاحترام والمصطلحات الإيمانية التقليدية، وأخبره بوجود مجلس عزاءٍ في المدرسة، وتمنّى عليه أن يشرفه بحضوره، وسبقه إلى القاعة.

حضر **هوفسيب** بثيابه القديمة البالية، وما أن دخل المجلس حتى قام له السيِّد **مصطفى** وطلب منه الجلوس بجانبه، فأوسع له الشيوخ والسادة مكانًا بجانب السيِّد **الكاسنَوي**.

اعتلى شيخٌ ممَّن حضر مع السيد **مصطفى** وجلس على المنبر وبدأ خطابته بأبيات شعرٍ عن واقعة **الطفّ** وختم الخطبة بنواحٍ ورثاءٍ بأبيات شعر بالفارسيَّة والعربيَّة تصف معاناة وحزن السيِّدة **زينب** أُخت الأمام **الحسين**. بعدها نَزَل وتمَّ تقديم

وجبةً من الرز الفارسي واللحم الى جميع الحضور. ثمَّ بدأ الناس بالتفرق واحدًا بعد آخر، فالليلة جمعة والمغرب يقترب ولكلّ طالبٍ وِرد وعادة في ليلة الجمعة.

طلب السيد **مصطفى** من **هوفسيب** مرافقته لإداء صلاة المغرب في حرم الأمير، فأعتذر لأنه تعوّد ليلة الجمعة أن يُصلي خلف استاذه **الميرزا** ويحضر بعد ذلك درس الأخلاق الأسبوعي العام له، ثمَّ يحضر درس الأخلاق الخاص الذي كان **الميرزا** يُعطيهِ لخلَّص تلاميذه. فقال له السيد **مصطفى** فلترافقني حتى حرم الأمير إذن، فلم يستطع الرفض، وأشار له بأن يتقدمه، وخرجا برفقة سبعة رجال دين آخرين وتوجها إلى مرقد **علي بن ابي طالب**.

في الطريق سأله إن كان كلَّ شيءٍ على ما يُرام؟ فأجابه **هوفسيب** بأنه ممتن جدًا وأنه يدعو له وللسيّد المرجع بكلِّ وقت. فسأله إن كانت الثياب التي تركها له تناسبه؟ فقال بأنه يشعر بالحرج من ارتدائها لأنها فاخرة جدًا وغالية. فقال له السيِّد **مصطفى**:

– أنت أدرى منّي يا سيِّدنا بما كان يلبس **النبي وآل البيت**، فقد ورد عن **أبي جعفر** (عليه السلام) قال: لبس رسول الله صلى الله عليه وآله الساج والطاق والخمائص. وكما تعلم فإن **علي بن الحسين** عليها السلام كان يلبس ثوبين في الصيف، يُشتريان بخمسة مائة درهم. ثمَّ أن **يوسف** النبي يا سيِّد **يوسف** وهو نبيٌّ وابن نبيٍّ كان يلبس أقبية الديباج مزرورة بالذهب ويجلس في مجالس آل **فرعون**.

إنَّ الله لم يحرم طعامًا ولا شرابًا من حلال، إنّما حرم الحرام قلَّ أو كثُر، على ما قال أمير المؤمنين سيد الزاهدين وإمام المتقين، وقد قال جلَّ وعَزَّ: **"قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ"** وقال: **"خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ"**

وكانا قد اقتربا من حرم الأمير، فقال **هوفسيب** وقد ارتاحتْ نفسه وطابتْ:

– أنتم بحر العلم وموطن الحكمة يا مولانا وأعدك أنّي سأرتدي الثياب وأنا أسير فضلك ومعروفك.
– أسألك الدعاء يا سيِّدنا وأتمنى أن تخص سماحة **الميرزا** بالسلام.

عند منتصف الليل عاد **هوفسيب** والسيِّد **النوّاب** سويًّا إلى المدرسة بعد الدرسَين – العام والخاص – وبعد مرورهما بحرم الأمير سريعًا لإداء زيارة ليلة الجمعة صاحبة الثواب العظيم.

بقي **هوفسيب** صاحيًّا حتى صلاة الفجر، كان يطالع القرآن ويفكر في كتابة تفسيرٍ له، غير التفسير المتعارف، لكنه ضحك من هذهِ الفكرة لأن لغته العربية لم تنضج بعد وما زال الميرزا يأخذ عليه بعض المآخذ في فهمه للآيات لأنه لا يعرف خبايا اللغة، لذلك فقد قرَّرَ أن يولي اهتمامًا أكبر للعربيَّة، أكبر مما يوليها أقرانه من الطلبة، وأن يبدأ بالبحثِ عن معلّمٍ آخر يكون من أصلٍ عربي.

اللغة العربيَّة ليست هي السائدة في **(الحوزة)**، فكلُّ المدينة تتحدث الفارسيِّة وكلُّ الدروس بالفارسيَّة ومجالس العزاء التي يذهب لها بالفارسيَّة أيضًا.

عند سماعه للأذان خرج للمُتوضأ، فلقد نسي أن يطلب من الحارس تزويد حمامه الشخصي بالماء، وحانت منه التفاتة لغرفة السيِّد **النوّاب** فكانت مُضاءة. توضأ وعاد وصلى في حجرته ونام، ليصحو على صوت ضجَّةٍ في الخارج وصل منها إليه التكبير والاستغفار والهَلَهَلة والحوقلة. وعندما خرج من حُجرته تبيَّن له بأن السيِّد **علي خان النوّاب** قد تُوفيَّ وهو نائم. اكتشف موته أحد أصحابه من طلبة **الميرزا** الذي كان قادمًا مثل العادة للمطالعة معًا والمباحثة والمناقشة في الدروس.

بعد صلاة الجنازة ودفنه خارج سور المدينة، وفي مجلس الفاتحة الذي صنعه له **الميرزا** الذي كان يُخفي انكساره وخسارته لأنه كان يُعدُّ السيِّد **النوّاب** لخلافته العامة بينما كان يُعد السيّد **المخيني** لخلافته الخاصّة، نهى **الميرزا** عن الأحاديثَ التي تقول بأن السيَّد **النوّاب** لم يكن مريضًا ولمْ يَشكُ من شيء مطلقًا وعدَّ هذهِ الأقوال من الشيطان وأنها اعتراض على حكمة الله وتدبيره، وأمرهم بالصلاة له واهداء ختمات القرآن والتصدق عنه والترحم عليه، كما أعلن عن تعطيل درسه لمدّة ثلاثة أيام حدادًا على السيد **علي خان النوّاب**.

قبل المغرب بساعة طلب **هوفسيب** من **الميرزا** السماح له بالمغادرة، لأنه يريد الذهاب إلى حرم الأمير وقراءة القرآن وصلاة (ليلة الوحشة) وإهداءها لروح السيد **النوّاب،** فسمح له وقال له: اذكرني عند ربك.

وصل إلى الحرم قبل الصلاة بنصف ساعة وما أن أخذ له مكانًا في الزاوية حتى جلس عنده شيخٌ أفغانيٌّ متوسط العمر معمم بعمامة بيضاء رثّة مغبرة. وبعد التحية المقتضبة همس إليه:

– لن آخذ من وقتكم الكثير سيّدنا الجليل، لكني تبعتك من منزل **الميرزا** على أمل أن أحظى معكم بمحادثة سريعة دون لفت الانتباه إليَّ أو إليك. ولم أجد أفضل من هذا المكان.

كان **هوفسيب** مُطرقًا برأسه عن الشيخ، فقد ظنَّ للوهلة الأولى أنه شخصٌ محتاجٌ للصدقة، فلطالما طُلب منه المساعدة في حرم الأمير وفي السوق وحتى في مجلس **الميرزا،** لكنه بعد هذه العبارة ركزَّ النظر نحو عينيَّ الشيخ دون أن يقول شيئًا، فأكمل الشيخ:

– أكثرنا يظنُّ أنَّ السيِّد **علي خان النوّاب** قد قُتل.

– تظنون؟ من أنتم؟

– القنصليَّة البريطانيَّة في **بغداد** ونائبها في **كربلاء**. أتيتكَ من طرف نائب القنصل **البريطاني** في **كربلاء** المقدسة، الميرزا **محمد حسن خان القندهاري،** وكنتُ قد سلمتُ السيِّد **علي خان النوّاب** مبلغًا كبيرًا من المال كي يوصله إلى

بعض المراجع والمجتهدين يصرفونه في الأعمال الخيريّة حيث يشاؤون. كما أن للسيِّد **النوّاب** ثلث المبلغ ليصرفه على الفقراء **الهنود** في **النجف**. نحن نظّن أنه قُتل ولدينا شكوك قويّة فيمن قتله.

لقد أخبرنا بأنه يشعرُ بالتهديد وكان يفكر بترك مدرسة السيِّد **الكاسنوَي** وكنّا قد وجدنا له مكانًا آخر، لكن وجودك معه في المدرسة جعله يطمئن ويترك فكرة الانتقال. قال بأنه يريدك معه في مهمّة توزيع الأموال وكان ينتظر موافقة القنصل في **بغداد** حتى يفاتحك بالموضوع، لكنه قُتل قبل أن يصله الأمر بالموافقة. نحنّ نظنُّ كذلك بأن المبلغ مازال في حجرته، لذلك جئتُ إليك طالبًا المساعدة. إنه يحتفظ بالأموال داخل مجلد القرآن الكبير على الرفّ الأوسط لمكتبته. فلو أنك استطعتَ الدخول إلى غرفته وجلب هذا القرآن فستكون قد قدَّمتَ خدمة عظيمة لجميع الفقراء الذين ستصل إليهم هذهِ الأموال. أعرف أنَّ لديك أسئلة كثيرة، لكن لا أستطيع البقاء أكثر حتى لا أجلب الانتباه، لكني سأعاود الاتصال بك بعد أيام.

ثمَّ أخذ يدَّ **هوفسيب** فجأة وقبَّلها ونهضَ وهو يكيل المدائح والشكر والدعوات بصوتٍ عالٍ، ورحل.

عاد **هوفسيب** بعد صلاة المغرب إلى حُجرته مثقلاً برأسهِ وهو لا يدري ما يفعل.

في اليوم الثالث لوفاة السيِّد **النوّاب**، عند زوال الشمس عن غرفته، وبعدما صلى **هوفسيب** صلاة الظهر والعصر في حجرته وخرج لتناول طعام الغداء، شاهد الحارس في وسط الساحة وهو يصيح على أشخاصٍ في غرفة السيِّد **النوّاب** ويطلب منهم الإسراع بالعمل، سأله عمّا يحدث؟ فأجاب الحارس بأن السيَّد **مصطفى** طلب نقل ثياب وفراش السيَّد **النوّاب** رحمه الله، واستبدال الفرش لأن ساكنًا جديدًا سيأتي بعد العصر.

– أبهذهِ السرعة؟

فقال الحارس بلهجةٍ عراقيّة وهو ينظر برقّة إلى **هوفسيب** وهو يظنّهُ بسيطًا وساذجاً:

– "اللي يموت يخسر"

– لكن الإمام الحسين عليه السلام يقول: "**ما أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما**"

– الإمام الحسين (**فدوة أروح له**) لا يعيش معنا الآن ولا يرى كيف أصبحت عليه الأمور.

– لقد استعار منّي السيِّد **النوّاب** كتابًا من مكتبة السيِّد **مصطفى** في حجرتي، هل استطيع أن أُرجعه؟

– أذهب وخذه.

صعد **هوفسيب** إلى غرفة السيِّد **النوّاب**. الحارس أوعز أثناء ذلك إلى الأشخاص بالسماح له بدخول الغرفة. توجه من فوره نحو الرفِّ الأوسط من المكتبة وأخذ القرآن بسرعة. لاحظ أن في الغرفة رجلَين إثنين وهما لا يقومان بتبديل الفراش فقط، بل وكأنهما يبحثان عن شيءٍ مفقود.
عاد إلى غرفته ووضع الكتاب في الرفَّ الأعلى من المكتبة مع كتب الأدعية والزيارات وخرج سريعًا وتوجه نحو المطبخ.

بعد الغداء عاد إلى حجرته وفتح قرآن السيد **النوّاب** ولم يكن فيه من القرآن سوى غلافه الجلدي السميك المُذَهَّب بخطٍ فارسيٍّ من كلمتين: **(قرآن مجيد)** أمّا صفحاته فكانت صفراء فارغة وفيها تجويف كبير وعميق من الوسط يحتفظ فيه بالمال.
المبلغُ كبيرٌ ومُغري للقتل. أعاد المال إلى الكتاب وأستلَّ كتابًا كان يبدو الأحدث بين تلك الكتب النادرة التي لم تُقرأ ولم تُفتح ووضع القرآن مكانه، بعدما نفخ عليه تراب الكتاب الذي أخذه، ولمّا كان غلاف القرآن قديمًا تاه بين الكُتب.
فتح الكتاب الذي أخرجه من بين الكتب ونظَّفهُ جيدًا. نفخه ومسحه وفتحه وقلَّب أوراقه. كان الكتاب هو الصحيفة السجاديّة وهو كتاب أدعية مشهور يعود للإمام زين العابدين **علي بن الحسين،** فلم يُعده إلى المكتبة ووضعه عند مُصلاه.

قُبيل المغرب مرَّ السيِّد **مصطفى** بالمدرسة في طريقه إلى الحرم لإقامة صلاة المغرب ومعه رجلين. كان **هوفسيب** يهمُّ بالخروج للصلاة، فتلاقيا أمام باب الحجرة. طلب منه شربة ماء فعاد **هوفسيب** إلى الداخل وتبعه السيد **مصطفى** ومرافقَيه.

– نقل لي أحدهم أنَّه رآك في غرفة المرحوم السيِّد **النوّاب**؟ هل كنتَ تحتاج إلى شيء يا سيِّدنا؟

عاد **هوفسيب** بجرَّة الماء وأشار إلى كتاب الصحيفة السجاديّة:
– كان قد استعار هذا الكتاب من مكتبتك يا مولانا، ولمّا سمعتُ من الحارس بأن طالبًا جديدًا سيأتي للسكن طلبتُ الدخول إلى غرفة المرحوم واستعادة الكتاب.

انحنى السيَّد **مصطفى** على الكتاب وأخذه من الأرض وفتح الصفحة الأولى ثمَّ الثانية والثالثة وقال:
– هذا كتابٌ نادر. إنه بخط الشيخ المُحدِّث **حسين النوري الطبرسي** نفسه. ثمَّ التفتَ إلى مرافقيه وطلب منهم الخروج بإيماءة وهمس **لهوفسيب**:

– سيِّدنا أتمنى ألا تخرج هذه الكتب من هذِ الحُجرة، فليس كلّ الطلاّب لديهم حرصك.. أنا ذاهب للصلاة فهل تأتِ معي أم أن لديكَ أمورًا أخرى؟

– أنا كنتُ ذاهبًا للحرم للصلاة خلفك يا مولانا.

– هيّا بنا إذن يا سيِّدنا فوقت الصلاة يقترب.

عاد الى حجرته بعد الصلاة مباشرة. كان الحارس ما زال يجلس في مكانه عند الباب. سلّم عليه وهو يُخرج المفتاح، فقال له الحارس:

– لقد سأل عليك السيد **محمد رضا القُمّي** قبل قليل.

– السيد **محمد رضا** القاطن في الغرفة المجاورة لغرفة السيد **النوّاب**؟

– نعم.. قال بأنه يود التباحث معك في مسألةٍ فقهية.

– هل ما زال في غرفته؟

– لم يخرج اليوم.

– سأذهب إليه إذن ما دمنا أول المساء.

كان السيد **محمد رضا القُمّي** يواجه مشكلة في فهم مسألةٍ فقهية ولأن **هوفسيب** صار يشهد له الكثير من الأساتذة بالنبوغ والتفقه العالي فكان يُريد المباحثة معه.

تباحثا حول المسألة لساعتين تقريبًا، بعدها عاد **هوفسيب** لحجرته وتمدَّد على سريره وغفى وهو ينظر إلى قرآن السيد **النوّاب**.

في اليوم التالي توجه **هوفسيب** كعادته إلى درس الميرزا وفي خلوة بعد الدرس قال لمعلمه:

– لقد سمعتُ من الناس بأن السيَّد المرحوم **النوّاب** كان يأخذ مالًا من

القنصليَّة البريطانيَّة؟

– نعم هذا صحيح، قال **الميرزا** وأضاف: السيِّد **النوّاب** من عائلة ملكيّة في **الهند** حكموا دولة **عَوَض** الشيعيَّة قبل احتلال بريطانيا لها وضمها لباقي **الهند**. **البريطانيون** يسمونها **أُودة**. لقد كانت مملكة غنيّة جدًا حتى أن ملك أُودة **غازي الدين حيدر** أقرض البريطانيين مبلغ 10 ملايين روبية واشترط عليهم بقاء أصل القرض دون تسديده نهائيًّا بفوائد. هذهِ الفوائد السنويَّة وهي بمقدار (121.000) روبية، تكون وقفًا خيريًّا **لكربلاء** المقدسة **والنجف** الأشرف، يتم توزيعه على رجال الدين المجتهدين الذين يوزعونه بدورهم على الفقراء أو للأعمال الخيريّة كبناء المدارس الدينية والمساجد وشق القنوات المائية. وسُمَّيَت هذه الوديعة أو هذا القرض أو هذا الوقف **بخيريّة أُودة**. بعد ذلك أصبح ثلث تلك الخيريّة مخصَّصٌ لفقراء **الهنود** الشيعة في **كربلاء والنجف والكاظمية**. هذا الثلث كان يُسلَّم إلى السيِّد **النوّاب** لتوزيعه على فقراء بلده، وكان يوزعه كلّه دون ان يحتفظ بروبية واحدة. ولو أنَّ شخصًا غيره لأصبحَ غنيًّا في فترة وجيزة ولكان اشترى بيتًا على الأقل، لكنه آثر غرفةً صغيرة في مدرسة على أن يمدَّ يده لمال الوقف. أما المبلغ الأضخم من الخيريَّة فقد اشترت به **بريطانيا** المراجع الكبار، ورجال الدين الذين سيخلفونهم، والفتاوى، والضمائر.

المال يا سيِّدنا **المخيني** أكبر من كلِّ شيء. لا يقف شيءٌ في وجه المال إلا الإيمان بأن الله أكبر من كلَّ شيء. **وبريطانيا** تعرف ذلك جيدًا لذلك فقد سيطرت وتجبَّرت لأنها تملك المال وتملك رجال الدين الذين يتحكمون بالإيمان.

– ألم يكن يأخذ المال من البريطانيين ويسلمه للمجتهدين بمعرفته؟ سأل **هوفسيب** معلمه وهو يقارن بين كلامه وكلام الشيخ الأفغانيّ الذي التقاه في الحرم.

– لا أظنُّ ذلك، فالمرحوم رجل دين وليس رجل دُنيا، ولا علاقة له بالسياسة. ولا تنسى بأنه من الرعايا البريطانيين لأن **الهند** مستعمرة بريطانيَّة وهذا هو سبب احتكاكه الدائم بهم.

بعد ذلك بأيام وبينما كان **هوفسيب** في مسجد **السهلة** في **الكوفة** عند دكّة القضاء التي كان يجلس عندها **علي بن ابي طالب** للفصل بين المتخاصمين، جلس بجانبه الشيخ **الأفغاني**، وسأله عمّا لو استطاع الدخول إلى غرفة السيِّد **النوّاب**؟ فأجابه وهو غارقٌ في التسبيح:

– نعم، ولم أجد القرآن الذي تتحدث عنه. ربما لم يكن من الأساس.

فقال الشيخ:

– وربما أخذه أحدهم.

الفصل الخامس عشر

مرَّتْ شهورٌ تسعة، لم يستطع فيها السيد **مصطفى** الاستفادة من **هوفسيب** كما كان يخطط له. **فهوفسيب** لم يصبح من الحاشية، ولا يَعطي الدروس في المدرسة. كان السيِّد **مصطفى** قد أوكل إليه مهمة تدريس الطلاب الجدد بعض المواد الأولية في الفقه، لكنه اعتذر لانشغاله بحضور أكثر من درس مع أكثر من معلّم. ولم يكن يشارك طلاّب المدرسة الّا وقت الوَجَبات، ولا يذهب لزيارة السيِّد **الكاسنَوي** الأب الّا نادرًا، حتى مجلسه الأسبوعي في قاعة المدرسة فكان يحضره أشبه بالمُكرَه. كلُّ هذهِ الأمور جعلتْ العلاقة بين السيِّد **مصطفى وهوفسيب** متوترة، لكنَّ أكثر شيء أزعجه هو حضور **هوفسيب** درس العلاّمة **الاسترآبادي** الذي ينافس المرجع **الكاسنَوي** على زعامة الحوزة، مع أن **هوفسيب** كان يحضر كمستمعٍ للبحث الخارج فإنه بطبيعة الحال لم يكن مؤهلاً بعد لهذِ المرحلة المتقدمة من الدروس.

أصبح السيِّد **مصطفى** جافًا معه ووقحًا في بعض المواقف، ولم يكن يمنعه من طرده من المدرسة سوى خوفه من غضب القنصل **الفارسي** الذي كان له الفضل

منذ البداية في إعطاء **هوفسيب** الحجرة 33 وإقناع السيِّد **مصطفى** بالتقرب من **هوفسيب** وضمِّه إلى حزب والده الذي يملك علاقات قويَّة ومتينة مع الشاه **الفارسي** وتأكيده على أن **هوفسيب** محل ثقة لدى القنصليَّة وسيكون مستقبلاً من أهم رجال البلاط الفارسي في **النجف**.

وفي الوقت ذاته فقد توطَّدت العلاقة بين **هوفسيب** والقنصل، إذ كانا يلتقيان باستمرار ويتناولان الطعام في بيت القنصل بحضور أولاده، وحتى زوجته وبناته أحيانًا، وهذهِ حالة ليست شائعة في المجتمع **النجفي**. وإذا ما تأخر الوقت في بعض الأحيان وأخذتهما الأحاديث، فلم يكن القنصل يسمح له بالمغادرة وكان يبيت عنده.

طالما تسائل **هوفسيب** عن سبب اهتمام القنصل به؟ لكن الأخير – ومن تلقاء نفسه – كان يقول على الدوام: بأن في رقبته دينٌ للسيَّد **جودت المَخِيني** ولقد وعدهُ بالاهتمام بولده ورعايته.

قال له القنصل في إحدى الليالي التي بات فيها عنده:

– لقد عرفتُ والدك منذ الأيام الأولى لوجوده في **النجف** الأشرف، حين جاء إلى القنصليَّة ومعه أوراقٌ قديمة شبه تالفة، بل تالفة ولا تصلح لشيء، وأراد استصدار أوراقًا جديدة كي يضمن عدم تعرض **الأتراك** له ويكون محميًّا لأنه من أتباع دولة **فارس**. فمنذ اتفاق عام 1875 بين دولة **فارس** والدولة **العثمانيَّة**

ونحنُ نتمتع بالمزايا نفسها التي تتمتع بها دول **أوربا** من حصانة للقنصليات والعاملين فيها وكبار التجّار والشخصيّات أضافة إلى الإعفاء من الضرائب.
جاء والدك في وقتٍ كنا بحاجة إلى تقوية قنصليتنا في **النجف** فأصدرتُ له أوراقًا كأحد العاملين لدينا فتمتع بالحصانة، وكذلك تتمتع أنَت بها طبقًا للأوراق التي لديك، فلا يمكن لأيِّ تركي التعرض لك أو مضايقتك ولا يحق له التدخل في ميراثك وأموالك وتنقلك.

لكنَّ أصدقَ شيءٍ قاله القنصل **لهوفسيب** – ولم يكررهُ بعدها – عندما طلب منه مرافقته لبيته بعد وفاة السيد **علي خان النوّاب.**

هناك، بعد العشاء، وإحضار نارجيلتين لهما، وكانت أول مرّة يدخن فيها **هوفسيب**، ولم يكن يعلم أنها مُلغمة بالأفيون **الفارسيّ** الفاخر، ومنذ ذلك الوقت صار يطلبها كلما زار القنصل في بيته وحتى أنّه فكر بشراء نارجيلة والاحتفاظ بها في حجرته في المدرسة، لكنه وإن جرأ على التمني، فلم يجرأ على تحقيق الأمنية.
قال **هوفسيب** بعدما أحسَّ بالخدر:
– لم أكن أعلم أن تدخين النارجيلة يجلب الراحة هكذا.
فضحك القنصل كثيرًا وشَرَقَ خلال ضحكه بالدخان أكثر من مرّة وقال **لهوفسيب**:
– إنه **الترياك** – الأفيون – يا سيِّد **يوسف**. أتعلم ما تعني كلمة ترياك؟ تعني

الدواء من كلّ داء. ولقد تعمَّدتُ أن تدخنهُ الليلة كي تخفف الحمل الذي يُتعبك ويكسر ظهرك وأنت تُكابر إظهاره. أنتَ فتىً قويّ يا سيَّد **يوسف**. فتىً نادر. أنا لم أرَ مثلك، مع أنّي رأيتُ الكثير. رأيتُ كيف يصبح الشيطان ملاكًا وكيف يصبح الملاك شيطانًا وكيف يبكي الرجال بحرقة وكيف ينتقمون بدناءة. لكنك رجلٌ نادر. أنا لم أركَ تبكي قط. لم تبكِ لفقد أبيك ولا لفقد صاحبكَ الوحيد. أنا أعلم أن ليس لديك أصدقاء ولا عائلة. أيوك المرحوم كان قد حدثني، عندما أتاني لاستخراج أوراق لك، كيف أنك الناجي الوحيد من المذبحة التي حصلت لعائلتك. كيف أنكَ نجوتَ من قَطّاع الطرق الذين اغتصبوا أمّكَ وأخواتك الثلاثة وقتلوهنَّ بعد ذلك. أنا متأكدٌ أنكّ لم تبكِ حينها. لقد كتبتُ تقريرًا عنك للبلاط، ونصحوني بأن أتعهدك جيدًا لأنكَ أحد كنوز دولتنا العظيمة. نحن امبراطوريّة عظيمة يا سيِّد **يوسف**. نحنُ عِرقٌ عظيم. إن كنّا خسرنا المعركة أمام العرب الحُفاة في غفلةٍ من الزمن وفي لحظة تأريخيِّة غبيّة فلن نسمح للصدفة أن تتكرر. هذهِ الأرض لنا. مُلكنا وحدنا. **كربلاء** لنا **والنجف** وحتى **بغداد**. هذهِ الأرض لنا ولن يسلبها أحدٌ منّا. **عليٌّ** لنا **والحسين** لنا والإمامان **الكاظميَّان** لنا والإمامان **العسكريان** لنا ولن نشاركهم مع أحد. نحن من بنينا أضرحتهم ونحن من نجددها ونرمّمها ونحن من أهدينا لهم نفائس كنوزنا وحُليِّنا.

صاحبكَ لم يمت بل قُتل لأنه لعب على أكثر من طرف. والأطراف هنا كثير. **روسيا** لها رجالها. هل تظنُّ حقًا أن الطلبة **الداغستانيين** هنا من أجل طلب

العلم فقط؟ أنهم جواسيس **روس** ويتلقون دعمًا ماليّا من **روسيا** كي يعودوا إلى **داغستان** ويهدئون الشيعة هناك. هل تظنَّ أنَّ الأتراك لم يحاولوا أن يغيِّروا من عقيدة الناس كي يسلبونا حقنا في هذهِ المدينة؟ كان من المقرّر أن يأخذوا شبابًا من هنا ويرسلوهم إلى **الأزهر** في **مصر** ليعلموهم المذهب السنّي ويعودون بهم إلى أهلهم ومدنهم وقراهم ويبدأوا بتغير مذهبهم، لكن السلطان خاف من **المصريين** الذين يمثلون شوكة في حلقه، خاف منهم أن ينشروا بين الطلبة **العراقيين** الاعتراض على السلطان ويغرسوا فيهم روح الثورة، لذلك فقد فتح لهم مدارس خاصة في **الأستانة** وباللغة العربيَّة وبمرتبات عالية ودعم لا محدود. هل تظنَّ أن **بريطانيا** ليس لديها رجالها ومراجعها هنا؟ إنها تنفق خيريّة **أودة** وفوقها مثلها كي تصنع المراجع وتتحكم فيمن سيكون المرجع الأعلى. هل تظنّ أن **المانيا** لا يدَّ لها هنا؟ أنها تمول وتُنشئ قطار **برلين – بغداد** ليمتدّ من **برلين** حتى **البصرة** كي تكون مُطلّة على **الهند** درّة التاج البريطاني. القطار هذا لن يترك **لبريطانيا وفرنسا** خيارًا غير الحرب. نعم المنطقة تسير بكلِّ سرعتها إلى الحرب. وسنكون نحن المنتصر الوحيد فيها لأننا سنتفرج عليهم وهم يذبحون بعضهم البعض.

الفصل السادس عشر

في خريف تلك السنة، بلغ **هوفسيب** السابعة عشرة من عمره، لكن بحسب الأوراق الفارسيَّة التي معه فأن عمره قد أصبح عشرون عامًا. وفي يوم من أيام الآحاد، حيث يجلس **العلاّمة الاسترآبادي** لطلبته في مجلسٍ عام بعد انقضاء الدرس لسماع حوائجهم كما كانت عادته، تقدم منه **هوفسيب** وعرّف عن نفسه، فقال له **العَلاّمة** بأنه يعرفه ويعلم بأنه يحضر دروسه كمستمع منذ شهور وسأله عمّا إذا كان مُحتاجًا لأيّة خدمة. فقال له بأنَّه يتمنى أن يحصل على حجرة في مدرسته الجديدة، لأنه محتاجٌ للخلوة أكثر والمدرسة التي يسكن فيها مزدحمة على الدوام، وأنه سمع أن مدرسة **العلاّمة** الجديدة بعيدة عن مركز المدينة وملاصقة للسور من الجهة الغربية. فقال له **العلاّمة** تعال مع الشيخ ليلة الجمعة بعد صلاة المغرب، وأمر أحد الشيوخ بإحضار **هوفسيب** معه.

في اليوم التالي ذهب إلى درس استاذه **الميرزا** وأخبره بما فعل مع **العلاّمة الاسترآبادي**. أبدى **الميرزا** استياءه وقال معاتبًا:

- لما أشرتُ عليك بحضور درس **العلاّمة** فأنا كنتُ واضحًا معك يا سيِّدنا

المخيني. كنتُ أريد أن تخرق الحجاب الذي كان السيد **مصطفى الكاسنَوي** يريد وضعك فيه: أن تكون من حاشيته وأتباع أبيه. كنتُ أريد أن يعرف الناس بأنك حرّ ولا تنتمي لأحد. هذا فقط. أمّا أن تطلب السكن عند **العلاّمة** فهذا سيجعل أولاده وحاشيته يرغبون بضمِّك إليهم وستصبح تابعًا **للعلاّمة**. فماذا فعلنا يا سيِّدَنا؟ رفضنا أن نكون تابعين لشخص، وأصبحنا تابعين لشخص آخر.

سكت **هوفسيب** ولم يجب، فتابع **الميرزا**:

– لماذا لا ترضى بأن تسكن في الأماكن التي جلبتها إليك؟ لقد جلبتُ لك ثلاث حُجرٍ حتى الشهر الماضي.

– لأن الحُجر بائسة يا مولانا. إمّا أن تكون في مكانٍ آيلٍ للسقوط، وإما في مكان نتنٍ لا يدخله الهواء، وإما وسط السوق حيث الضجيج والمشاكل والفاحشة.

– أنا لا أملك مدارس كما تعرف. هذهِ الأماكن يقدمها أصحابها طلبًا للثواب مع رجاء نظرة عطفٍ يسيرةٍ تساعدهم على العيش. إضافة إلى أن هذهِ الأمكنة ستكون دافعًا لرقيّك الروحيّ والنفسيّ. فنحن شيعة أهل البيت كتبَ الله علينا الضنك في المعيشة ولا بدَّ أن نقتدي بساداتنا وأئمتنا.

– لكلِّ شخص شأنيّة يا مولانا. فهناك من لا يصلحه غير الفقر وهناك من لا يصلحه غير الغِنى. كلُّ ما أرغب فيه مكانٌ هادئ ونظيف.

– لكَ حرّية الاختيار يا سيِّدَنا. لقد حذرتك من **العلاّمة** ومن مكتبه وحاشيته كما حذرتك من قبل من السيِّد **الكاسنَوي**، لكنك عنيد يا سيِّدَنا ولا تقتنع إلا بعد التجربة.

وسط الأسبوع، مساءً، حضر السيِّد **مصطفى** إلى الحجرة 33 مع رجال دين آخرين وطلب من **هوفسيب** أن يسمح لهم بالمبيت معه لليلتين. كانوا خمسة أشخاص، وكانوا ظرفاء وطيبين، لكنه بالطبع لم يكن يشعر بالخصوصية.
في الليلة الأولى سهر يراقبهم كي لا يقتربوا من قرآن السيِّد **النوّاب**، لكنه لم يكن ليشعر بالراحة حتى غفى آخِرَهم ونهض وأخذ القرآن ووضعه تحت مخدته.
علم فيما بعد بأنهم جاؤوا من **الكاظمية** بدعوة من السيِّد **مصطفى** كي يحضروا زواجه الثالث المقرر عقده ليلة الجمعة.

ليلة الجمعة تلك، وضع **هوفسيب** القرآن تحت إبطه وتوجه إلى الصلاة خلف العلاّمة **الاسترآبادي**، وبعد فترة طويلة من انقضاء الصلاة أدخله الشيخ الموكل به على **العلاّمة** في حجرته المتواضعة الصغيرة التي يستقبل بها الضيوف.

كان **العلاّمة مشغولًا** بختم مجموعة أوراق، ومن تحت بساطه تنزُّ ورقات كبيرة من الروبيات **الهندية** مندفعة للخارج.

سلّم عليه وقبّلَ يده وأراد الجلوس بقربه، لكن الشيخ سحبه وأجلسه في الزاوية اليسرى البعيدة. وبعد لحظات رفع **العلاّمة** رأسه نحو **هوفسيب** وقال له:

– لماذا تريد الانتقال من مدرسة السيِّد **الكاسنَوي**؟ هل قطعتْ عنكم القنصليّة المساعدات؟

لم يجد **هوفسيب** ما يجيب به، فقد أصيبَ بالصدمة. لم يكن يتوقع أن يسأله العلاّمة هذا السؤال وبهذهِ النبرة، فقد قالها بطريقة تنمُّ عن تَشفِّي. لقد تعود أن يحترمه الجميع. حتى السيِّد **مصطفى** يتكلم معه بلطف وتبجيل بالرغم من معرفته أنه لا يُطيقه. أحسَّ بالذلِّ والصِغَرِ من كلام **العلاّمة**. فجلس قليلاً حائرًا، ثمَّ استأذن بالانصراف فلم يلتفت إليه **العلاّمة**، فقام الشيخ وأمسكه وأخرجه.

عاد إلى حجرته فوجد ضيوف السيِّد **مصطفى** لم يناموا بعد. وضع القرآن تحت مخدته ونام.

حضر السيِّد **مصطفى** في اليوم التالي لتوديع الضيوف بعد صلاة الظهر والعصر، بعد أن تناول الضيوف طعام الغداء. كان غداءً دسمًا تلك الجمعة. فقد أولَمَ ليلة العُرس ونهاره.

بعد أن بارك له الجميع في الحجرة **33** بضمنهم **هوفسيب**، بدأ أصحابه يمزحون معه، وهل كان فحلاً في الفراش أم لا؟

قال لهم السيِّد **مصطفى** أنه ما زال مستغربًا، حيث أن زوجته كانت متزوجة من رجلٍ ليس كبيرًا في السنّ، توفي عنها قبل فترة.. الغريب أنها ما زالت بِكر.

فقالوا من الممكن أن يكون مريضًا، فقال بأنَّه لم يكن مريضًا أبدًا وكانت صحته جيّدة، لكنني أظنه لم يكن رجلاً، لم يكن فحلاً، فضحك الجميع وتحول الموضوع إلى سباق على النكت البذيئة.

عند باب الحُجرة، حيث وقف **هوفسيب** لتوديع السيِّد وضيوفه، قال السيَّد **مصطفى** للحارس:

- لا تنسى أن تبعث إحدى النساء لتساعد زوجتي الجديدة: **فرناز**.

بعدما ذهبوا شعر **هوفسيب** بأن الوقت قد حان لمغادرته مدرسة السيِّد **الكاسنَوي**.

خلع عمامته وثيابه التي أهداها له السيَّد **مصطفى**، ولبس ثيابه القديمة التي ما زال يحتفظ بها لسببٍ لم يكن يعرفه. ربما لأنها تُذكِّرهُ بالنجاة. وتأبط قرآنه وخرج وأقفل الباب وأعطى المفتاح للحارس وأوصاه بأن يُعطيه للسيَّد وتوجه إلى بيت مُعلّمه **الميرزا**.

حكى له ما حدث مع **العلاّمة** ومع السيِّد **مصطفى**، وطلب منه أيَّ حجرةٍ لديه لأنه تعلم الدرس. فطبطب استاذه على كتفه وقال له بحنان:

– لا بأس يا سيِّدنا.. الحياة مليئة بالدروس وعلينا أن نتعلمها بمهلٍ وصبرٍ ورضا. وبالنسبة للغرفة فلدي غرفة عُرِضتْ عليَّ بالأمس ليست بعيدة من هنا في (**جبل شرفشاه**). صاحبة الدار أرملة عجوز تعيش مع ابنتها وزوجها، تأجر بيتها لطلبة العلم، وقد فَرِغَتْ فيها حجرة بعدما عاد الطالب الذي سكنها الى بلاده. سأطلب من بعض الأشخاص ترتيبها لك، وتأثيثها ببعض الضروريات.

أنتقل **هوفسيب** الى البيت الجديد في محلّة **جبل شرفشاه** بعد صلاة المغرب والعشاء من ذلك اليوم. أوصله إلى البيت أحد أتباع **الميرزا**.

البيت مكوَّنٌ من ست حُجرات طينيَّة على مساحة مستطيلة، لكنها أقرب للمربع. حُجرتين عند المدخل، وحجرتين على الطرف الأيمن ومثلهما على الطرف الأيسر. أما الطرف المقابل للمدخل فكان حائط بارتفاع الحُجر، تحته مرحاض شرقيّ صغير بابه ستارة من صوف. بجانبه مكان بحجمه تقريبًا بستارةٍ أخرى مخصصٌ للاستحمام. وخلفه في الزاوية بين حائط البيت وحائط الحمّام يوجد حوض مليء بالماء بطول ثلاثة أشبار ونصف، وعرض ثلاثة أشبار ونصف، وعمق ثلاثة أشبار ونصف. وهو ما يسمى فقهيًّا بالماء الكرّ غير القابل للنجاسة إلا لو تغير لونه أو طعمه أو رائحته، حتى لو مات فيه الوزغ أو حيوان آخر.

ويوجد سرداب في البيت، مدخله على يمين المدخل الرئيسي. سرداب عميق فيه

بئرٌ يُستخرج منه الماء ويوضع في الحوض الذي بقرب الحمَّام، أما ماء الشرب فكانوا يشترونه من السقاءين.

كانت حجرة **هوفسيب** ملاصقة لمدخل البيت من جهة اليسار. وكان أول من رحَّبَ به صديقه القديم **جودي** الذي يسكن في السرداب ويقوم بخدمة الطلاّب الآخرين، وهم يطعمونه ويتندرون عليه ويحبونه.

على ضوء فانوسٍ عتيقٍ، في حجرةٍ عتيقة، بكى **هوفسيب** في حضن صديقه كثير الأسماء.

– لقد تعبتُ يا صاحبي.. تعبتُ.. تعبت.

– أنت بالمقارنة بغيرك محظوظٌ جدًا يا خَشَبَة. الحياة مُتعبة. عملية التحوِّلِ من العدمِ إلى الوجود عمليّة مُتعِبة. عمليّة التحوّل من شجرة إلى تابوت عمليّة مُتعِبة. محاولة الفهم عمليّة مُتعبة. الراحة في العدم.

– هل عليَّ أن أموت كي أرتاح؟

– بل عليكَ تقبّل الأمر.

– الاستسلام؟

– بل التسليم.

– مَنْ أنتَ حقًّا؟

– "**من يار تو هستم**" (أنا صاحبك).

– **يار**، يا لهُ من اسمٍ جميل. سأدعوكَ **يار**. هل تمانع لو دعوتك باسم **يار**؟

– ما دام هذا الاسم يُعجبك فلا مانع عندي. بيني وبينك سمّني ما شئت، لكن أمام الناس، دعنا نتَّبع قوانينهم. هذا من أجلك، فأنا شخصٌ منغولي مجنون لا أحد يعتب عليَّ ولا يأخذ ما أقول على محمل الجِدّ.

يار باللغة الفارسيَّة ولغة أهل **السند** تعني: صاحب – من بين ما تعني – ولأن **هوفسيب** بحاجة إلى صاحب أكثر من حاجته لأي شيء آخر في هذا الوجود، فقد كان لتسميته صاحبه الذي يظهر له في كلِّ شدة باسم **يار** انتصارًا على الوحدة المهولة التي كان يعيشها.

السنة التي عاشها **هوفسيب** في هذا البيت مرَّتْ دون أن يشعر. كان يذهبُ إلى دروس **الميرزا** في الفقه والأصول والأخلاق ويعود سريعًا دون المرور بحرم الأمير حتى، ويكون **يار** قد عاد بعربته التي تجوب كلّ مكان، فيأكل معه ويسهر في السرداب يسأله عن كلِّ شيء لم يفهمه، فيشرح له بالطريقة التي يفهمها. السنةُ مرَّت وكأنها نصف يوم. كانت بحق أجمل أيام **هوفسيب** وأكثرها راحة. لم يسمع أحدٌ صوته في تلك المدّة إلا أثناء الدرس، أمّا خارج الدرس فكان لا يتكلم مع أحد. لم يستبدل ثيابه، أو يساعدها على الجَلَدِ أمام الزمن ويتناوب معها بثياب أخرى، فكانت تهترئ عليه والكلُّ كان يلاحظ ذلك ما عداه. أهداه **الميرزا** أكثر من مرّة ثيابًا زهيدة الثمن لكنها أفضل من ثيابه وكان يأخذها كي لا يُحرج أستاذه ويهديها إلى الطلبة الساكنين معه في البيت، ويعود يرتدي ثيابه ذاتها كلَّ يوم. كان لا يُريد أن يتغيَّر شيء فيه أو فيما حوله. لم يعر لما حوله أي اهتمام

وحتى القنصل **الفارسيّ** الذي كان يلح عليه بزيارته، كان يعتذر منه المرّة تلو المرّة، لكنه بالطبع كان يأخذ الطعام الذي تعدَّه له زوجة القنصل ويتشاركه مع **يار**.

وكانت مقدرته على فهم الدروس وقدرته على تحليلها وتفنيد آراء كبار العلماء بشأنها تزداد يومًا بعد يوم وتُثير العجب والحسد والريبة، حتى وصل الأمر به أن يحضر بحث **الميرزا** الخارج بصمتٍ ولا يتحدث إلا إذا طلب منه **الميرزا** ذلك لأنه أصبح أعلم من **الميرزا** نفسه.

وما أن أتمَّ السنة الثامنة عشرة من عمره حتى حصل على ثلاث إجازات اجتهاد. شهادة من **الميرزا** وشهادتين أخريين من إثنين من العلماء من أصحاب **الميرزا**، حيث دعاهم دون علم أحد وطلب منهم الاستماع إلى مداخلات **هوفسيب** أثناء درسه، فأقرّوا باجتهاده.

أكثر من كان سعيدًا **لهوفسيب** هو **الميرزا**، وربما كان سعيدًا لنفسه وصدق نبوءته، إذ أنه طالما أخبر تلامذته وأصحابه ومعارفه أن **هوفسيب** وليٌّ مؤيدٌ ومُسددٌ من قبل **صاحب العصر والزمان** وأنه يأخذ علمه منه مباشرة.

هكذا مرَّت السنة حتى تلك الليلة، حيث دخل **يار** على **هوفسيب** حُجرته وقت السحور، في العشر الأواخر من **رمضان** التي صادف الصوم فيها في حمّارة القيظ، في شهر **آب – أغسطس**، وكانت الدروس مُعطلة في الحوزة.

طلب **يار** منه أن يسترخي ولا يُصدر أيَّ صوتٍ، فإن الوقت قد حان كي يصبح

رجلاً.

كان **هوفسيب** يجلس على الأرض حينما دخل عليه **يار** ومعه كرسيّ خشبيّ وطلب منه أن يجلس عليه وأن يثق به فهو هنا لمساعدته. جلس على الكرسيّ باندهاش، قائلاً بمزاح:

– ماذا بعد يا **يار**؟

– سايرني فقط.

ثمَّ أمسك بيديه وسحبهما خلف الكرسي وربطهما بعمامته. زاد اندهاش **هوفسيب** من الأمر لكنه يثق **بيار** حقًّا، لذلك لم يقاوم وسايره حتى يعرف ما يحصل.

بعد أن تأكد من ربط يديه جيدًا، أمسك بقدمه اليسرى وربطها برجل الكرسيّ، فأراد **هوفسيب** التحرك فلم يستطع، فتغيّرت حالته، وأرتفع صوته، وقال:

– ماذا تفعل يا **يار**؟ أفلتني حالًا.

لم يجبه **يار** بشيء، وأمسك بقدمه الأخرى وربطها إلى قدم الكرسي الأمامية الأخرى. فصاح **هوفسيب**:

– أفلتني يا **يار**.. بدأتُ أخاف منك. أفلتني أرجوك.

فقال **يار**:

– سينتهي الأمر سريعًا يا خَشَبَة. لقد حان الوقت كي تختتن مثل الرجال المسلمين. لا تخف. هذا لمصلحتك.

صرخ **هوفسيب** بصوتٍ عالٍ جدًا. لقد غاب عنه حذره في أن يُفتَضح إذا ما

سمع أحدٌ صراخه وجاء إليه ورآهُ في هذهِ الحالة واكتشف بأنه غير مختون. فقال له **يار** بكلِّ هدوء:

– لا تصرخ، فلن يسمعك أحد. الليلة ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان، ليلة القدر الثانية، ليلة مقتل **عليٍّ ابن طالب**، وكلُّ الطلاب عند قبره. كما تعرف فإنهم يُحيُون هذه الليلة بالدعاء والصلاة والبكاء حتى الصباح. لا أحد في البيت سوانا، فاهدأ ودعني أُساعدك كي تكون رجلاً كاملاً.

ثمَّ أنه أشعل موقد الحجرة وأخرج من جيبه مقصًا صغيرًا ووضعه على النار، ورفع قميص **هوفسيب** وأنزل سرواله. وفي لحظةٍ مفاجئةٍ خاطفة، بخفةِ ساحر، أمسك القضيب بيد، وباليد الأخرى تناول المقصّ، وقطع الغلفة. وما أن رأى **هوفسيب** الدم حتى غاب عن الوعي.

عندما اختفى **هوفسيب** عن الأنظار، اعتقد الطلاب الذين معه أنه دخل اعتكاف العشر الأواخر من رمضان. ومع ظهوره يوم العيد صَدُق اعتقادهم باعتكافه، وكانت هذهِ الفترة كافية لأن يعود إلى المشي كما في السابق ويعتاد الأمر، فقد حدث معه نزف بسيط أكثر من مرّة أثناء نومه وتقلبه في الفراش. وخفَّ الألم تمامًا خلال هذهِ الفترة، لكن الجرح بقي فترة أطول – قرابة الشهرين – حتى تعافى نهائيًا وزال أثره.

الفصل السابع عشر

بعد قرابة الشهرين ونصف من ختان **هوفسيب** وتحديدًا في ضحى يوم **الأربعاء**، الثاني من **ذي الحجة** لسنة 1332 هجرية الموافق للحادي والعشرين من شهر **تشرين الأول - أكتوبر** لسنة 1914 ميلادية وبينما كان يجلس في "**براني**" **الميرزا** يشرب الشاي، دخل عليه شخصٌ من القنصليّة **الفارسيّة** وأوصل له رسالة من القنصل بأنّه يريده هذهِ الليلة في أمرٍ هام، ويدعوه لتناول وجبة العشاء سويًّا. وبما أن العادة تقتضي أن العشاء بعد صلاة المغرب مباشرة، لذلك فقد وصل **هوفسيب** إلى بيت القنصل قبل صلاة المغرب وصلى جماعة بالقنصل. أصرَّ في البداية أن يكون القنصل هو الإمام لأن الإمامة لصاحب البيت، لكن القنصل أبى أن يتقدم ابن رسول الله، فأُقيمت صلاة الجماعة بإمامة **هوفسيب** ومأمومية القنصل وزوجته.

بعد الصلاة، اثناء وجبة العشاء، قالت زوجة القنصل:

- لقد وجدتُ لك زوجة يا سيِّدنا **المخيني**.

كعادة **هوفسيب** بقي صامتًا لكنه توقف عن المضغ، فواصلت زوجة القنصل كلامها:

- شقةُ قمرٍ من **شيراز**، لم ترَ الشارع ولا تعلمُ ما لون باب البيت من الخارج. تجيد الطبخ والخياطة وقراءة القرآن وحياكة السجاد الحرير. أبوها أكبر تاجرٍ في **شيراز** وسيهديها بيتًا هنا في **النجف** الأشرف من أفخم البيوت.

قاطعها القنصل موجهًا كلامه إلى **هوفسيب**:

- كي تعرف كم هي ماكرة زوجتنا الجميلة، فلقد تركت أفضل ما في مواصفات الزوجة إلى الآخر.. الزوجة تكون ابنة أخيها. لكن يشهد الله أنَّ كلَّ ما قالته عن جمالها ودلالها وأدبها ودينها صحيح بل أقل من الحقيقة. وأنت يا سيِّدنا بفضل الله ومولانا صاحب الزمان، رجلٌ عالمٌ جليلٌ فاضلٌ من نسل أهل البيت. جميل المُحيَّا، بهي الطلعة ولا ينقصكَ شيء غير الزوجة التي تخدمك وتعينك على الحياة والتفرغ لطلب العلم وتعليمه، ولن تجد أفضل من هذهِ الفتاة زوجةً لك. فستكون لك أهل وستكون عائلتها لك عزوةً وجاهًا وقوةً ونفوذًا، فأبوها وأعمامها وأخوالها من رجال البلاط المرموقين.

ولمّا بقي هوفسيب صامتًا قالت زوجة القنصل موجهة كلامها إلى زوجها وهي توزع نظراتها عليهما بالتساوي:

- إن كانت هي ابنة أخي وأتمنى لها الأفضل فالسيِّد **يوسف** ابني وأتمنى له

الأفضل وأراهما مُقدريَن لبعض وما أنا إلا مجرد واسطة إلهيّة لجمعهما. فإن وافق السيِّد **يوسف** فسأقوم بخطبتها من الغد وسأتمم الزيجة ما دامت عائلة أخي في **النجف** الأشرف، فالعائلة ستعود إلى بلاد **فارس** الأسبوع القادم بعدما أتموا زيارتهم للإمام **أمير المؤمنين** عليه السلام وولده الإمام **الحسين** عليه السلام.

قال هوفسيب حينها:

– حقيقةً أنا في قمة الخجل والامتنان. خجِلٌ من أني لا أستحقُّ كلَّ هذا الكرم منكم، وممتنٌ لكلِّ هذا الكرم. ولي الشرف أن أناسبكم. لكنّي لم أفكر بموضوع الزواج لانشغالي في طلب العلم، ولقلّة ذات يدي، فأنا كما تعلمان لا أملكُ شيئًا.

قاطعه القنصل قائلاً:

– بل يا سماحة السيِّد أنت غنيٌّ بجدك وإيمانك وتقواك وعلمك. لا تحمل همَّ المال، فأبو الفتاة عليه البيت، وعليَّ تأثيثه.

فقالت الزوجة:

– وعليَّ الذهبُ وثياب العروس.

فقال القنصل:

– الأب متمكن ولا يريد مهرًا سوى نسخة من القرآن المجيد. إنَّه يريد أن يُصاهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والسيدة **فاطمة** الزهراء عليها السلام، فهل بعد ذلك شرف؟

فقال **هوفسيب**:

– على بركة الله.. لكني أريد هذه الليلة لأستخير ربّي وأشاور نفسي وسأردُّ عليكم في الغد. ولا مشيئة بعد مشيئة الله.

في الحقيقة كان **هوفسيب** يريد مشاورة **يار** في الأمر، لذلك فقد خرج من بيت القنصل ولم يقبل المبيت عنده مثل كلِّ مرّة وتحجج بأنه صاحب وِرد ولا يريد أن يثقل عليهما أكثر.

حين وصل إلى البيت لم يجد **يار** في السرداب. فسأل عليه أحد الطلاّب الذين كان متواجدًا في الحوش، فقال له:

– أنا أستغرب منك يا سيِّدنا **المخيني**، فبالرغم من أنَّكَ كنتَ مُلاصقًا **لجودي** إلا أنَّكَ آخِرُ من يعلم بالمعجزة؟

– أيُّ معجزة؟

– معجزة **جودي**، فقد تبيَّنَ أنه وليٌّ من أولياء الله، بل من الأبدال. لقد شاهد الشيخ **عبد الرحمن** والشيخ **محمد تقي** نورًا يأتي من السرداب بعد صلاة المغرب، لكنه ليس نور فانوسٍ أو نورٍ دُنيويٍّ، بل كان نورًا يُذهبُ الأبصار. فلما حاولا الدخول للسرداب لروية الأمر خرج إليهما **جودي** وقال لهما بأن الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف جاء إليه وهذا النور نوره وأخبره أنَّ أحد الأبدال قد توفي وهو يريده أن يذهب ليأخذ مكانه، ثمَّ تركهما ونزل إلى السرداب وبعد لحظة اختفى النور، فدخلا وراءه فلم يجدا شيئًا. لقد اختفى

جودي. لقد ذهب مع الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف.

- وأين الشيخان الآن؟

- ذهبا لقصِّ المعجزة على **الميرزا** وسمعهما من حظر فقام البعض بتمزيق ثيابهما وأخذِها للبركة، فنصحهما **الميرزا** بالبقاء عنده حتى تهدأ الأمور.

بقي **هوفسيب** ساهرًا تلك الليلة بانتظار **يار** حتى صلاة الفجر فلم يظهر. بعدما صلى ونام، أفاق على صوت ضجيج. كانت جموع من الناس سمعت القصة فجاءت لزيارة السرداب والتبرك به ومعها شموع وحنّاء وقاموا بتلطيخ المدخل، والدعاء والتوسل وتقبيل المكان. استمر الوضع حتى صلاة الظهر وكانت الجموع تزداد.

بعد العصر خرج **هوفسيب** للبحثِ عن **يار**. ذهبَ إلى السوق، ثمَّ توجه صوب الحرم، بعدها خرج خارج السور باتجاه المقبرة، فلم يعثر عليه وكلّما سأل عنه صاحب عربة أجابه بأنَّه لم يَرَه اليوم. ومن هناك ذهبَ إلى بيت **الميرزا** وكان البيت مليء بالناس على غير العادة. انتشرت المعجزة وجاء مجموعة من العلماء والتجار والكسبة وشيوخ القبائل ورؤساء الأحياء الأربعة لسماع المعجزة بأنفسهم من لسان الشيخينِ شخصيًّا. حاول الانفراد **بالميرزا** كي يستشيره بعرض **القنصل** وزوجته لكنه لم يستطع لكثرة الحاضرين.

عاد إلى حُجرته وقرَّرَ انتظار **يار** حتى يشاوره بالأمر قبل الردِّ على القنصل، لكنَّ **يار** لم يظهر حتى بعد يومين من اختفائه، ومع ازدياد الزوار إلى السرداب اصبحتْ الإقامة في البيت مزعجة، وهو الذي يهوى العزلة والهدوء.

في صباح يوم السبت توجه **هوفسيب** إلى بيت **الميرزا** بعد أن حسم الأمر بالموافقة، لكنه مع ذلك أعاد البحث عن **يار** في الأماكن التي من الممكن أن يتواجد بها أو يختبئ بها لكن أحدًا لم يره منذ اختفائه في السرداب.

ابتهج **الميرزا** لسماع الخبر ونصحه بالاستعجال بالأمر قبل مغادرة التاجر المدينة وذهاب الفرصة التي لن تتكرر. وكعادته أضاف للقصةِ بُعدًا غيبيًّا وتدخلاً من قبل الأئمة، وعلامات، كلها تُشير إلى أنَّ هذا الأمر مُدبرٌ من قِبل السماء لتزويجه هذهِ الفتاة بالذات.

ما أن أبلغ موافقته للقنصل في المساء، حتى دخلت الزوجة تحمل شراب الرمّان وجلست معهما وقالت **لهوفسيب**:

– لا بدَّ لك من معرفة شيءٍ بسيط أخير. الفتاة مُصابة بالبهاق الخفيف، فلمّا كانت الفتاة تقية أراد الله زيادة أجرها وأجر والديها وزوجها نتيجة هذا البلاء. وبما أنك سيِّدٌ طاهرٌ وورع فمؤكد أن الله سيستجيب لك لو دعوته أن يزيح هذا الابتلاء عنها. فأنتم أهل البيت أكرم على الله من النبي **عيسى** عليه السلام حيث كان يشفي الأعمى والأبرص بإذن الله. وهناك مسألة أخرى بسيطة بالنسبة

لعمرها فهي تبلغ الرابعة والعشرين لكنك حينما تنظر إلى وجهها فلن تلمح فتاة أكبر من عامها الرابع عشر.

هذا ما أردتُ لك معرفته، فالأمانة والدين يُحتمان علينا إخبارك، فلا البهاق بيِّن ولا العُمر بيِّن.. إنها بعمر الرابعة عشرة عامًا حقًّا، والبهاق خفيف ولن تراه أو تشعر به، ولم يؤثر على جمالها.

فقال **هوفسيب**:

– إن شاء الله ستجد عندي ما يرضيها ويُرضي الله.

فقال القنصل:

– ما رأيك أن نجعل الزواج يوم عيد الأضحى؟ إنَّها مناسبة عظيمة وستصادف يوم الخميس هذا.

فقالت الزوجة:

– نعم، اقتراح جيّد ولا تخف يا سيِّد **يوسف** فكلُّ شيء مُعد ولقد أخذتُ موافقة البنت ووالديها فلقد كنتُ أعلم أنك ستوافق. لستَ الوحيد من يعلم الغيب يا سيِّدنا. أما بالنسبة للبيت فمؤقتًا ستتزوجان في الدور الثاني من بيتنا، فبيتنا كبير ريثما تشتريان أفضل بيت في المدينة.

وهكذا كان، ففي يوم الخميس العاشر من ذي الحجة الموافق للتاسع والعشرين من شهر تشرين الأول تزوج **هوفسيب**.

كان بيت القنصل مليء بأهل العروسة ليلة الجمعة، ليلة عقد القِران، وبما انَّ **هوفسيب** وحيدٌ فقد حضر معه معلمه **الميرزا** بصحبة أحد طلابه الشيوخ المقربين.

حضور **الميرزا** كان حدثًا غير عادي، إذ أنه لم يذهب من قبل لأي زفاف. كان طلبتُه ومريدوه يذهبون إليه في بيته ليعقد لهم، ولم يكن يعقد إلا لخُلَّصِ اتباعه.

بعد أن عَقَدَ القِران طلب **الميرزا** من تلميذِهِ أن يذكر مصيبة الإمام **الحسين** في حادثة **كربلاء** من أجل البركة والفأل الحسن.

رثى الشيخ الإمام **الحسين** بأبيات شعرٍ عربيَّة وفارسيَّة بالفصحى والعامية، صاحَبَ قراءته بكاء ونحيب الحاضرين مع لطمٍ خفيف على الفخذ.

بعد أن أتمَّ الشيخ القراءة، زفَّ الحضور **هوفسيب** إلى عروسه بالصلاة على محمد وآل محمد. كانت زوجة القنصل قد أعدتْ لهما غرفة كبيرة في الدور الثاني مُطلة على باحة البيت.

دخل **هوفسيب** إلى الغرفة وكانت عروسه تجلس على السرير، فلما رأته قامت وتوجهت نحوه وانحنت على يدِّهِ وقبَّلتها، ثمَّ امسكتّ بها وقادته وأجلسته على السرير، وجلبتْ من حمّام الغرفة صينية من نحاس – عليها طشت وإبريق نحاسيين مطرزين بالنقوش – ووضعتها تحت قدميه، فقال لها:

– أنا على وضوء، فماذا عنكِ؟

– أنا أيضًا على وضوء.

فقام وأجلسها مكانه، ونزع خُفَيْها، وغسل قدميها، ثمَّ أوقفها ووَجَهَها نحو القِبلة ووضع يده على ناصيتها وقال:

"اللهمَّ بأمانتك أخذتها، وبكلماتك استحللتها، فإن قضيتَ لي منها ولدًا، فاجعلهُ مباركًا تقيًّا من شيعة آل **محمد**، ولا تجعل للشيطان فيه شركًا ولا نصيبًا"

ثمَّ طلبَ منها أن تُصلي ركعتين قُربةً إلى الله، وصلى هو أيضًا ركعتين قال في ختامهما:

"اللهم ارزقني إلفها وودها ورضاها بي وأرضني بها واجمع بيننا بأحسن اجتماع وأيسر ائتلاف فإنك تحب الحلال وتكره الحرام"

ثمَّ أطفأ الفوانيس والشموع وترك فانوسًا واحدًا، وقام بخلع ملابسه فجاءت إليه بقميصٍ رقيقٍ يصل إلى ركبتيه وساعدته في ارتداءه، فطلب منها أن تخلع ملابسها فاستحيَت وتمنَّعَت فقام بخلع ثيابها عنها برفق، بيدين مرتجفتين، فاستسلمت له حتى انتهى من ثيابها ولم يتبقَّ غير الثياب التي تغطي الأماكن الحساسّة، فابتعدتْ عنه وذهبتْ إلى الخِزانة كي تحضر قميص نومها الحريريّ المطرَّزِ بخيوط الذهب.

كانت تشبه **الفهد** بكلِّ شيء، بجسدها الممشوق وبصدرها الواسع وبخصرها النحيل والبقع المنتشرة على جسمها كلّه ما عدا بطنها الناصعة البياض كأنها لبنٌ بارد سميك.

لقد كذبتْ زوجة القنصل، **وهوفسيب** كان يعلم ذلك. عرف ذلك حينما أخبرته بأمر البُهاق. عرِفَ أن الأب يشتري عريسًا لابنتهِ بماله، لكنه يعرف أيضًا أنَّهُ الرابح الأكبر من هذهِ الصفقة وأنَّهُ الطرف المسيطر والقوي والمتفضِّل، وليس مجرد رجلٍ ضعيفٍ يمكن المنُّ عليه في المستقبل، بل هو الذي **مَنَّ** على هذهِ العائلة الغنيَّة بقبول الزواج من ابنتهم. فبالإضافة إلى كون البُهاق مُنفر ويؤثر على الاستمتاع الكامل بجسد العروسة، وسيكون الزوج دائم الهَم والخوف من انتقاله إلى ذريَّته، فإن المجتمع يعدهُ من أعمال السحر والبلاء العظيم من قبل الله الذي يبتلي به الشخص نتيجةً لسوءِ سريرتهِ وشروره. لذلك كلّه فإنَّ فرصة العائلة بتزويج ابنتهم تكاد تكون معدومة، هذا غير عمرها الكبير على الزواج. كلُّ تلك الأفكار كانت تراوده وهو يحاول مضاجعتها، مما أثّرَ على أداءه وأمات ذَكَرَه. فمهما حاول، فإنه لم يستطع الدخول بها، بالرغم من كلِّ الإغراءات التي صنعتها، فكما يبدو فقد تمَّ تدريبها جيدًا. حتى اقترب موعد أذان الفجر فقالت:

– حسبما سمعتُ من أمّي وخالاتي وأخواتي فإن هذا الأمر يحدث كثيرًا. لكن علينا أن نفكر بطريقة للتكتم على هذا الأمر. صلاة الفجر تقترب وأمي بانتظار النتيجة، وقد اعطتني هذا المنديل الأبيض ووضعته تحت المخدة كي أمسح به الدمَّ بعد إتمام العملية.

– ما رأيكِ لو أخبرناهم بأنكِ حائض وعلينا انتظار انتهاء دورتكِ الشهريّة؟

– أمي تعرف دقيقًا موعد دورتي الشهرية، ولقد حسبتها أكثر من مرّة للتأكد بأن كلَّ شيء على ما يرام ولديَّ أكثر من أسبوعين لموعد الدورة القادمة.

لاحظ **هوفسيب** بأن زوجته ورغم صغر سنِّها، إلّا أنّها تتمتع بعقلٍ راجح ومنطق سليم وفصيح، فقال لها:

– ماذا تقترحين إذن؟

– أقترح أن نُسكِتْ الجميع في الخارج وللأبد. ثمَّ نأخذ وقتنا بعد ذلك دون ضغوط.

– وكيف نفعل ذلك؟

– أن تأخذ هذا المنديل وتضع عليه قطرات من دمك. جرحٌ بسيط من فخذك أو أيِّ مكان آخر، وننتهي من هذا الأمر بكلِّ بساطة.

– فكرة جيِّدة..

قال **هوفسيب** ذلك، ومدَّ يده نحو الطاولة القريبة من السرير حيث وُضِعَ أطباق أكلٍ للعروسيَن، وأنواع مختلفة من الفاكهة والحلويات، وسكاكين ومعالق وأطباق فارغة، وأخذ سكين فاكهة صغيرة وحاول جرح نفسه، لكنه لم يستطع بعد عدَّة محاولات. لقد تعرَّقَ وارتجفَ وشعر بالإعياء، ولولا أن زوجته أخذتْ من يدهِ السكين، لكان أُغمي عليه.

وبسرعة خاطفة جَرَحتْ فخذها، بالقرب من ركبتها، ولطَّختْ المنديل بدمها، وقالت لزوجها:

- قُم واغتسل لتصلي بالناس صلاة الصُبح.

الفصل الثامن عشر

بعد الزواج بأسبوعين قرَّرَ السيّد **إسباهبودان** والد **شبنم** زوجه **هوفسيب** ترك **النجف** والعودة إلى بلاد **فارس**. كانت أخبار الحرب العالمية تتوالى. ففي يوم 6 تشرين الثاني – نوفمبر، نزلتْ القوات **البريطانيَّة الهنديَّة** المحتشدة في **البحرين** في مصب شط العرب في **البصرة** واستولت على قلعة **الفاو**، وكان الهدف من الحملة حماية امدادات النفط للشركة الإنجلو–فارسية في الخليج، وبما أن السيَّد **إسباهبودان** لديه أموال منقولة وغير منقولة ومصالح في المنطقة بين **الإنجليز والفرس** وشيخ **المحمَّرة** وحتى مع **العثمانيين والألمان** فقد قرَّرَ الذهاب إلى **عبادان** والبقاء بالقرب، وأرسل زوجته وباقي أفراد العائلة إلى **شيراز**.

ترك **إسباهبودان** مبلغًا من المال لشراء بيت الزوجية لابنته. لقد حدَّد بالفعل البيت الذي سيشتريه من بين ثلاثة بيوت وقع عليهم الاختيار، لكن لا بدَّ له من الرحيل الآن قبل إتمام الصفقة، فطلب من القنصل اتمامها، وطلب من اخته أن تعتني بأبنته وزوجها، وذهب.

كان موقف بلاد **فارس** الرسمي هو الحياد في الحرب، لكن شيخ **المحمَّرة** متعاون مع **الإنجليز** ويطمع في الاستقلال، مثله مثل باقي مشايخ المنطقة كـ ابن **سعود** الذي مدَّ سيطرته إلى البحر، وشيوخ الساحل المهادن – **الإمارات** – وسلطان **عُمان**، وجزيرة **البحرين**، وحاكم **الكويت** الخائف من التحرشات العثمانية المتتالية. وهذا شيء جيّد بالنسبة للتاجر **إسباهبودان** لأنه سيكون في حماية شيخٍ قويّ، بالرغم من أن القنصل والدولة **الفارسيَّة** غير راضين عن تصرف شيخ **المحمرّة** ويتمنون السيطرة التامّة على المنطقة، خصوصًا بعد أن تمَّ اكتشاف أول حقل نفط في الشرق الأوسط في مدينة مسجد **سليمان**.

في نهاية الأسبوع الرابع لزواجه انتقل **هوفسيب** الى بيته. شعر بالانتصار. لديه أخيرًا بيت من أفضل بيوت المدينة. أثثتهُ السيدة **رها**، زوجة القنصل، بما يتناسب مع عائلتها النبيلة التي تعود أصولها إلى إحدى القبائل **البارثيَّة** السبع للإمبراطورية **الساسانيَّة**. كما تزعم عائلتها بأنهم ينحدرون من السلالة **الأخمينيَّة**، من سلالة **الكيانيون** من نسل **إسفنديار** الذي كان ابن **جوشتاسب** أحد أتباع **زرادشت** الأوائل، لكنها سمحت **لهوفسيب** بأن يُبقي على حجرتين من غير أثاث: الأولى القريبة من المدخل –حجرة البراني – كبيرة ومستطيلة تستقبل الجميع، والحجرة الثانية صغيرة ومربعة للقاءات الخاصة. تركتهما دون تأثيث حسب طلبه، بحالتيهما البسيطة من حيطان مكشوفة وسجادة قديمة على الأرض، يستقبل فيهما طلاّب العلم والمُستفتين ودافعي الخُمس.

أما باقي البيت فقد كان قصرًا فخمًا بإثاث ومقتنيات فارسيَّة وتركيَّة وبالطبع هناك بابٌ خلفي للبيت من زقاق ضيّق لا أبواب فيه لأحد، داخل في مُلكية البيت. ولم تسمح السيدة **رها** لهما بالانتقال إلى المنزل الجديد، إلا بعد أن أصبح جاهزًا من كلَّ شيء، حتى من الخدم.

في ليلتهما الأولى في البيت، أمَرَتْ السيِّدة **شبنم** خادمتها أن تنصرف مُبكرًا قبل صلاة المغرب. وطلبتْ منها أن تقول لزوجها الذي أصبح ساقي الشاي في برَّاني السيَّد **يوسف المَخيني**، وهو بالطبع يقوم بأعمال أخرى في باقي الأوقات.
طلبتْ منها أن تطلب من زوجها الانصراف بعد صلاة المغرب مباشرة.

ارتدتْ **شبنم** قميصًا أسودَ طويلاً وضيِّقًا وأبقتْ على ضوء شمعةٍ واحدةٍ خافتة الإضاءة، وكانت تتعطر كلّ فترة بانتظار **هوفسيب**.
دخل وهو لا يكاد يرى شيئًا فطلب منها اشعال فانوسٍ آخر، فقالت له اتبعِ العطر. وهكذا فعل حتى وجد نفسه جالسًا بجانبها على الأريكة الكبيرة الوفيرة بجانب الحائط المقابل للسرير.
قالت له:

-سنفعلها هنا.

- ألمْ تيأسي بعد؟

- أريدك أن تفعلها بشكلٍ مختلف هذه الليلة. أريدكَ أن تفكر بامرأة أخرى وأنت تجامعني. أريدك أن تفكر إنني هي.

– ماذا تقولين؟

– بعدما فشلنا أكثر من مرّة، لجأتُ لعمتي **رها**، فهي سيِّدةٌ كبيرة وعاقلة ونحن ما زلنا صغارًا.. صدقني هذه أول وآخر مرّة سألجأ لأحد لمساعدتنا. وقد نصحتني بأن أطلب منك ذلك. فهي تعتقد بأن هناك حاجز بينك وبين منظر جسمي وهذا شيء طبيعي حتى تعتاد عليه. فأرجوك أن تفعل ذلك. أتوسل إليك أن تفعل ذلك.

– سأثبت لكِ بأن السيِّدة **رها** مخطئة..

قال لها ذلك وهو يشعر بالمرارة والخجل والعجز. خلع ثيابه وجَذَبَ **شبنم** بقوّة وجعلها تحته وكشف عجيزتها، لكنه ما أن رأى البُهاق حتى عافت نفسه وبَرَدَ ذَكَره. وفي محاولة أخيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وقبل أن تشعر **شبنم** بنعاس قضيبه، تذكر المرأة الوحيدة التي يعرفها، المرأة الوحيدة التي كانت تجعله بكلِّه ينتصب.. تجعل من قضيبه طوال الليل يقف مثل حارس قلعةٍ مُعرضة للاحتلال، وهكذا فقد ناك **هوفسيب فرناز** وهو ينيك **شبنم** ويفتضُّ بكارتها، فكانت سعادته مزدوجة، لكنها بالطبع أقل من سعادة **شبنم** والسيِّدة **رها** بكثير.

الأخبار كانت تصل إلى القنصل أولًا بأول وكان يُطلع عليها **هوفسيب** في جلساتهم المسائية لتدخين الأفيون. من تلك الأخبار مثلاً أن **البريطانيين** احتلوا **البصرة** ورفعوا العلم **البريطاني** على مبنى القشلة يوم 22 تشرين الثاني – نوفمبر وهم الآن في شمال **البصرة** المحاذية **للعمارة**. وقد أصدر السير **بيرسي كوكس**

بيانًا يقول فيه بأن القوات **البريطانيَّة** جاءت لتحرير **العرب** من **الأتراك** ولن تتعرض لهم وستحميهم ما داموا سيقفون على الحياد ولا يساعدون أو يأوون الجنود **الاتراك**.

كانت الأوضاع في **النجف** تسير بوتيرتها المعهودة حتى يوم 9 كانون الأول ديسمبر، يوم احتلال **الإنجليز للقرنة** شمال **البصرة** وهي جنة عدن في التراث التوراتي حيث منطقة التقاء نهر دجلة بنهر الفرات.
بعد هذا الانهيار السريع في الجبهة **العثمانيَّة** وصل من **بغداد والكاظميَّة وسامراء وكربلاء** رجال دين مجتهدين يطالبون بإعلان الجهاد المقدس ضد العدو الصليبي الكافر. فقد عادت **تركيا** لتذكير رعاياها بأنها الممثلة الوحيدة للإسلام وان هذهِ الحرب هي حرب على الإسلام، لذلك فلا بدَّ من كلِّ رجلٍ قادر على حمل السلاح أن يشارك بهذهِ الحرب المقدسّة.

وفي حمّى الفتاوى الدينيّة هذه قام حاكم **الكويت** بإزالة الهلال والنجمة **التركيَّة** من علم **الكويت** الأحمر وكتابة اسم **الكويت** باللغة **العربيَّة** على العلم كدليل على انه قد خلع الحكم **العثماني**.

أمّا العشائر في **البصرة والمحمَّرة** فلم تكن منضبطة وعاقلة وعارفة بمصلحتها مثل موقف حاكم **الكويت،** بل كان كلَّ ما يشغلهم هو النهب. إنَّهم يريدون

حربًا ينهبون بها، فهم أول من نَهَبَ القشلة ومقار حكومة الولاية **والعشار** بعد انسحاب **الأتراك** منها صوب **القرنة**.

وحينما كتبوا للمرجعية في **النجف** يطالبونهم بفتوى للجهاد ضد **البريطانيين**، لم يكن وازعهم وطني ولا حتى ديني، كانوا يريدون مسوَّغًا شرعيًّا للنهب.

لقد أرسل أهل **البصرة** هذهِ الرسالة ووصلت إلى كلّ المدن المقدسة:

"ثغر البصرة، الكفار محيطون به، الجميع تحت السلاح. نخشى على باقي بلاد الإسلام. ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع"

وعلى الفور وُزِّعت البرقية في المساجد والأسواق والشوارع والاجتماعات. وأرسلتْ الحكومة العثمانية وفدًا رفيع المستوى من بغداد إلى مدينة النجف. وقد استجاب الفقهاء وأصدروا فتاوى جهاد ضد الكفار وبدأوا بجمع المال والرجال وأرسال رجال دين بارزين إلى قبائل دجلة والفرات لتبليغهم بفتاوى العلماء واستنهاضهم للحرب.

التوجه العام كان مع الدولة **العثمانيَّة** خصوصًا بالنسبة للمراجع الكبار وعلى رأسهم السيِّد **الكاسنَوي** الذي منح ابنه **مصطفى** السلطة الكاملة لجمع الرجال وقيادتهم بنفسه والتوجه بهم إلى الحرب، بينما وقف بعض الأقليّة القليلة من

رجال الدين موقف الحياد، فلم يناصروا **العثمانيِّين** ولم يعادوا **البريطانيِّين** وكان منهم **الميرزا** وبالطبع تلميذه النجيب **هوفسيب**.

في ليلة الجمعة التي سبقت مغادرة السيد **مصطفى الكاسنَوي** إلى **العمارة** في اليوم التالي لقيادة العشائر التي تجمعتْ هناك والذهاب بهم إلى مقاتلة **البريطانيِّين**. وبعد صلاة المغرب والعشاء قام خطيبًا وذكَّر الناس بفتوى والده وفتاوى رجال الدين القادمين من **الكاظميَّة**، ثمَّ قطع خطابه فجأة وهو يرى **هوفسيب** يغادر المكان فقد أتى للزيارة كعادته، فرفع صوته وناداه بشكلٍ شخصي:

– يا سيد **يوسف**.. يا سيد **يوسف المخيني**.. ألم تشبع بعد من فلوس **الإنجليز**؟ ألم تسمع بفتوى السيد الوالد بـ "**وجوب مشاركة الحكومة العثمانيَّة المسلمة في دفع الكفار عن بلاد الإسلام**"؟

ألمْ تسمع بالحكم الذي أصدره الشيخ **مهدي الخالصي** في **الكاظمية**، فضلاً عن فتوى الجهاد.. "**الحكم الذي يوجب فيه على المسلمين صرف جميع أموالهم في الجهاد حتى تزول غائلة الكفار، ومن امتنع عن بذل ماله أوجب أخذه كرهًا**"؟

لولا أني ذاهبٌ غدًا للجهاد لانتزعتُ منك كلَّ روبية أخذتها من **الإنجليز**، لكن سأعود بعد النصر على الكفار وحينها سيكون لكِّل منّا مقامٌ ومقال.

فقال **هوفسيب** بنبرةٍ هادئةٍ وكأنه يمتلك كلَّ سكينة العالم:

– قتال البريطانيِّين سيعرضنا إلى التهلكة، فهذا جهاد سياسيّ تركيّ ولا علاقة له بالغيرة على الإسلام. ثمَّ متى كان **الأتراك** يعتبروننا مسلمين؟

هل تعترف الحكومة **العثمانيَّة** المسلمة التي تريد الدفاع عنها بالمذهب **الجعفري**؟ أليس أنها لا تعترف بمذهبنا كأحد المذاهب الإسلاميّة الشرعيَّة وهذا جعلنا كفّارًا في هذهِ الدولة، فحتى الديانات الأخرى كالنصرانيّة واليهوديَّة لها حقوق ما عدا الشيعة.

ألمْ تتعرض الشيعة طوال الحكم **العثماني** كلّه إلى الاضطهاد، وحرمانهم من أموال الأوقاف، وعدم شمولهم بالمنح السلطانيَّة والإقطاعيات؟

أنا لستُ مع **الإنجليز**، ولم أقبض منهم روبيّة واحدة، ولا أدعو إلى نصرتهم، وموقفي ليس سياسي بل موقفي فقهيٌّ بحت، لكن لو خيَّرتني بين **الإنجليز والأتراك**، فسأكون حتمًا مع قاعدة السيد ابن طاووس التي تقول:

"أنَّ الحاكم الكافر العادل أفضل من الحاكم المسلم الجائر"

هذه ليست حربك يا سيِّد **مصطفى**، فلا تنشغل بها. دعهم يحترقون بحربهم. الحربُ في بدايتها وستمتدّ نيرانها وتُحرق الجميع. أولئك الذين لا يدخلون الحرب هم الوحيدون الذين سيخرجون منتصرين. دع الكافرين يقاتلون الكافرين ويخرجنا من بينهم سالمين غانمين.

ثِق يا سيِّد **مصطفى** وبيننا الأيام، لو انتصر **الأتراك** على **الإنجليز**، فسيُسكرهم

النصر الذي انتظروه طويلاً، وأول شيء سيفعلونه: سيقتلون كلَّ الشيعة الذين تحت سيطرتهم، كي يتخلصوا إلى الأبد من الشوكة التي كانت توجعهم على مدار قرون حكمهم الطويل الظالم.

بعد ذلك بأيام.. في الأيام الأولى من سنة 1915، أرسل **الميرزا لهوفسيب** بأنَّه ينوي الذهاب إلى **كربلاء** والبقاء هناك حتى تنتهي هذهِ الفتنة وينصحه بالذهاب معه، وبعد مشاورته لزوجته والقنصل، اقترحا عليه أن يسمع كلام معلمه ويبتعد هذه الفترة عن **النجف**، وهكذا كان.

الفصل التاسع عشر

نزل **هوفسيب** وزوجته ضيوفًا على **الميرزا** في **كربلاء** في بيته المستأجر بالقرب من ضريح **العباس** بن **علي**. لا يفصل البيت عن المرقد غير شارعٍ ضيّق. بعد أكثر من شهر من السكن في غرفة ضيقة أشتكى لمعلمه بأن زوجته غير معتادة على هذهِ المعيشة ولذلك فقد وهبتهُ مبلغًا كبيرًا من مالٍ تركه لها أبوها وطلبتْ منه شراء بيتٍ.

نصحه **الميرزا** بشراء أرضٍ قرب مقام الإمام **جعفر الصادق** على نهر **السليماني** حيث الجو هناك هادئ وسط غابات النخيل والرمان والبرتقال والمشمش والعنب والكمثرى. كما إنّه كشف له عن أنه منذ زمن يفكر في إقامة مدرسة هناك لكن لم يكن لديه ما يعينه على ذلك. وأضاف:

– وجودك هناك سيجعل من مقام الإمام **الصادق** مُصلى لك ومكانًا تُلقي فيه دروسك بعيدًا عن الحسد والرياء هنا في صحن الإمام **الحسين** أو صحن الإمام **العباس**.

رجع **هوفسيب** لحجرته وقال **لشبنم**:

- لقد حان الوقت لاستخدام القرآن الذي طلبتُ منكِ إخفاءه.

- أنا حامل يا سيِّد **يوسف**.

استقبل الخبر بلا مشاعر، فقال مباشرة بعد سماعه نبأ حملها:

- إن كان صبيًّا فسنسميه **عباس** لأننا رُزقنا بهِ في جواره.. هاتِ القرآن.

كانت أرضًا كبيرة بفلاحٍ مع زوجة وثلاث بنات وبيتٍ كبيرٍ من الآجر. كان لأحد الأعيان الذي قرَّرَ بيعه والانتقال إلى **قُم**، لذلك فقد اشتراه بأثاثه الجيّد الكثير.

منذ فجر اليوم التالي لسكنه وتوجهه لصلاة الصبح في مقام الإمام **الصادق** فقد أصبح إمام الجماعة هناك. قدمه للإمامة الشيخ الأفغاني الذي قابله في **كربلاء** من قَبل.

الشيخ كان يصلي في الناس بالعادة، لكنه لم يكن ملتزمًا يوميًّا. كان يئمهم عندما يتواجد، وإلا فأن هناك رجلاً بسيطًا، متوسط العمر، يئم الفلاحين والسكان القلائل هناك، ولم يكن طالبًا للعلم، بل مجرد فلاّح مثلهم، لكنه أكثرهم سماحة وجه. قدّم الشيخ الأفغاني **هوفسيب** احترامًا لعلمه ونسبه وأصرَّ على ذلك بقوله: إنه يخجل من رسول الله أن يتقدم على ولده.

طلب الشيخ من **هوفسيب** قبول دعوته على الغداء هو وأهل بيته وأخبره بأنه يسكن في البستان المجاور له وقال بأنه سيبعث له بسائسه مع عربة بحصان كي تحضره، ولم يترك **لهوفسيب** خيار الرفض أو التأجيل.

أنزل السائس **شبنم** أولًا عند باب النساء في الجهة الجانبية للبيت، ثمَّ أنزل **هوفسيب** عند عريشة العنب أمام المدخل الرئيسي للمنزل حيث كان الشيخ بانتظاره، وفكَّ الحصان عن العربة وأخذه إلى الإسطبل.

- أحسنتَ الاختيار بشرائك هذا البيت يا مولانا.
- زوجتي اشترته في الحقيقة من مالها الخاص، وأنا مجرد وسيط.
- حسنًا فعلتْ.. هذا المكان أفضل الأماكن في **كربلاء**، لمن يحبُّ الهدوء والهواء والروحانية وراحة البال. هل تعلم بأنه المكان الوحيد الذي لم يدخله **عبد العزيز بن محمد آل سعود** حين هجم على **كربلاء** وقتل خمسة آلاف من سكانها؟
- كيف كان ذلك؟
- كانت مذبحة عظيمة، وغنيمة عظيمة أيضًا، فقد سرقوا كلَّ شيء تجمع داخل الضريح لقرون طويلة من ذهبٍ وأحجارٍ كريمة وفُرش حريريّة وسيوف مذهبة وأسلحة فضيَّة ومصاحف مكتوبة بماء الذهب ومجلدة بجلود نادرة مزخرفة بالذهب والأحجار الكريمة لم يُشاهد مثلها لأنها نفيسة جدًا. هدايا لا تُقدر بثمن من ملوك **الهند والأفغان وفارس**، هذا غير التجار والنبلاء من جميع البلاد

الذين يهدون أندر وأجود مقتنياتهم. هذهِ الكنوز والنفائس بقيت محفوظة لم يفكر أحد بلمسها، حتى **تيمورلنك** صفح عن هذه الكنوز ولم يأخذها.

كما إن **نادر شاه** قد جلب إلى الإمام **الحسين** قسما كبيرًا من الغنائم العظيمة التي غنمها من حملته على **الهند**، كما جلب معها ثروته الشخصية كلّها وأهداها إلى الأمام **الحسين**.. فتخيَّل حجم المسروقات التي يُقال إنهم نقلوها على أربعة آلاف ناقة. وتركو المرقد مليء بدماء الناس وقذارة خيولهم وجِمالهم حتى انتشرت الأوبئة وقتلت الكثيرين بعد تلك الحادثة.

ثمَّ سكت قليلاً منتظرًا ربما أيَّ كلمةٍ من **هوفسيب** غير ملامح المرارة والحنق التي بدت على وجهه، لكنه أكمل قائلاً وبنبرة حكيم لا يلتفت لحكمته أحد:

– لقد شارك **الأتراك** في هذهِ المذبحة، وهناك من يقول بأنهم كانوا على علم بها وهم من أعطاهم الوقت والخطط للهجوم، وإلا فبماذا تفسر هروب حاكم **كربلاء** آنذاك: **عمر آغا** إلى هنا حيث بيتك الآن هو وجيشه وحرسه ولم يدافع عن الأهالي. **الأتراك** لم يحركوا ساكنًا وكأن هذهِ الأرض ليست لهم.. بل أنهم يعرفون أن الأرض ليست لهم وأن الناس هنا ليسوا مواطنين بل كفّارًا مشركين وعبيد متمردين، لكن ذاكرة الشيعة ضعيفة، فها هم اليوم يفتون بوجوب مقاتلة **الإنجليز** الذين لم يروا منهم إلا خيرًا ونسوا ظلم **العثمانيِّين** ودناءتهم وخيانتهم.

- **الإنجليز** ليسوا أفضل من **العثمانيِّين**. إنهم محتلون أيضًا وقد جاءوا الى هنا طمعًا بخيرات هذه الأرض، وكي ينجحوا بذلك فأنهم يحاولون اخراج الناس عن دينهم ونشر النصرانيّة. فالموقف يتطلب منّا أن نكون على الحياد ولا نكون عبيدًا لأحد. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.. **حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ.**

- يا مولانا وما فائدة الخيرات والناس تموت جوعًا. أنا من مملكة **أودة** وأقسم لك بالله أن الشعب لم يعرف الشبع إلا بعدما ضمَّت **بريطانيا** مملكتنا إلى مستعمراتها في **الهند**. الكلُّ كان يقول بأن مملكة **أودة** هي أغنى مملكة في العالم، لكنا كنّا ننام جياعًا وعُراة وبأبدانٍ ذابلة من المرض ومن اليأس. ملوكنا كانوا يأكلون الموز في أطباقٍ من الذهب ونساؤهم يرتدين الذهب على أجسادٍ عارية فيغطيها. كان الذهب عندهم أوفر من الخبز عندنا.
كلُّ ما أريد قوله هو أنها فرصة للخلاص من **الأتراك** الذين لا يفعلون شيئًا للناس هنا غير جباية الضرائب المتزايدة، وزيادة أعداد الخوازيق.
فرصة كي نودع الفقر والجهل والغارات والاحتقار والنظرة الدونية لكلِّ ما هو غير تركي. فرصة لعهد جديد.

- يا شيخنا هذا خروجٌ على تكليفنا الشرعي بانتظار الإمام **المنتظر** عجل الله تعالى فرجه الشريف الذي سيملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعدما مُلئتْ ظلمًا وجورًا. وأعوذ بالله من ذلك، فأنت تعلم جيدًا بأن تكليفنا الشرعي هو انتظار الفرج والدعاء بتعجيل الفرج وأن نوطن أنفسنا على القهر والمرض والظلم

والصبر على المصائب لأن الدخول في زمرة شيعة **عليٍّ** له ثمن باهض جدًا والسعيد من يتحمل ذلك الثمن.

في طريق العودة إلى بيتهم قالت **شبنم لهوفسيب**:

– لقد اعجبتني زوجة الشيخ. **هنديَّةٌ** من أُمٍّ **انجليزيّة**. ورثتْ عن أمها زرقة عينيها ومن أبيها سمارها. أنها جميلة من طراز رفيع. مضيافة ورقيقة وثرثارة جدًا. أنها طبيبة. هل يمكنك تصوّر ذلك؟ امرأة طبيبة؟ لا أعلم كيف يكون ذلك.

ولمّا لاحظت أنها مدحتها أكثر مما ينبغي، قالت:

– هي أكبر من زوجها بكثير حتى تبدو وكأنها أمه.

– فهمتُ الآن سبب دفاع الشيخ عن **الإنجليز**. لا يبدو أننا سنلتقي بهم مجدَدًا. علينا الحذر يا **شبنم**.

– بالعكس يا سيِّد **يوسف**.. علينا توطيد علاقتنا بهم، فمعرفة هؤلاء الناس مغنم. نحن غرباء في هذا البلد، وهؤلاء لديهم علاقات كثيرة ومهمّة.

– أكثر من علاقات أبيكِ؟

– بكثير.

– أتعرف.. لقد قالت شيئًا جميلاً اليوم، عن الفرق بين الرجال والنساء. قالت: "الرجال حذرون بطبيعة الحال ولا ينجرفون نحو النهاية بفضول نهر، بل بفطرة سمكة. الرجال عديمو الفضول. واقعيُّون أكثر من حجر. أنهم يصنعون سدودًا

على الدوام، والكثير من الحدود، بينهم وبين من يعاشرون، حتى يكون من السهل التوقف والعودة إذا شعروا بالخطر أو باللا جدوى. الرجال محاربون. لا يستطيع الرجل العيش دون حرب. حتى في أوقات السلم النادرة في حياتهم، تجدهم يحاربون لتثبيت السلام.

أمّا النساء فبالرغم مما يقال عنهنَّ بأنهنَّ كائنات معقدة وصعبة الرضا والفهم، إلّا أنهنَّ يعشن الحياة بكلِّ طاقتهن، بكلِّ شغفهنّ، وبكلِّ استطاعتهنّ. لا يوفرْنَ جهدًا ولا حذرًا، ويجرين إلى المصبِّ دون سدود، لأن لديهنَّ القدرة على الرجوع بالقوة نفسها التي لديهنَّ على الجريان".

علاقة **شبنم بميرا** أصبحتْ مع الوقت أقوى من علاقة زوجيهما مع بعض. وجدتْ كلاًّ من **شبنم وميرا** في الأخرى ما ينقصها. **ميرا** المولودة لأُسرة سياسيَّة دبلوماسيَّة لأبوين يعملان ويسافران طيلة الوقت ولا يملكان غير بضع دقائق بين حينٍ وحين يتناقشون فيها مع المربيّة حول احتياجات الطفلة الوحيدة مع أربع أولادٍ ذكور يتم تربيتهم في مدرسة عسكرية داخلية. **ميرا** كانت تحلم بدمية ناطقة.

شبنم المدلَّلة والمُحتَجِبة عن الشمس وعن بنات العائلة، كانت بحاجة إلى شخصٍ من خارج عائلتها، من خارج العالم، ينظر للأمور بمنظار آخر، يمكن أن تفعل معه أشياء أخرى غير الأشياء اليوميَّة الروتينيَّة، غير سقاية تضاريس جسمها بالزيوت واللبن والعسل وتنقيعه بقشور الليمون والبرتقال وتدليكه

بالزعفران البِكر والتدريب على الطبخ وآداب المائدة والتطريز وصناعة المخللات والمُربَّيات.

وحسب توصيات السيَّدة **ميرا** فقد أرسل **هوفسيب،** الفلاح الذي يعمل عنده إلى جاره الشيخ الأفغاني يطلب حضور السيِّدة لمساعدة زوجته على الولادة، ووُلِد السيد **عباس المخيني** بعد مرور قرابة السنة على الحرب العامة. وقد وُلِد بسمرةٍ خفيفة وعينين رماديتين صغيرتين كخدش جرح. قطعة من اللحم الأحمر الصارخة، لا تعرف الهدوء ولا النوم، ولا الشَبع. وهذا ما جعل **هوفسيب** يخرج من عزلته قليلاً والاقتراب من جاره الشيخ أكثر، خصوصًا وأن زوجة الجار شبه مقيمة عنده في البيت.

بينما كان **هوفسيب** خارجًا من درس **الميرزا** في صحن **العباس** صادف جاره **الأفغاني،** فسارا معًا نحو البيت.

– ما الأخبار يا شيخنا؟

– لا شيء يشغل الناس غير الحرب، وليس هناك أخبارٌ غيرها.

– أنت تعلم أني لا أسأل عن الحرب. الله من بدأها وهو من ينهيها. ولا نعلم ما هي حكمته، إلّا أنَّها حتمًا خير، فكلّ ما يصدر عنه خير، لأن الله خيرٌ مطلق ومحض.

– يُذهلني هدوءك يا سيِّدنا **المَخيني**. أنت رجلٌ صالح، بل وليّ. الناس كلّها في واد وأنت في واد آخر. الناس كلّها متخوفة من الحرب وأنت تتكلم على أنها

خير.

أخشى أني لا أرى لها نهاية. كلُّ دول العالم اتفقت على أن تحارب بعضها البعض ولا نهاية قريبة لهذه الحرب العامة. لا بدَّ من القضاء على أحد الطرفين، وكلّ طرف عبارة عن امبراطوريات كبيرة وعظيمة ولن تنتهي بسهولة.

- الله أكبر وأعظم.

- نعم..

قالها الشيخ وكأنه يريد بها ختم هذا الحديث المعتاد، فهو في كلِّ مرّة يحاول أن يتحدث فيها مع **هوفسيب** حول العالم الواسع، يجرُّهُ إلى اللغة الدينيَّة المقتضبة المستسلمة التي تنتظر من الله أن يفعل لها كلَّ شيء، إلا أن الشيخ في أعماقه يحبَّ **هوفسيب** ويشعر بالراحة في الحديث معه، لكنه بقي صامتًا حتى وصلا إلى مفترق طرق بيتيهما، فقال الشيخ:

- تعال معي يا سيِّدَنا إلى البيت، فقد طلبتُ من الفلاح أن يبحث لي عن آخر ما تبقى من العنب غير الناضج، لدينا نوع من العنب يتأخر كثيرًا في النضج.. أحبُّ حموضته مع الملح.

- ربما في وقتٍ آخر.. أريد الذهاب إلى القنطرة الملاصقة لبيتي، التي يعبرها الناس إلى مقام الأمام **جعفر الصادق** عليه السلام. كنتُ قد طلبتُ من بعض الرجال صيانتها فقد تهدَّم طرفاها، وأظنهم سيكملونها اليوم.. وحقيقةً أنا خجلٌ منهم فقد وعدتهم بإعطائهم أجرهم إلا أني لا أملك شيئًا. لقد ذهبتُ **للميرزا**

علّه يساعدني، لكنه هو الآخر يشكو من العوز أكثر منّي. سأحاول ترضيتهم بسلال من الرمان والبرتقال والتين.. هذا إن أبقت زوجتي منها شيئًا فهي تصنع دبس الرمان ومربى التين والمشمش والبرتقال وتخزنها للشتاء.

– نعم أعلم ذلك وكذلك تفعل زوجتي... كان بودي لو كنتُ أستطيع المساعدة لكن الحرب، والحصار الشديد الذي يفرضه **الإنجليز** على **الأتراك** والحصار المتبادل من قبل **الأتراك والألمان**، واقفال القنصلية **البريطانية** في **بغداد** التي كانت تدفع نفقاتنا.. كلُّ هذهِ الأمور تخيفني وأعتقد أننا سنمر بشتاءٍ قاسٍ وربما لن ننجو.

– يقول الميرزا بأن الحرب ستنتهي هذا الشتاء بتصالح الدولتين، وستعود الأمور كما كانت.

– اسمح لي يا سيِّد **يوسف** بالقول بأن هذا تفكيرٌ ساذج. أتدري.. طالما أردتُ سؤالك حول انقطاعك إلى **الميرزا** وعدم ذهابك إلى دروس علماء كبار معروفين؟

الميرزا رجل بسيط، لا أظنُّ بأنه يضيف لك شيئًا، هذا إن لم يكن العكس وهو من يأخذ منك.

– أستغفر الله يا شيخ، **الميرزا** رجل واصل. أين أنا منه؟

– أنت من هو الرجل الواصل يا سيِّد **يوسف**، لكنك متواضع جدًا ومتكتِّمٌ جدًا.. الكلُّ يعرف بأن **الميرزا** رجل بسيط، إلا أتباعه يظنونه وليًّا. أريدُ أن أخبرك بشيء وأرجو ألّا تفهم كلامي على أني متحاملٌ على الرجل، بل أحبُّه

حقًّا. إنَّه رجل طيبٌ وشريف ومبارك، لكنه ليس وليًّا.

طلبَ مني مرّة السيِّد **علي خان النوّاب** عندما جاء إلى **كربلاء** في إحدى زياراته المتكررة مع معلمه أن أذهب لملاقاة **الميرزا** وأحكي له عن شكوكي وتساؤلاتي المحرّمة. عندما ذهبتُ لملاقاته وجدته نائمًا على جدارٍ ضريح حضرت أبي الفضل **العباس** عند الباب المؤدي إلى السوق العتيق. جلستُ على مقربةٍ منه على الأرض بانتظاره حتى يستفيق أو انتظار مريديه لينتهوا من صلاة الجماعة، فقد كان الوقت فجرًا والصلاة قائمة.

بعد قليل جاءني السيّد **النوّاب** بكوب شاي، وشكرني على استجابة دعوته والحضور سريعًا وقال:

-سماحة **الميرزا** يترك جسده هنا كلّ صلاة وخصوصًا كلّ فجر جمعة - كما هو الحال الآن - ويعرج بروحة الى المسجد الحرام ويصلي الصبح هناك وسيعود بعد قليل.

أدهشني كلامه، لكنّي شككتُ لحظة في أني أسأت فهمه فسألته:

- هل تعني أن هذا النائم هو مجرد جثّة. جسد بلا روح؟

- نعم، قال السيد **النوّاب** وأضاف: أن سماحة **الميرزا** من أصحاب الخطوة ويمتلك طَيّ الأرض.. وطلب مني بعد ذلك بإلحاح أن يعرف بماذا أشعر وأنا أراقب **الميرزا**؟

لم أجبه بشيء وبدأتُ بشرب الشاي منتظرًا عودة روح **الميرزا** من **مكة**، فلا يُعقل

أن أفكر بشيء غير ذلك.. لا يُعقل أصلاً أن أفكر بأن **الميرزا** يخدع أتباعه ولا يُصلي.

– هذه مقامات وحالات يا شيخنا لا يمكننا فهمها بالعقل والمنطق بل بقلوبنا.

أجابه **هوفسيب** ثمَّ استدرك بسرعة على غير عادته الصامتة وسأل الشيخ:

– وهل أخبرت **الميرزا** بالشكوك التي تعتريك يا شيخنا؟ وما هي الأسئلة المحرَّمة التي لا تجرأ على الحديث بها؟

– لا لم أخبره بشيء، فكما قلت لك أنا أراه رجلاً بسيطًا ومُباركًا ولم أشأ ان أقلق إيمانه وسكينته.

– هل يستلم **الميرزا** أموالًا من خيريَّة **أودة**؟

– الخيريّة هي وسيلة **بريطانيا** للدخول إلى الحوزة الدينية ورجال الدين الشيعة والسيطرة على انفعالات البعض الذي قد يسبب إزعاجًا، لكن ولأنك صديقي أود أن أخبرك أنه حتى في جماعة المتشددين الذين يكفّرون **بريطانيا** ويشتمون **الإنجليز**، هناك من يعمل معهم، ويستلم الخيريّة، **وبريطانيا** هي من طلبت منه تكفيرها وشتمها، كي تسيطر على كلِّ ردود الأفعال.. مضى الآن أكثر من ستين سنة **وبريطانيا** تدفع الأموال لرجال الدين في **النجف وكربلاء**، فلا تستبعد أن تمِّ تربية أطفال منذ ولادتهم على العمل معهم، ولا تستغرب لو أنك اكتشفت أن مراجع كبار ومن عوائل معروفة يتعاونون معهم وينفذون طلباتهم.

الفصل العشرون

في مساء ذلك اليوم قام **هوفسيب** الليل كلّه يطلب إشارة من الله. وقبيل صلاة الفجر جاءته **شبنم** بسلَّةٍ من الرمّان والعنب وجلستْ عنده وراحت تُفرِّط له الرمّان الذي يحبُّه حامضًا مع الملح.

– رأيتكَ تقوم كلَّ الليل فتوقعتُ أنك تنوي الصيّام غدًا، فأحببتُ أن تتسحر بشيء من الفاكهة.

– أنا محظوظٌ بكِ يا **شبنم**.

– بل أنا المحظوظة.

– أنوي الذهاب إلى دروس العالم الكبير السيِّد **محمد تقي الكربلائي** وحضور دورة فقهية لديه، بيته ليس بعيدًا من هنا.

– لكنك مجتهد يا سيِّد **يوسف** بشهادة **الميرزا** وآخرون، وآن الأوان كي تُعطي دروسًا وتشكل مدرستك الخاصة.

– وهل تعتقدين بأن أحدًا سيقتنع برجلٍ في مثل عُمري ويأخذ منه الدروس العالية؟ الطلاب يثقون باللحية البيضاء أكثر من ثقتهم بعقل صاحبها. ثمَّ أن

شهادة **الميرزا** وحده لا تكفي، فالبعض يقول إن **الميرزا** عِرفانيٌّ درويش أكثر مما هو فقهي أُصوليّ. كما أنني أرغب بالتبحُّر أكثر في علم الرجال.

– لا أحدَ يحبكَ مثل **الميرزا**. كنتُ أراه كيف ينظر إليك بفخر كلما زارنا. ولقد أضحكني مرّة حين قال لك أمام طلابه والعلماء الحاضرين بأنه كان ليعتقد بأنك الإمام **المهدي** لولا أنك أكثر بياضًا منه ولديك نمش، وإلّا فتدويرةُ وجهك تشبه تدويرة وجههِ وحتى شامَتَك البنيَّة الفاتحة، تشبه شامة الإمام **المهدي** وفي الموقع نفسه من وجهه الشريف.

– ولِمَ لا أكون أنا هو **المهديُّ** حقًّا؟ قال **هوفسيب** ذلك وهو ينظر مباشرة في عيني **شبنم**، وحينما رأى حدقتي عينيها تتسعان كثقبٍ في ثوبٍ يأكله النار، أبتسم وقال:

– أنتِ تتلصصين عليَّ إذن؟

– ولا أشبع من النظر والتحديق إلى وجهك يا مالك قلبي وعقلي وروحي.

وبالفعل فقد التحق **هوفسيب** بدرس السيِّد **الكربلائي**، وكان السيّد وأولاده فرحين جدًا، لأنَّ أخبار علم واستنباط وأخلاق **هوفسيب** قد انتشرت في كلَّ المناطق المقدسة والتحاقه بدرس السيّد **الكربلائي** دون غيره، يُعطي السيّد أفضلية على باقي العلماء.

ما لم يكن **هوفسيب** قد حلم به أو تصوره عند مجيئه إلى درس السيِّد **الكربلائي** هو مقدار اهتمام السيِّد به وتبجيله وتقديمه على الكثير من تلامذته كبار العمر

والمقام، فقد طلب منه من بعد الشهر الرابع على حضوره درسه أن يقاطعه ويناقشه ويُشْكِل عليه وكانت تدور بينهم حوارات مطوَّلة حول مسألة إشكالية ما، فكان **هوفسيب** يخالف بها أستاذه، وكانت أحيانًا تأخذ أكثر وقت الدرس، لكن الأغرب من هذا كلّه هو أن السيِّد **الكربلائي** اعترف في مرّتين بأن إشكال **هوفسيب** هو الحقّ وأنه واساتذته الذين أخذ عنهم؛ كانوا مُخطئين.

بعد فترة، تفاجأ **هوفسيب** أثناء إتمامهِ صلاة الظهر والعصر في مقام **الإمام الصادق** بوجود السيد **مصطفى الكاسنَوي** في الصفّ الثاني للمصلين خلفه. لم تزد الصفوف طيلة الأربعة عشرة شهرًا التي صلى فيها **هوفسيب** في المقام يوميًّا عن ثلاثة صفوف في أحسن حال.

– أنا مدينٌ لك باعتذار يا سيِّد **يوسف**.

– قدِمتَ خَير مَقْدَم يا سيِّد **مصطفى**.. تفضل يا مولانا لنذهب إلى البيت ولترتح قليلاً، لا بدَّ أنك تعبان، وبالطبع فإنك لم تتغدى بعد..

– أنا في **كربلاء** منذ البارحة، وقد نزلتُ كما هي عادة السيِّد الوالد عند مرقد العلاّمة **بن فهد الحلي**، في داره وبستانه التي أوقفها للزائرين. وأتيتُ إليكَ معتذرًا نادمًا على ما وقع منّي تجاهك..

– أنتَ صاحب الفضل عليَّ يا مولانا **الكاسنوي**، ولن أنسى معروفك وكرمك، ثمَّ أنّه لم يحدث شيء يا مولانا...

قاطعه السيد **مصطفى** ومدَّ يده وضغط على كتفه ونظر إلى عينيه بتركيز وقال:

– بل حدثتْ أمور كثيرة.. حدثتْ كلّها كما أخبرتَ أنت بها بالضبط. لقد ذهبتُ إلى مقاتلة **البريطانيين والهنود** مع العشائر وقاتلنا في **الشعيبة والقرنة وعربستان**. ربحنا جولة وخسرنا جولات واستشهد منّا الكثير، وأنهزم **الأتراك** وتركونا، فلمّا عدنا إلى **النجف** تبعونا وفتشوا بيوتنا في الليل والنهار وحاولوا تجنيدنا بالقوّة مع أن مدينتنا لا تخضع للتجنيد الإجباري. تحرشوا بنسائنا بحجة أن بعض الفارِين من الجيش يرتدون زيَّ النساء، ولما دافع الناس عن عرضهم؛ ضربتهم المدفعية حتى في مرقد الأمير. وحينما كتبَ السيّد الوالد إلى **الأستانة** يشرح فيها الوضع فجاء الردُّ بأن عليك الانصراف لأمور الدروشة ولا تتعرض لشؤون الحكومة. هكذا كافأنا **الأتراك** على مساعدتنا لهم. فما كان منّا إلا أن انتفضنا وطردناهم. والآن رؤساء الأحياء الأربعة هم من يحكمون المدينة وأنا معهم ممثلاً عن السيِّد الوالد.

لقد حدثَ ما تنبأت به يا سيّد **يوسف**. حدث بالضبط كما تنبأت يا سيِّدنا. وأنا جئتُ إليك طالبًا عفوك والرجوع معي إلى مدينتك فهي تحتاجك الآن أكثر من أي وقتٍ مضى.

– يا سيد **مصطفى**، أنا لا أحمل تجاه سماحتكم إلا كلَّ الودِّ والامتنان. كنتُ أعلم أنكَ لا تقصد ما قلته تلك الليلة، بل كانت حميتكَ على الدين هي ما دفعتك لذلك. أمّا ما يخص عودتي إلى **النجف** فأنا لا أملك أمري، بل أنا لا أستطيع ترك

معلمي **الميرزا**، ومتى ما عاد عدتُ معه.

– الحرب أهلكت الناس يا سيِّد **يوسف**. الجوع على الأبواب. ولا ندري ما نفعل. حتى الأموال التي كانت تصلنا من المؤمنين من بلاد **فارس والهند والطاجيك وداغستان** قد انقطعت، حتى خيريّة **أودة** قد توقفت. وأخاف أن الناس تبدأ بأكل بعضها البعض.

– والحال هنا ليست بأفضل من **النجف** يا مولانا. فالأهالي **والأتراك** في مناوشات دائمة ولولا هذهِ الأرض التي اشترتها زوجتي لَمِتنا من الجوع ومات معنا خلقٌ كثيرٌ ممَّن نشاركه ما تجود به علينا من بركات **الإمام المنتظر** روحي وأرواح العالمين له الفداء.

– ماذا عن والد زوجتكم؟ سمعتُ بانه رجلٌ مقتدرٌ ومقربٌ من **الإنجليز** ومن شيخ **المحمرّة** ومن **الشاه**؟

– لقد انقطعت اخباره منذ رحيله من **النجف** ولم نسمع عنه شيء.

– لقد تواصلنا مع **الإنجليز**. تواصل السيّد الوالد معهم واشترط عليهم أن يحترموا العتبة المقدسة ولا يعترضوا لها، وإذا ما التزموا بجانبهم من الاتفاق فإنَّ **النجف** والعشائر المحيطة بها ستكون معهم. وقد طمأننا **الإنجليز** بأنهم ليسوا ضد الإسلام أو العرب وأنهم يحترمون ديننا ورجالاته.

أنت في غنى عن معرفة أن السيِّد الوالد أراد بتواصله مع **الإنجليز** حماية الناس من انتقام **الأتراك** بعد طردهم من المدينة وحرق ونهب بنايات الحكومة. ولا بدَّ أنك تعلم أن أحد وجهاء **كربلاء** قد تواصل مع السير **بيرسي كوكس** وطلب

منه تنصيبه على ولاية مقدسة تمتد من **سامراء** إلى **النجف** وقد ردَّ عليه السير بِرَدٍّ وديٍّ مع كمية من المال دفع للسيِّد الوالد خُمسها، وكلُّ الأمور تُبشرُّ بخير ونتمنى من كلِّ رجال الدين ورجال العشائر أن يتفقوا هذهِ المرّة، كي لا تتكرر اخطاءنا.

– سماحتكم يعلم بأن موقفي من هذهِ الحرب هو الحياد. أنا لستُ مع **الأتراك** ولستُ مع **الإنجليز** وهذا موقفي بالأمس واليوم وفي المستقبل.

– ولكن لماذا دائمًا تكون ضدَّي؟

– أنا لستُ ضدَّك يا مولانا. أنا رجلٌ محايد. لا دخل لي في السياسة. أنا رجل دين.

– لتكن رجل دين إذن... أنت ومعلمكَ **الميرزا** الذي أجابني بأنه جاء إلى هذهِ الدنيا كي ينقذ نفسه فقط من النار، ولا دخل له بأحد. وكأنني أدعوه إلى النار.

– هو لا يقصد ذلك يا مولانا. هو يقصد بأنه رجلٌ عابدٌ زاهد لا دخل له بالسياسة.

– هل تريد ان تقنعني بأنه لا يبحث عن الرئاسة والزعامة؟ هل تريد أن تقنعني بأنك لا تبحث عن الزعامة؟ موقف الحياد هو موقف من يريد ألّا يُخطئ.. موقف من يريد أن يكون المنتصر على الدوام. لكنه موقفٌ جبانٌ وخسيس، فزعامة الحوزة تحتاج إلى رجلٍ شجاع مثل السيِّد الوالد، يقول لا حينما تكون لا في مصلحة الدين، ويقول نعم حينما تكون كلمة نعم في مصلحة الدين. الزعامة تحتاج رجلاً مسالمًا كالإمام **الحسن** عليه السلام يحقن الدماء إن كان العدو

طاغية مكار مثل **معاوية**، وتحتاج إلى ثائرٍ كالإمام **الحسين** عليه السلام حينما يتهدد وجود الإسلام من قبل طاغيّة كافرٍ لا يؤمن بنبي الإسلام مثل **يزيد**.
– اطمئن يا سيّد **مصطفى** لا أنا ولا معلمي نطمع في زعامة الحوزة.

ما أن تركه السيد **الكاسنوي** حتى سقط **هوفسيب** مغمىً عليه وحده في المسجد نتيجة الصرع الذي بدأت نوباته تزداد في الفترة الأخيرة وصارت تصل إلى الإغماء.

بدأت نوبات صرع **هوفسيب** تزداد. في البداية كانت النوبات عبارة عن لحظاتٍ طويلة من الصمت والتحديق في اللاشيء، وكان المقربون منه ومنهم **الميرزا وشبنم** يفسرونها على أنها حالة وجدٍ وجَذبٍ من الله لهذا الولي الكامل. ثمَّ بدأت تظهر رعشات وتشنجات خفيفة، والآن وصلت إلى حدِّ الإغماء لثواني بسيطة، وما زالت تُفسر على أنها من حالات الوجد والجَذب عند **الميرزا** لكن **شبنم** بدأت تقتنع أنها أعراض صرع – بالإضافة إلى أنها حالات جذب – بعدما شرحتْ لها **ميرا** بعض أعراض حالات الصرع المعروفة عند البشر منذ تأريخهم المُبكر الغارق في القدم.

كان شتاءً قاسيًّا نهاية تلك السنة. جوع وخوف. في **كربلاء** أكثر من **النجف** بقليل، لقرب **الحلة** من **كربلاء**. فقد وصلتهم أخبار المجزرة التي قام بها الجيش **العثمانيّ** في **الحلّة**، فقد دخل الجيش بحيلة أنه ذاهب **للسماوة** لمدّ الجيش **العثمانيّ**

المتوجه **للبصرة** لمحاربة **الإنجليز**، وطلب من الأهالي استقباله. اجتمع الناس عند (مشهد الشمس) المكان الذي رجعت فيه الشمس للإمام **عليّ** كي يصلي صلاة العصر بعدما فاتته وهو عائدٌ من **النهروان**.

وهناك أحاط الجيش بكل من حضر، وكان لديه الأمر بمحو المدينة من الوجود. في البداية دكَّت المدفعية المدينة لساعتين، وأبيحت بعد ذلك للجنود لمدّة ثلاثة أيام يفعلون بها ما يشاؤون من تنكيلٍ وعبثٍ وسلبٍ ونهب، راح ضحيتها ألفٌ وخمسمائة إنسان، ثمَّ شُكّلَ مجلس عرفي عسكري صُوَرِي، حكم على أكثرهم بالإعدام.. عُلِّقَ 127 شخصًا منهم على المشانق، ونُفي 237 آخرون إلى **برنكهام**.

بعد ذلك وللإمعان بالتنكيل قام الجيش بسبي النساء من العوائل العريقة وذات الشرف والمكانة في **بابل**، وبعثَ بهنّ جواري إلى **بغداد والأناضول** هديَّة إلى الجنود **العثمانيِّين** هناك ليُستمتع بهنَّ ولرفع معنوياتهم في جهادهم المُقدس.

مرَّت الأيام رخوة، لزجة، بائسة، لا شيء غير أخبار الحرب تنام عليها المدينة وتصحو، حتى جاء خبرٌ كقذيفة مدفعٍ عملاق وغطى على أخبار الحرب.

في فجر ليلةٍ دافئة من ليالي شهر كانون الثاني البارد سنة 1917، بعدما أفاق **هوفسيب** من لحظة إغماء سريعة وكان قد خرج على عادته لإقامة صلاة الفجر في مقام الإمام **الصادق** وأغمي عليه على القنطرة، شاهدَ رجلاً ظنَّ للوهلة الأولى من قفاه بأنه صديقه **يار**. كان الرجل يتوضأ من النهر، لكنه لما التفتَ

نحوه وابتسم وأضاءتْ أسنانه نورًا، عرف بأنه ليس **يار**.

توجه الرجل نحو القبلة وصلى ركعتين، ثمَّ طلب من **هوفسيب** الواقف مشدوهًا على القنطرة أن ينضمَّ له إن أحبَّ أن يقتدي به لصلاة الصبح؟

وجد **هوفسيب** نفسه مُقادًا لتلبية الطلب. صلى خلف الرجل ركعتي الصبح، وبعد التمام قال له الرجل:

– أنا ذاهبٌ إلى زيارة جدِّي **الحسين** فإن شئت مرافقتي حتى باب المرقد، فمرحبًا بك.

عند الباب الشرقي المؤدي الى مرقد **العباس**، قال الرجل **لهوفسيب**:

– أنتَ تُصنَعْ تحت أعيننا. فأجعل قلبكَ وعاءً لمشيئةِ الله، فإذا شاءَ شِئت، وعليك بالصلاة فما أُرغِم أنفُ الشيطان بشيءٍ مثل الصّلاة، فصلّها وأَرغِم أنفَ الشّيطان.

وما هي إلا لحظة حتى رأى **هوفسيب** معلمه **الميرزا** قادمًا نحو باب **الصافي** فهرع إليه كي يُسلم على الرجل.

– أيُّ رجلٍ يا سيدنا؟ أنا لا أرى معكَ أي رجل.

– هذا الرجل الداخل الآن.

– لا أرى أحدًا.

– لحظة.. لقد اختفى. كان هنا منذ قليل. لقد جئنا سويًّا من النهر. لا أعرف

كيف أتينا؟ كنا عند النهر منذ لحظات وفجأة وجدتُ نفسي هنا.
- لقد كنتَ في صحبة الإمام **المهدي** المنتظر يا سيد **يوسف**.

وهنا سقط **هوفسيب** مغشيًّا عليه.

انتشر خبر دخول الامام **المهدي** لمدينة **كربلاء** هذا الصباح وزيارة جده. الذين كانوا قريبين من **هوفسيب** ومعلمه، نشروا الخبر في الأرجاء. كان الجميع ينتظر معجزةً ما في هذا الوقت العصيب.

في ظهر ذلك اليوم طلب **الميرزا** من **هوفسيب** إمامة الجميع في صلاة جماعة في المكان الذي صلى فيه الإمام. تقرر بعد الصلاة إنشاء مقام للإمام **المهدي** في المكان، على غرار مقام الإمام **الصادق** القريب، فتبرع **هوفسيب** بالأرض وأوقفها للمقام لأنها من أملاكه، وقدّم **الميرزا** بعض الليرات الذهبية، كما تبرع بعض الحاضرين بالعمل المجاني لتشيد المقام، وبعدها بأيام تبرع السيِّد **الكربلائي** للمقام بأكثر من كلِّ ما جُمع.

بدأ توافد الناس للمقام بشكلٍ كبير. ولأنه على النهر وفي بيئةٍ طبيعيةٍ لم تُلوّث بعد بالأسواق فقد، كان نصيبه من النساء أكثر من الرجال. عجائزٌ، وأواسط، وشاباتٌ، وصغيرات، يجلسن عنده طويلاً ويثرثرن معه ومع بعضهنّ.
وبدأت تظهر بعض الممارسات العفوية مثل أن عجوزًا مات أولادها في الحرب فجاءت إلى المقام وأخذتْ حجارةً صغيرة ووشوشتها وألقتها في النهر، فتبعتها

بعض النساء، وأصبحت هذهِ العادة من العادات التي لا تكتمل زيارة المقام إلّا بها.

كان المقام عبارة عن حجرة صغيرة مربعة من الآجر على ضفة النهر اليسرى، تجمعت أركانها الأربعة عند السقف على شكل قُبَّة طُليت باللون الأخضر، وعند الغروب كانت القبة تشبه حجر الفيروزج.
في داخل الحجرة تمَّ تشييد محرابٍ من الحجر، تحته مُصلىً من الحجر نفسه في المكان الذي صلى به الشخص الذي رآه **هوفسيب**.
الحجرة مقفلة والمفتاح لدى **الميرزا** وحده، فكان الناس يأتون ويصلون في الخارج. وبدأ البعض يأتي كلَّ جمعة صباحًا ويقرأ دعاء **الندبة**. ثمَّ بدأت النذور تتوافد عليه.
في البداية كانت تُعطى للفلاح الذي يعمل في بستان **هوفسيب**، لكن بعض النساء والرجال كانوا يريدون وضع هداياهم داخل المقام وكانوا يُصرّون أن يستلمها السيد **المخيني** بنفسه، ومع ازدياد النذور صار لزامًا على **هوفسيب** أن يُعيِّن متوليًّا للمقام لضبط الأمور.

فكّر بعرض الأمر على جاره الشيخ الأفغاني، فمنزله قريب من المكان، ووضعه المالي جيّد فلن يطمع بالنذور، إضافة إلى أنه رجل دين وهذا مما يزيد من ثقة الناس بأن نذورهم وصدقاتهم ستذهب إلى الخير. فذهب إليه وجلسا تحت

عريشة العنب الكبيرة التي عادت اليها أوراقها مع الربيع وأمضيا الوقت بتدخين النارجيلة وشرب الشاي.

– ما رأيكَ يا شيخنا أن تتولى الإشراف على مقام الإمام **المهدي**؟

أنت رجلٌ من أنصار الإمام ومن خُدّامه ومنتظريه. المكان يحتاج إلى رجل دين وعلم مثل سماحتكم، فأغلب العوام يأتون للزيارة والتبرك ويحتاجون من يبين لهم الاحكام الشرعية في ابتلاءاتهم. والفلاح **حسين** رجل بسيط ولا يستطيع الإجابة على تساؤلاتهم وأنا مشغولٌ بدرسي ووردي كما تعلم.

ساعة واحدة، كلَّ يوم بعد العصر، تتواجد بها عند المقام، تكفي.

– لقد سيطر **الإنجليز** على **بغداد** وفرَّ **الأتراك** بلا رجعة بعدما هدموا المدينة ومعظم الآثار التاريخية.

– نعم سمعتُ بذلك.

– أنا ذاهبٌ إلى **بغداد** بعد الغد، لماذا لا ترافقني؟

– ماذا أفعل في **بغداد**؟

– كلُّ الوجهاء هناك الآن.. رؤساء الأحياء وشيوخ العشائر ورجال الدين، كلهم هناك لدى السير **بيرسي كوكس** يهنئونه بالنصر ويمدون يدَّ الصداقة **لبريطانيا** العظمى.

– أنا لا دخل لي في السياسة يا شيخنا، ألم تعلم ذلك بعد؟

– أنت رجل دين بارز يا سيِّد **يوسف**، ولا بدَّ لك ان تحزم أمرك وتقف مع

طرف. التذبذب لن ينفع بعد الآن وتعدد القوى لن يستمر طويلاً. المنطقة كلها ستكون خاضعة لقوّة واحدة فقط. واللبيب من يقف مع تلك القوّة.

– أنا أقف مع الله.

– والله يقف دائمًا مع الأقوى.

– أحيانًا أشكُّ يا شيخنا بأنك لستَ مسلم؟

– هل عليَّ أن أعيش دائمًا تحت السوط كي أكون مسلمًا يا سيِّدنا؟ هل إذا أشغلتُ عقلي وتدبرتُ العالم أخرج عن كوني مسلمًا؟ هل عليَّ أن أصدقَ بأنكَ رأيتَ الإمام **المهدي** وأتولى إدارة حجرة مقدسة لا تختلف كثيرًا عن حجرة إِيِّ إله **هندي**، أكون مسلمًا حقيقيًّا؟

– هل تشكُّ في أني رأيتُ الإمام **المهدي** يا شيخنا؟

– لا أشكُّ فيما رأيتَ بل أشكُ في مقدرتكَ على التميّز بين ما هو حقيقي وما هو خيالي.

– هل تقول بأني مجنون؟

– حدثَ أكثر من مرّة أنكَ وخلال الحديث معي تتوه وتسكت وتحدقَّ في اللاشيءُ، ويحدث أن يُغمى عليكَ أحيانًا وترى أشياء لا يراها غيرك، وهذا لا يعني بأن الآخرون عُميان وغير أتقياء، ولم يصلوا بعد إلى منزلتك، بل يعني أنك مصابٌ بالصرع.

أنا أكبر منكَ سنًّا يا سيِّد **يوسف** وقد وُلدتُ وعشتُ في بلادٍ كلُّ ما فيها آلهة وأنبياء وأولياء ودجالين وتُجار وَهْمٍ ومرضى. أنا جارك وصديقك ومن حقك

عليَّ أن أصدقك ولا أنافقك. فلا تغضب منّي.

يا سيّدنا، سبب تفوق **بريطانيا** علينا هي أنهم توقفوا عن صناعة الجهل ونحنُ ما زلنا نصنعه بأنواع فاخرة ونغلفهُ بالقداسة حتى لا يجرأ أحدٌ على كشفه.

أنا وأنت والكلُّ مشتركون في صناعة الجهل. الساكتون شركاء أيضًا. اسمع هذه الطرفة المضحكة المُبكية يا سيِّدنا: على الرغم من إعجاب شاه بلاد **فارس ناصر الدين** بالحضارة **الأوروبية**، إلا أنه كان يخشى تأثير الافكار **الأوروبية** على رعاياه ويكره أن تنتشر بينهم فكرة المشروطة على منوال ما انتشرت في **تركيا**. وقد صرح ذات مرَّة: أنه يود أن يكون مُحاطًا بحاشية من الأغبياء لا يعرفون عن **بروكسل** هل هي مدينة أم نوع من الخسّ.

– أنا لن أغضب منك يا شيخنا، فأنا لا أشك بصفاء نيَّتك وبصداقتك وجيرتك. وأفهم لماذا تفكر بالأمور بهذه الطريقة وما هي العوامل التي ساعدت على ذلك، لكن الإيمان بالغيب ليس جهلاً يا شيخنا. الإمام **المهديّ** عجل تعالى فرجه الشريف حقيقة ولقد رأيته حقيقة، وهذا الشرود والتيه ليس صرعًا، بل انجذاب الروح نحو الجمال الإلهي، ومتى ما تركتْ الروح الجسد فإنه يتعرض إلى نوبات وأمور خارجة عن ارادته لأنه لا شيء يستمر على طبيعته من غير الروح.

هذه الأمور لا يمكننا فهمها بعقلنا القاصر، بل بالرؤية، بالمشاهدة. العقل يا شيخنا قادر على التوهم بخلاف الرؤية. ما تراه هو الحق وما تفكر به وتتخيله

هو الوهم. لو أنك رأيتَ ما رأيتُ لما اتهمتنِ بالجهل والجنون والتوهم والمرض. الاختلاف لا يُفسد للودِّ قضية يا شيخنا. ونحن أبناء الدليل.. حيث ما مال نميل. كن بحفظ الله ورعايته يا شيخنا وأسمح لي بالذهاب فلم يعد هناك ما يُقال.

– قبل ان تذهب يا سيّد **يوسف**، اسمع مني هذهِ القصة التي لم أُحدِثْ بها أحدًا من قبل.

عندما ذبح أحد **الهندوس** ابني الوحيد أثناء زيارته **لتاج محل** في معركة من المعارك الكثيرة التي تحدث دائمًا بين **الهنود والمغول**، دخلتُ في دوّامة حزنٍ شديدة، لم أكن أظنُّ أن لها مخرج. كنتُ أسير في دائرة حزنٍ كبيرة، تأخذني إلى دوائر أصغر تقودني إلى دوائر جديدة تعود بي حيث مركز دائرة الحزن الكبيرة وهكذا.

في إحدى الليالي سمعتُ طرقًا خفيفًا على الباب.. مَنْ ذا الذي سيأتي في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ كيف تجاوز كلاب الحراسة، دون أن يروه؟

كان عجوزًا طويلاً لم أرَ منه غير لحيته البيضاء الكثّة أول ما فتحتُ جزءً من الباب، وحتى بعدما فتحتُ الباب كُلِّيًّا بقيَتْ لحيته تسدُّ المشهد. كان عليَّ أن أخرج من الباب كي أرى رأسه، وقبل أن أقول شيئًا، قال بأنه الله، وهو يريد التحدث معي قليلاً.

ابتعدتُ عن الباب، فدخل وسار أمامي إلى الصالة وجلسَ على المقعد الجلدي

الرماني القريب من المكتبة، وعندها بدى حجمه طبيعيًا. قبل أن أجلس طلب مني مشروبًا وتبغًا، فقلتُ له لا أملك إلا الماء، فأنا لا أشرب ولا أدخن - لم أكن أدخن التبغ حينها - ونحن في نهاية الموسم والبيت ينقصه الكثير، حتى أني لم أشرب الشاي منذ أيام بانتظار وصول إيرادات البساتين.

قال لا حاجة له بالماء، وأنه كان في المدينة واحتاجَ إلى الحديث مع أحد، وبما أني الساهر الوحيد الذي لم ينم بعد، فقد جاء للحديث معي وسينصرف بسرعة.

قال:

"أنا حائر فيما عسانِ سأفعل؟ يوم القيامة سيحل قريبًا، وما زلت غير واثقٍ بما عليَّ فعله"

كان يتكلم بهدوءٍ وحسرّة. الكلمات لم تكن تخرج من فمه كما هو الحال معنا. كانت الكلمات تتجسد. فتستطيع أن ترى الحيرة في جسد، وتستطيع أن ترى عدم الثقة في جسد، وكذلك يمكنك رؤية كيف تبدو كلمة آه، وبالطبع فكلمة القيامة كانت تشبه البيت الفارغ من الشاي.

قال:

"منذ سبعة آلاف سنة، بعثتُ رجلاً وأمرتهُ بقتل طفل، كان سيكبر ليكون مجرمًا. الطفل الآن نائمٌ عندي، ومحتارٌ أنا في مكانه بعد القيامة.. هل أضعه في النار؟ لأنه كان ليكون مجرمًا لو أنه لم يُقتل، ولكنه طفلٌ لم يرتكب جريمة بعد كي يُعاقب بالنار. هل أضعه في الجنة؟ لأنه طفلٌ لم يرتكب بَعدُ جريمة.. فلماذا

أمرتُ بقتله إذن؟"

كان بودي أن أسأله:

"لماذا أمرتَ بقتله وأنتَ قادرٌ على إصلاحه؟ أليس أنتَ قادرٌ على كلِّ شيء؟ وإن كنتَ لا تريد التدخل في طبيعة الأشياء، فلماذا تدخلتَ وقتلته؟"

لكنه غفى فجأة على الكرسيّ. كان يشبه سبعة آلاف سنة من التعب. حملته لأضعه في السرير. كان بخفَّة ريشة، وما أن وضعته في سريري في غرفة نومي، حتى شعرتُ بثُقلِ عربةٍ محمَّلةٍ بقذائف المدافع تسدّ الطريق، ورأيتني ممددًا هناك بجانبه في السرير .

كانت لحيته البيضاء الكثّة تُلامس وجهي. أعدتُ التفكير في كلامه وفكرتُ في جدوى القيامة، جدوى يوم الحساب، جدوى الحساب؟

هل تستطيع الجنَّة تعويضنا عن سنين التعب والشعور بالألم ووجع الفقد ومشاعر العجز وألم الندم؟

هل تستطيع الجنَّة إزالة الغصّة؟ الغصّة التي خرجت من الطين واختلطت بين طيّات الروح.

ما هي الجدوى من الحساب؟ أليس هو انتقام من الذين آذونا؟

ماذا ينفعني الانتقام من شخصٍ قَتَلَ وَلَدي؟ هل قَتلُ القاتل سيعيدُ المقتول؟

كيف أرضى بقتله وأُورثُ والده شعور ألم فقد ولدي؟ وإن كنتُ سألتقي بولدي يوم القيامة، فما جدوى إدخال قاتله إلى النار؟

كيف أستطيع العيش في الجنة والتمتع بالأكل والشرب والجنس وهناك من يَشتوون في النار ويصرخون؟ إن كانوا سيئين فلقد أصبحتُ سيئًا مثلهم بفقداني شعور التعاطف مع الغير.

ربما لا نكون نحنُ مَن نحنُ في الجنّة؟ كأن يمسح الله ذاكرتنا، أو يحولنا إلى كائنات جديدة؟ لو كان كذلك فلماذا كلُّ هذا العبث من خلق وصراع وألم ومرض وموت وبعث ونشور وحساب؟

أحسستُ بالرعب من نفسي لأني أفكر بهذه الأفكار.. رعبٌ يا سيِّدنا كما لم أشعر به من قبل.. رحتُ أحرك يديَّ لا إراديًا بكلِّ اتجاه، أحاول دفع لحيته عن وجهي بعدما دخل شعرها في فمي وأنفي وأذني، ومع ارتطام الموت بصدري، استفقتُ.

- هل تريدني أن أصدق بأنَّكَ رأيتَ الله؟

قالها **هوفسيب** وهو يقف مسرعًا وكأنه أراد للقصة أن تنتهي كي يهرب كما هرب من **ياعيل**.

- بل أريدك ألّا تنجرف كثيرًا فيما ترى أنت يا سيد **يوسف**.

الفصل الحادي والعشرون

منذ انتقال الشيخ الأفغاني وزوجته إلى **بغداد، وشبنم** تشعر بالغربة. كلَّمتْ **هوفسيب** أكثر من مرّة بالعودة إلى **النجف**، لكنه كان يرفض بشدَّة ويقول بأنه لم يتلقَّ الأمر من الإمام **المهدي** بعد. سادتْ بعدها فترة توتر بين **هوفسيب وشبنم** مردها إلى وحدتها وعزلتها وعدم اختلاطها بأحد، وانشغال **هوفسيب** في دروس وتقريرات وتدريس طلبة المرجع **الكربلائي** الذي صار يعتمد عليه في أمور كثيرة حتى أنَّه لم يعد يبدأ الدرس إلا بعد حضور **هوفسيب**، ولذلك فقد صار يتأخر عن البيت كثيرًا.

وبعد فترة من المشاكل العائلية المملة، وبتدخل مباشر من القنصل **الفارسي** وزوجته اقتنع **هوفسيب** بالسماح لزوجته وابنه **عباس** بالعودة إلى **النجف** لبعض الوقت والسكن في بيت القنصل، وبقِيَ هو في **كربلاء** حتى صدور الأمر المقدس له بالانتقال إلى **النجف** مجدَدًا. لكنها سرعان ما عادت بعد شهرين عندما وصل خبر غرق أبيها في شط العرب، وكذلك وصول طلب حكومة بلاد **فارس** لقنصلها في **النجف** بترك المدينة والتوجه إلى **طهران** استعدادًا لاستبداله.

تفاجأتْ بعد عودتها بزواج **هوفسيب** من ابنة المرجع **الكربلائي** الصغيرة ذات العشر سنوات **عفة الزمان**.

– كنتِ تشتكين الوحدة، فلا عذر لكِ الآن.. **عفة الزمان** ستكون معكِ دائمًا هي وخادمتها اضافة لزوجة فلاّحنا وابنتيه.. وبما أن عمَّتكِ وزوجها قد عادا إلى **طهران** ولم يتبق لكِ احدٌ في **النجف** فبإمكاني أرسالكِ إلى أمّكِ في **شيراز** لو شعرتِ بالضجر مرّة أخرى.

لم تجد **شبنم** جوابًا بعد هذه الحجة الدامغة المحكمة التي واجهها بها **هوفسيب** بعد عودتها إلى **كربلاء**، لذلك فقد تقبلتْ الأمر ولم تعترض، فأبوها قد مات.

انتهتْ الحرب وانتصر **الإنجليز والفرنسيون**، وبات مؤكدًا أنَّ **العراق** لن يعود إلى **تركيا** مجددًا.
لا أحد يعلم ما سيحدث. التغيرات أكبر من استيعاب الجموع. فقد نام الناس في **العراق** في القرن الأول للهجرة، واستيقظوا على صوت الطيَّارات.

خلال مدّة الحرب الطويلة تجمعتْ لدى المرجع الأعلى السيِّد **الكاسنوي** أموالًا شرعيّة طائلة. أخماسٌ ونذورٌ وهدايا وحقوقٌ شرعية، أعاقت الحرب توزيعها على الفقراء والمستحقين. وها هو يموت الآن مع انتهاء الحرب ويتركها مع خازنه الأمين السيِّد **مصطفى الكاسنوي** الذي يجب أن يسلمها إلى المرجع الجديد ويُخلي ذمته وذمّة أبيه. لو كان السيِّد **مصطفى** مجتهدًا ومرجعًا جامعًا

للشرائط لكان بمقدوره الاحتفاظ بالمال وتوزيعه بنفسه، لكنه انشغل في إدارة وتنظيم مرجعية والده عن طلب العلم والاجتهاد، وهذا شيء طبيعي، فنادرًا ما كان ابن المرجع مرجعًا.

منذ اليوم الأول لوفاة والده راح السيِّد **مصطفى** يدور على المراجع في **النجف**، علّهُ يحصل من أحدهم على وكالة شرعيّة لإبقاء المال عنده في مقابل اعترافه به أنه الأعلم والأصلح لخلافة والده، والطلب من وكلاء ومقلدي والده العدول إليه.

ليس هناك قاعدةٌ ولا طريقةٌ ولا نظام لانتقال المرجعية الدينية من شخصٍ إلى آخر. لا بدَّ أن يكون المرجع معروفًا عند الناس وتكون له مقبوليَّة لدى العلماء ويكون مدرسًا معروفًا ومشهودًا له بالنباهة والعلم والتبحّر في الفقه والأصول ورجال التأريخ ومواقفهم، ويكون ذا بطانة تعرف من أين يؤكل الكتف ومن أين تأتي الأموال. أما المجتهدون المتعففون العابدون الزاهدون فلا أحد يلتفت لهم ولا يلتفتون إلى أحد.

زار السيِّد **مصطفى** ثلاثة مراجع من الكبار، وكلّهم طلبوا منه تسليم المال إليهم وهم ينفقونه بحسب اجتهادهم. حتى أنَّ أحدهم طرده ووبخه وقال له أنت تريد مني أن أبيع ديني بعد هذا العمر الطويل، وأكون عبدًا عندك، تقول نُعطي

هذا ولا نُعطي ذاك.. وبالفعل مات ذلك المرجع بعد ذلك بفترة قصيرة وهو مبتسم لأنه أنتصر على الدنيا.

وحدث أن عرض الأمر على أحد طلاب أبيه، وكان شيخًا كبيرًا في السنّ، بعمر والده، بسيطًا وورعًا ومسالمًا، لكنه رفض أيضًا، فانفجر السيِّد **مصطفى** غضبًا منه لأنه لم يكن يتخيَّل بأنَّ هذا أيضًا سيرفض، فصفعهُ صفعةً وصل صوتها باب المسجد، وسقطت عمامة الشيخ وتدحرجت، وكاد أن يقتله لولا تدخل البعض وأمسكوه وأخرجوه من المسجد.

توجّهَ بعد ذلك إلى **كربلاء** وعرض الأمر على المرجع **الكربلائي**، لكن الأخير رفض وقال بأن الأموال ليست أموالًا شخصيّة ولا إرثًا، بل هي أموال بيت المال وعليه إعادتها وإن لم يفعل ذلك سريعًا فأنه سيصدر فتوى بهدر دمه.
كان موقف المرجع **الكربلائي** فضًا وصادمًا وغير مسايرٍ بالمرّة. يُرجِع البعض موقفهُ هذا إلى أنه رجلٌ قويٌّ صارم ولا تلومه في الله لائمة، بينما يُرجع البعض مرَّد ذلك إلى عداءٍ قديم بينه وبين المرجع **الكاسنوي** من أيام فتنة المشروطة.

ذهب السيِّد **مصطفى** بعد ذلك إلى **الميرزا** الذي رفض الأمر جملة وتفصيلاً قائلاً بأنه على أعتاب الموت ويعاني من وعكةٍ صحيَّةٍ مزمنة ولا يستطيع تحمل أعباء المرجعية الدينيِّة العليا.

عاد إلى النجف وهو شعلة غضب. يشتم هذا وذاك ويتلفظ بألفاظ نابية على كلَّ المراجع الذين تشمتوا بضعفه واحتياجه لهم، وقد كانوا من قبل يتمنون رضاه كي ينثر عليهم فتات جيوبه.

ما أن هدأ قليلاً، والسبب في ذلك يعود إلى **فرناز** وكان في بيتها، حتى أدرك بأن الأموال التي بين يديه قادرة على صناعة مرجعٍ من العدم.
كان المعروف عن والده المرجع الأعلى أنه لا يُعطي إجازة اجتهادٍ إلى أحد، لكن ختم والده ما زال في جيبه. ذهب إلى السيد **مرتضى الأصفهاني**، أحد تلامذة والده المغمورين. لقد حضر دروس والده لثلاثين سنة دون أن يُجيزه والده بشهادة اجتهاد. وهو يُعطي دروسًا في البحث الخارج منذ سنوات ولا يحضر عنده إلا القليل لعدم حصوله على إجازة من أحد المراجع. يُدعى **الأصفهاني** نسبة إلى مدينة **أصفهان** التي جاء منها. هناك من يقول بأن اصوله تعود إلى **لاكناو** الهندية، ويُقال أيضًا بأنه كان بوذيًّا أو سيخيًّا حين قدومه إلى **النجف** منذ خمسين عامًا، وكان في العشرينات من عمره حين ذاك، لكن لا أحدَّ لديه الدليل على ذلك، فالقال والقيل والاشاعات والاتهامات هي توابل هذه المدينة المقدسة، والأموال التي في حوزة السيِّد **مصطفى** قادرة على استئصال كلِّ تلك الشائعات واستبدالها بمعاجز وكرامات.

قَبِلَ السيِّد **مرتضى الأصفهاني** عرض السيِّد **مصطفى الكاسنوي** واعطاه وكالة مطلقة للتصرف بالمال الذي عنده وإبقاء كلّ وكلاء والده في كلّ الأقطار على

حالهم، واستلم في مقابل ذلك إجازة اجتهاد مختومة بختم المرجع **الكاسنوي**.

في اليوم التالي وكان يوم الجمعة وقبل صلاة الظهر والعصر في مرقد **علي بن ابي طالب**، أعلن السيِّد **مصطفى** من أمام مرقد والده، في الحجرة القريبة من محراب صلاته، والمدفون فيها أكابر علماء الشيعة وملوكهم، أنه قد قلَّد السيِّد **مرتضى الاصفهاني** وأنه يرجع إليه في كلّ شيء، وهذا ليس اختيارًا شخصيًّا بل تنفيذًا لوصية والده بالرجوع إليه بعد وفاته. ثمَّ فتح باب الحجرة ليخرج السيِّد **الأصفهاني** محفوفًا بالفضلاء من حاشيته وحاشية المرجع الراحل، فأعطاهم السيِّد **مصطفى** ختم والده وطلب منهم كسره كي يعلن بذلك اغلاق مكتب والده الراحل إلى الأبد.

عملية كسر الختم هذهِ هي عملية معروفة ومن بروتوكولات الحوزة العلمية المشهورة والتي تدل على أمانة وإيمان أولاد وحاشية ومكتب المرجع الراحل حتى لا يعبث أحد بتركته وحقوقه الشرعية وفتاويه وإجازاته.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى أصبح السيِّد **مرتضى الأصفهاني** المرجع الأعلى للطائفة الشيعية في العالم. وأصبح قليل الخروج من بيته، حتى أنَّه توقف عن إعطاء الدروس لانشغاله الدائم بشؤون المرجعية العُليا التي بدأت تتشعب وتتشابك وتتعقد مع الترتيبات الجديدة للعالم وتدخل **الإنجليز** في إدارة المدينة المقدسة بشكل مباشر بعد مقتل أحد قادتهم هناك، فلم يُرى المرجع الأعلى من قبل العامة إلا نادرًا، ولم يذهب لزيارة المرقد إلا مرّة واحدة، بعد تنصيبه مرجعًا

بشهرين، حينما ذهب للصلاة على جثمان السيِّد **مصطفى الكاسنوي** الذي وافته المنية في الطريق بين **النجف وكربلاء** نتيجة لدغة أفعى في استراحة على الطريق، وكان معه ابن المرجع **الأصفهاني** البِكر الذي أعاد الجثمان إلى **النجف**.

الفصل الثاني والعشرون

في الفترة الأخيرة كانت هناك فكرة مسيطرة على عقل **هوفسيب**، فكرة العودة إلى **النجف**. انه يتحول إلى مالك أرضٍ صغير بعمامة، وشيئًا فشيئًا سيتحول إلى فلاح. لقد حنَّ إلى الدرس والنقاش ونظرات الإعجاب في عيون أقرانه. تلك النظرات التي تشبع غروره. أنه يتحول الآن إلى أكثر شيء يكرهه.

حتى بعد أكثر من خمس سنوات في **كربلاء** قضاها في بيته الفخم المطلِّ على النهر وأرضه التي تشبه القنفذ من كثرة الأشجار المتنوعة فإنه كان دائم الحنين إلى رائحة أزقة **النجف** العتيقة الضيِّقة التي لم تعرف يومًا ماذا تعني كلمة شجرة ولم يعرف سكانها اللون الأخضر إلا كشعارٍ للسادة العلوية.

إنه يحنُّ إلى الأمان الذي لم يشعر به كما كان يشعر به داخل سور النجف.

وكعادته فأنه إذا ما احتار بشيء لجأ إلى **شبنم** التي قالت له:

– أنتَ رجلٌ مُسددٌ من الله، وهو الذي زرع هذهِ الفكرة في رأسك. عليك اتباع حدسك كما فعل جدّك النبيّ **إبراهيم**.

كما أنَّها دغدغتْ غروره بقولها إنه في **النجف** كان طوال الوقت سيِّد الناس بينما هنا هو مجرد تابعٍ لوالد زوجته الثانية، يقضي أغلب وقته في بناء زعامة غيره، وأولاد المرجع يعاملونه كصهر، والأصهار في العادة فرصهم قليلة في الوصول إلى الزعامة.

فقال لها:

– لكن هذهِ الأرض، هي من أنقذتنا طيلة سنوات الحرب العظمى. والآن فأن مدخول مقام الإمام **المهدي** بدأ يكون مصدر دخلٍ ثابت أيضًا، وليس لدينا أحدٌ في النجف.

– لديك بيت والدي في **النجف** وهو بيتك ولديك أنا وابنك السيِّد **عباس** والطفل القادم بعد شهور قليلة، وامّا الأرض والبستان والمقام، فهي بالتالي أموال، والأموالُ تُجبى إليك أينما تكون.

– تقول **عفة الزمان** أنها حاملٌ بتوءم.

– هذا كلام كلّ النسوان اللاتي يحملن أول مرّة، فلا يمكن للمرأة أن تعرف أبدًا ذلك.

أخبر **هوفسيب** مُعلمه وصهره بأنه عائدٌ الى **النجف** وأنه سوف يعود دائمًا إلى **كربلاء** في الزيارات والعطل، وبدأ يعدُّ للعودة.

بعد ذلك بلياٍل قليلة، بعدما عاد من صلاة المغرب، وجد **هوفسيب** جاره الشيخ **الأفغاني** يجلس بانتظاره، أمام الباب الخارجية للبيت. طلبَ منه مرافقتهِ إلى منزله حيث أنَّ هناك صديقٌ بانتظاره.

لما دخل **هوفسيب** إلى صالة جاره المضاءة بضوءٍ ناعس، قامت المس **بيل** وتوجهت نحوه وأشارت للشيخ بأن يتركهما وحدهما.

– هذا أنت يا **جوزيف**، أليس كذلك؟

– نعم يا خاتونة، هذا أنا.

– لقد وصل إليك لقب **الخاتونة**.

– ومن في الدنيا لا يعرف **خاتونة بغداد**، المس **بيل**، السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي والحاكمة الفعلية للبلاد.

– الحاكمة الفعلية للبلاد!؟ هذا إشاعة يا **جوزيف**. أنا مجرد مستشارة، لكن – بيني وبينك – الكلُّ يعتبرني نائبة المندوب السامي، وهذا من سوء حظي لأني امرأة، وإلا لكنتُ أنا المندوب السامي.

لم تتمالك إخفاء ضحكتها بعد عبارتها الأخيرة وأشارت إليه بالجلوس.

جلس **هوفسيب** قلقًا. بدت نُقط عرقٍ صغيرة تظهر على جبهته. قبض على لحيته الكثّة ومسَّدها أكثر من مرّة، وشعر بدوار خفيف، لكنه وكما عادته تقوقع على

نفسه وبلع لسانه وتكوّر مثل قنفذٍ خائف. بينما كانت المسل **بيل** سعيدة. سعيدة حقًّا. من يعرفها لم يرها بهذِه السعادة منذ فترة طويلة.

جاءت له بالشاي ووقفت أمامه وأمسكت بطبق الفنجان وهو ممسك بطرفه الآخر وقالت له:

– اسمع يا **جوزف**.. لا داعي لكلِّ هذا التوتر. لا أحد يعرفك ولم أخبر أحدًا عنك. لقد قلت للشيخ جارك بأني التقيتُ بك في طريقي إلى الحامية البريطانيّة في **الكوفة**، وقد أكرمتني فأحببتُ أن ألتقيك لأشكرك. هذا كلُّ شيء، ولقد حذرني من احتمالية رفضك، لأنكَ رجلُ دين متشدّد جدًا ولا تلتقي بالنساء أصلاً فكيف ستلتقي بامرأة سافرة مثلي، لذلك طلبتُ منه ألّا يخبرك بمن ينتظره. أنتَ لا تتخيَّل كمية السعادة التي شعرتُ بها حينما رأيتكَ بالأمس قبيل الغروب وأنت تعبر الجسر والضوء المتبقي من النهار يتكسر على وجهك. كنّا أنا **وميرا** تحت الجسر نجمع ثمار البرتقال وبقايا الرمّان. ما أن رأيتُ وجهكَ الوردي وشامتك الكبيرة الساحرة، حتى صرختُ في سرّي هذا **جوزيف**.. إنَّهُ حيّ. لقد حاولتُ معرفة اخبارك منذ أكثر من أربع سنوات، ولم أعثر لكَ على خبر. لقد أخفيتَ نفسك جيدًا يا **جوزيف**.

– وأنا سعيد بلقائكِ يا **خاتونة**.

– لقد عرفتني بسرعة، وهذا شيء يسعدني إذ يعني أنني لم أكبر منذ أن التقيتك قبل عشر سنوات، أو ربما أكثر قليلاً؟ لا أتذكر بالضبط.

– لم تكبري كثيرًا يا **خاتونة**، كما أني دائمًا ما أرى صورك في الجريدة.

– هه هه هه هذا هو السبب إذن، هه.

جلستْ المس **بيل** بقربه تراقبه وهو يحتسي الشاي. بدى كشخصٍ نبيل، لا يشبه رجال الدين وشيوخ القبائل الذين تلتقيهم باستمرار. قالت له:

– منذ متى لم تشرب الشاي بفنجان؟

– لقد نسيتُ أنَّ الشاي يُشرب بالفنجان، أنتِ تعلمين كيف يشربونه هنا، للوهلة الأولى وأنا ارتشف الشاي ظننتُ بأني داخل ذكرى. لكن ما الذي جاء **بالخاتونة** إلى **كربلاء** في هذا الوقت والنفوس لم تهدأ بعد وما زالت تحتفظ بنشوة الثورة؟

– كنتُ بحاجة إلى عُطلة قصيرة للاختلاء بنفسي، ولا أريد أن يخرجني أحدٌ منها كالمرّات السابقة. أصبح معروفًا بأنَّ على **الخاتونة** أن تقوم بكلِّ شيء، فالآخرون لا يريدون أن يُخطئوا، وأسهل طريق لعدم الخطأ هو ألا يعملوا أصلاً.

كنتُ أبحث عن مكانٍ لا يجدني فيه أحد، فاقترحت **ميرا** أن تستضيفني في منزلها في **كربلاء**. وجدتها فكرة ممتازة، فخرجتُ دون أن أخبر أحدًا عدا السير **پيرسي كوكس**.

لقد تركتُ مجلس الوزراء **العربي** مضطربًا على أمنية أن ينضج أعضاءه قليلاً ويحلّون مشاكلهم بأنفسهم، بدل الهرع إلى **الخاتونة** في كلِّ صغيرة وكبيرة. تركتُ معهم السيِّد **جون فيلبي**، فغيابي سيجعله يهتم بهم أكثر من طيوره التي يختار لها

أسماء النساء اللاتي كان معجبًا بهنَّ، وأتيتُ كي أفكر فيما بعد ذلك. ولي يومين أسأل نفسي: وماذا بعد؟

هذا أول مجلس حكمٍ **عربي** منذ الدولة **العباسيَّة** ينعقد في **بغداد**. إننا نؤسس لنواة دولة تكون الأولى في المنطقة التي سيقودها **عرب**.. أليس هذا حدثًا مُبهرًا أشبه بالمعجزة؟

- وزارة ليس فيها وزيرٌ شيعيٌّ واحد...

- هناك أكثر من وزير شيعي.

- وزير بلا وزارة.

- أتعرف.. الكلّ يعتقد بأن المشكلة التي تواجه تأسيس دولة في **العراق**، هي في عدم وجود طريقة فعّالة لترويض العشائر البدائية وتهذيبها وجرّها إلى التحضر. صحيح أن العشائر مجتمع غير متماسك ويفتقر للشعور الوطني والقومي، فهو عبارة عن مجتمع قبلي بدائي لم يتغير تفكيره منذ 4000 سنة وكلّ ولائهِ لقبيلته فقط، ولن يقبل بأن يترأسه شيخ غير شيخ عشيرته، ولا يعرف شيئًا عن العمل والضرائب والخدمة المدنية، إلا أني أرى أن أكبر مشكلة في **العراق** هم الشيعة. قادة الشيعة البارزون رعايا دولة أجنبية. ليسوا **عراقيين** ولا يريدون ان يتخلوا عن جنسيتهم الفارسيِّة الأصلية، كما أن هؤلاء الزعامات هم رجال دين فقط وليسوا قادة وطنيين يؤمنون بحكومة مدنيَّة وقانون مدنّي يتساو فيه الجميع من مسلمين (سنة وشيعة) ويهود ومسيحين وصابئة ويزيدين وزرادشتيّين.

الشيعة يتبعون رجل دين وينفذون أوامره هو فقط وليس لهم علاقة بأيِّ دولة.

الشيعة في بلاد **فارس والهند والعراق والخليج وأذربيجان وداغستان** – تجّارًا وعاملين ومزارعين – يدفعون ضرائبهم إلى رجلٍ في **النجف**. أليس هذا شيء يثير الجنون؟ لماذا يطالب الشيعة في **العراق** أن يكون لديهم وزير في الدولة وهم لا يؤمنون بالدولة؟

– لكنهم أكثرية يا **خاتون**، أليست الديمقراطية هي حكم الأكثرية؟

– هل تؤمن أنت بالديمقراطية؟ أقصد هل يؤمن الشيعة بالديمقراطية؟ ثمَّ أن الشيعة ليست أكثرية إذا ما أحصينا عددهم بالنسبة لمجموع عدد **العراقيين** بمختلف قوميَّاتهم وأديانهم، فآخر إحصاء للسكان قمنا به قبل سبعة أشهر أوضح أن عدد سكان **العراق:** مليونان وثمانمائة وخمسون ألفًا تقريبًا، ونسبة الشيعة هي النصف أو أكثر بنسبة بسيطة.

– هذا العدد مع سكان ولاية **الموصل** التي لم يتضح مصيرها بعد، أليس كذلك؟

– لقد كبرت كثيرًا يا **جوزيف**.. أعترف بأني أخطأت في تقديرك. نعم هذا العدد مع سكان ولاية **الموصل** التي يجب الحفاظ عليها وضمّها إلى **العراق** من أجل أن يكون هناك توازن مذهبي، فلا يمكن أن تخضع الدولة بكلّ مؤسساتها إلى نزواتِ رجلٍ مُسنٍّ مخرفٍ يقلب الطاولة على الكلّ متى شاء بفتوى، لأن الأكثرية في هذه البلاد هي الشيعة. ومع ذلك فأنا لا أعتقد أن النظام الديمقراطي صالح **للعراق** بل أفضل النظام الارستقراطي.

الشعبُ جاهلٌ كلّه. شعب لم يخرج من التأريخ. ما زال يعيش في بدائية ما قبل الحضارة. لا أقصد القرى والصحاري فقط، بل اقصد البلد كلّه بمدنه الكبيرة

كالبصرة وبغداد. ولاية **البصرة** كلها **بالناصرية والعمارة** لا تحتوي الا على مدرستين ابتدائيتين فقط؟ لا يوجد شارع واحد معبّد في **بغداد**. **بغداد** التي تخيلتها مليئة بقصور **هارون الرشيد** ذات القبب الذهبية والبساط السحري، وجدتها حافية.. بيوت طين وأكواخ من قصب، ونتانة، وقذارة، وظلام. مقارنة **بالقاهرة ودمشق، بغداد** خربة أو مقبرة على وجه الدقة. الحروب الطويلة بين **الأتراك والفرس** والعشائر والثارات والجهل والتعصّب والتشظي الديني جعل **العراق** مقبرة.

– وماذا بعد؟ هل توصلتِ لجواب على سؤالكِ هذا؟

– هناك عدّة خيارات مطروحة بعد فشل **ويلسون** في جعل **العراق** درَّة في التاج البريطاني ويخضع لحكومة صاحب الجلالة بشكل مباشر. وبما أنه لا يوجد شخص واحد في **العراق** يمكن أن يتفق عليه **العراقيون**، لذلك فالواجب يقتضي أن نأتي لهم بملكٍ من الخارج.. ربما أحد أنجال سلطان **مصر** أو سلطان **تركية**، أو أحد أنجال الشريف **حسين** أمير **مكة**.

استقدام ملك من الخارج ليس أمرًا جديدًا **فبريطانيا** العظمى لديها أسرة **ألمانية** حاكمة وكذلك **اليونان**، **ومصر** أيضًا لديها اسرة حاكمة من **ألبانيا**.

– ما الذي تفضله **الخاتونة** شخصيًّا، لأن هذا ما سيحصل أخيرًا.

– أنت تستفزّ غروري يا **جوزيف**.. ما أفضله شخصيًّا هو الأمير **فيصل** نجل الشريف **حسين**، لأن شريف **مكّة** له قدسية عند **العرب** لانتسابه للنبي، فلن

يختلف عليه السنّة وسيقبله الشيعة رغم أنه سنّي. كما قلت لك يجب أن تكون السلطة سنيَّة كي لا يتحكم بها رجل دين شيعي مختبئ في سرداب في **النجف**.

بعد فترة سكوت راحة، أو استعادة أنفاس لمواجهة أخرى، أو للحفاظ على حبل الود. قامت المس **بيل** بإعادة تعبئة فنجان **هوفسيب** بالشاي، ثمَّ قالت له:

- كيف أصبحتَ السيِّد **يوسف المخيني**؟

- توقعتُ أن تسأليني هذا السؤال مبكرًا... أخبرتكِ أن خالي قد اعتنق الإسلام، وكي يحميني فقد ادعى بأني ولده ولم يفرض دينه عليَّ.. وبعد فترة اعتنقتُ أنا أيضًا الإسلام، اعتنقته عن قناعة، وهكذا احتفظتُ بلقب خالي.

- هذا هو السبب إذن في أني لم أعثر عليك، فقد كنت أسأل عن فتىً صغيرٍ يعيش مع خاله في **النجف**. لقد بحثتُ عنك لأنني وعدتك بأنني سأوفر لك الحماية عندما أقدر على ذلك. صدقني أني فكرتُ فيكَ كثيرًا، وكنتَ تزورني في المنام أحيانًا، سأحكي لكَ عن حلم منها يومًا ما.

عندما رأيتكَ أول مرّة في القطار يا **جوزيف** وكنتَ وحيدًا، بقلبٍ جريح، وعينين حزينتين، رأيتُ نفسي. كنتُ وحيدةً جدًا ومجروحة جدًا وحزينة جدًا وقلبي مليءٌ بالبرد والرماد، منذ أن انتحر من أحببت. كان أول حبّ. أول الداخلين إلى قلبي الصغير الذي لا يتسع إلا لرجلٍ واحدٍ بأوصاف نادرة. كان الجميع يعتقد بأني أجوب البلدان بحثًا عن الآثار، بينما كنتُ أبحث عن السلوان. أتعلمُ اللغة بعد اللغة، وأُدون الأثر بعد الأثر، والقبيلة بعد القبيلة،

والمدن والجبال والأنهر والرمال، كي أهرب من قلبي.

بعدما تركتكُ وجدتني في الصحراء. الصحراء عشقي وشغفي وسعادتي.

الصحراء حريّة.

البشر يختنقون في الحياة بسبب ضيق الخيارات، بسبب ضيق طُرق العيش، والصحراء كلّها طريق. وجدتُ فيها الطريق إلى نفسي. اكتشفتُ ذلك في إحدى المرات اللاتي كنتُ أعبرُ فيها الصحراء وقت الغروب ولا شيء يسبقني إلا ظلي الرمادي على كثبان الرمال البرتقالية، عندها أدركتُ أن هذا الكون كله أنا.

بعدما استلمتُ عملي في **بغداد** بحثتُ عنك. كنتُ أود أن أحضرك إلى **بغداد** وأجد لك عملاً إن شئت أن تستقر بها، أو تذهب إلى **لبنان** عند أخيك.

– هل تعرفين عنه شيئًا؟

– لستُ متأكدة تمامًا، لكن هناك أخبار عن شخص يمتلك مسرحًا ومرقصًا في بيروت ملحقٌ ببارٍ ومطعم، لديه اسم أخيك ذاته. وصل لبنان قادمًا من **أضنة** قبل المجزرة، وقد كان أرمنيًّا، لكنه تحوَّل الى المذهب الماروني كي يتزوج بامرأة أحبَّها.. ربما يكون مجرد تشابه أسماء ليس إلّا.

على فكرة هناك صديق قديم لك في **بغداد**، سيفرح كثيرًا ما أن يراك.

– من هذا الصديق؟ أنا لا أملكُ أصدقاء.

– لن أخبركَ الآن، حتى أغريكَ لزيارتي في **بغداد**.

– لن أستطيع زيارتكِ يا **خاتونة**. طريقينا مختلفتين.

– نلتقي في المنتصف.

– لا يوجد هناك منتصف. إمّا حكم الله وإمّا حكم الشيطان. أنتِ تؤسَّسين إلى حكومة بشريّة لم ينزل الله بها من سلطان، وأنا أخاف الله ربَّ العالمين.

هل هناك ما يمكن أن أقدمه **للخاتونة** قبل أن أذهب؟

– أشكرك جدًّا يا سيِّد **يوسف المخيني**.. لكن أتمنى قبل أن تذهب أن تفسر لي حلمًا رأيته منذ زمنٍ بعيد وما زال يحيِّرني.

– تفضلي.

– رأيتُ تفاحتين على غصن شجرة تفاحٍ معمّرة. قالت الأولى للثانية:

"وماذا بعد؟"

فقالت الثانية:

"سنجتمع معًا في حياةٍ أخرى حيث لن نفترق أبدًا"

ثمَّ جاء رجل، قطف واحدة منهما، وقطعها بسكينٍ صغيرة الى نصفين متساويين واعطاهما لطفلتيهِ الصغيرتين. وبعد أن رحلوا، سقطتْ التفاحة الأخرى على الأرض وأكلها خنزير بريّ.

ما تفسير هذا الحلم يا سيِّد **يوسف**؟

– لا أدري يا **خاتونة**.. لا أدري.. عسى أن يكون خيرًا.

– إن عرفتَ تفسيره يومًا، لوددتُ لو أخبرتني.

– إن شاء الله يا **خاتونة**.. إن شاء الله.

بعدما عاد الشيخ من أيصال **هوفسيب** حتى باب البستان الخارجية، سأل المس **بيل** عن انطباعها عن السيِّد **يوسف المخيني**؟ فقالت له:

– مشكلة الدين يا **همايون** أنه يَحْتلكَ بكلِّك ويسلب منكَ هويتك الإنسانية الفرديَّة، ويصبح هو الهويّة الوحيدة، وبالتالي فإنه يجعلك عبدًا له وعبدًا للناطقين الرسميّين لإله الدين، الذين يفسرون نصوصهُ لك.

عندما تخسر هويّتك الانسانية الفريدة ستصبح رقمًا في قطيع.. تثور معهم، وتخاف معهم، وتنتقم معهم، وتأمن معهم. والدين بحاجة الى صراع مع الآخر كي يعيش، فالأديان تفقد بريقها وتذبل وتموت في حالة السلام. لا بدَّ للأديان من صراع يهدّد هويتك كي تستمر بحماية تلك الهويّة من الضياع، فتختلقْ صراعًا مع الأديان الأخرى والأفكار الأخرى، وإذا ما شعرتْ بخفوت جذوة تلك الصراعات بمرور الزمن وتطوّر الأمم، فإنها سوف تخترع صراعات جديدة داخل الدين نفسه هذهِ المرّة، فينقسم المتصارعون الى طوائف وأحزاب ومجموعات صغيرة تتصارع مع بعضها البعض.

هذهِ المجاميع الصغيرة تبقى قلقة على الدوام، خائفة على الدوام، مشكّكة على الدوام بولاء أتباعها وكميّة الكره لأعدائها، لأن بقاءها مرتبط ببقاء الصراع مع الآخر.

حينما رأيتُ السيِّد **المخيني** أول مرّة كان حملاً خائفًا، أما الذي رأيته اليوم فهو ذئبٌ مُخيف. يبدو أن قصة **يوسف** النبيّ تتكرر.. **يوسف** الذي كان خائفًا داخل

البئر خرج ليصبح فرعونًا، لكنّي أُحبه.

– الحبُّ مثل الربّ، حالةٌ مثاليَّةٌ وهميَّةٌ خياليَّة وضروريَّة. البشر بحاجة الى الوهم كي يتمكنوا من النجاة من عبثيّة الحياة، لذلك فهناك الكثير منهم عالقون في الصلاة، والكثيرون عالقون في الحبِّ.

عالقون مثل أمنيةٍ قديمة على شباك وليٍّ في قبرٍ فارغ.

– الحبُّ هو الشيء الوحيد الإلهي في هذا العالم يا **همايون**.

– لماذا أنتِ منحازة لهذهِ البلاد يا **خاتونة**؟

– العالم قد غرق في الطمع يا **همايون**. لقد وصلنا في **أوربا** إلى الهاوية ونحن نظنُّ بأننا وصلنا إلى قمّة الحضارة. الناس هنا ما زالت بِكر.. لا تعرف من الدنيا غير الزراعة ورعاية الحيوان وانشاد قصائد الغزل. لم ترَ سيارة بعد ولا تعرف شيئًا عن النفط ولا حياة السهر في القصور المتخمة بكلِّ شيء عدا القلوب. هذا الانسان **العربي** الذي يطلقون عليه: البدائي المتخلف، الجاهل، الهمجي، هو الحرُّ الوحيد على هذه الأرض يا **همايون**، وأنا واثقة بمساعدة بسيطة ستخرج أّمة من **العرب** تقود العالم إلى خلاصه، وأظنها الأمة **العراقية**. كلُّ ما علينا هو التركيز على **العراق** وعمل كلَّ ما علينا عمله لصنع دولة حرّة قويَّة سعيدة. كلُّ العناصر متوفرة لنجاح هذهِ الدولة. أرض كبيرة جدًا وخصبة، مليئة بالغابات والجبال والمياه والثمار والمعادن. يتفرع من نهريها العظيمين مئات الأنهار على طول الطريق إلى الجنوب، وعدد سُكانها مثاليٌّ كمعجزة. كلُّ هذه الأرض والخيرات لحوالي مليوني إنسانٍ فقط. تخيَّل أننا إذا استطعنا بناء دولة مدنية

مسامحة مُحبة قويّة غنيّة في المنطقة؟ أنا واثقة أن بقيَّة الدول المجاورة سترغب بالانضمام إلى هذه البلاد طوعًا وسترى الأمير **فيصل** يحكم على عرشٍ ممدود من حدود دولة **فارس** إلى حدود **مصر**.

– تقولين الأمير **فيصل**. هل أنتِ واثقة من أنه سيكون ملك **العراق**؟

– هو أو لا أحد. الأمير **فيصل** هو أفضل **عربي** في عصره. أنا أعمل ليل نهار من أجل خلاص **العراقيين** ومن أجل خلاص العالم ومن أجل خلاصي الشخصي. كلُّنا سنموت يا **همايون** وسنعود لنصبح ذرة رمال نكرة وأنا لا أريدُ أن أكون نكرة. أنا ذرة رمال صحراء حرّة.

– لكن هل يستطيع **العرب** فعل ذلك؟

– يقول **لورنس** أن **العربي** يتحلى بالخُلق ويحتاج الى ذكاء، لكن الحقيقة هي عكس ذلك تمامًا، **فالعربي** ذكيٌّ جدًا لكنه يحتاج الى خُلق، وهذهِ وظيفتي القادمة. سأجعل **فيصل** وأولاده وشعبه سادة الأخلاق والتحضّر.

الفصل الثالث والعشرون

كان من المفترض أن يعود **هوفسيب** إلى داره في **النجف** منذ شهرين، لكن وفاة **الميرزا** وتشكيك طلابه في موته، وقولهم أنَّ المعلم لم يمت بل في حالة وَجْدٍ طويلة وسيعود، ولم يقبلوا بدفنه حتى فاحت ريحته، كلَّ ذلك اضطره للتصدي للفوضى والاضطراب، وقام بدفن معلمه في مقام الإمام **المهدي،** وانشغل بترتيب شؤون طلبة استاذه التي أصبحت على عاتقه الآن، بعد هروب أحد طلاب **الميرزا** بأكثر من نصف الأموال التي كانت في عهدته. وبعد عدّة محاولات ووساطات عادتْ ثلثي الأموال وتمَّ السيطرة على ما تبقى وقام بتنظيمها وتوزيعها على الطلاب، وتعهد أيضًا بإكمال درس **الميرزا** الفقهي ووعدهم بأن الدرس سيستمر لكن في **النجف،** ورفض في الوقت نفسه درس **الميرزا** الأخلاقي وأوصاهم بالرجوع إلى غيره فيه.

وبعد ذلك بأيام توفي المرجع **الكربلائي** – والد **عفة الزمان** – عن عمرٍ ناهز السابعة والسبعين فأنتظر **هوفسيب** أسبوعين آخرين.

عاد **هوفسيب** إلى **النجف** هذهِ المرّة وهو مصمِّمٌ على عدم الخروج منها مرّة

أخرى. في البداية كان يُعطي دروسه في بيته لكن الموتورين من حاشية صهره المرجع **الكربلائي** ومعلمه **الميرزا** وجدوا له مسجدًا قريبًا من ضريح **علي بن أبي طالب** من جهة المقبرة، لا يرتاده غير الحمّالين والدفّانين ولصوص المقابر، فقاموا ببعض الإصلاحات في الداخل، ولطخوا الحائط الخارجي بالحنّاء، وعيَّنوا لهُ حارسًا ومؤذنًا، وتركوا الباب مواربًا لكلِّ من يرغب من اللصوص والأشقياء في التوبة والعمل في الحاشية.

سُمِّيَ المسجد، بالمسجد **الأقمر** نظرًا لجمال وجه السيِّد **المخيني** الذي يُقيم الصلاة فيه ويُلقي درسه، وتطور الأمر لتُوزَّع فيه الشهريات والعطايا والنذور. كان المسجد في بدايته يتسع لخمسين شخصًا، لكن بعد ذلك بسنوات قاموا بتوسعته وتجديده ليصبح المسجد الأهم في المدينة بعد ضريح ومرقد **علي بن ابي طالب**.

بعد عودته بثلاثة شهور وفي إحدى المرّات التي كان فيها يُلقي البحث الخارج على طلبته الذين بدأوا بالازدياد، دخل خادمه وشاوره بشيء، إلا أن **هوفسيب** استمر في الدرس حتى الآخر، وبعدها نادى على رئيس دفتره وكان أخو زوجته **عفة الزمان** وأسرَّ إليه بشيء، فأطرق الرجل مليًّا ونظر إلى **هوفسيب** بعد ذلك بنظرّة بلا ملامح، ثمَّ طلبَ من ثلاثةٍ رجال آخرين مرافقته وخرج من المسجد، بينما بقي **هوفسيب** لإداء صلاة الظهر والعصر إمامًا للطلبة والحمّالين.

في اليوم التالي ولعدم حضور **هوفسيب** للمسجد، علمتْ المدينة المقدسة أن السيَّد **المخيني** واصل درسه ولم يقطعه وبقي في المسجد حتى صلى في الناس صلاة الظهر والعصر، رغم وصول خبر وفاة زوجته الحامل **عفة الزمان** بعد سقوطها في بئر الدار يوم أمس. وهذا الفعل لا يقوى عليه سوى النوادر من الأولياء.

– كيف حدث ذلك يا **شبنم**؟ أينَ كنتِ وأين كانت خادمتها؟ ولماذا طردتِ خادمتكِ قبل يوم من ذلك؟

– طردتُ الخادمة لأنها سَرَقَتْ، وهذهِ ليست أول مرّة، لكنِّي لم أخبركَ بذلك من قبل لحبِّي للستر، ولأن زوجها خادمك وأنت تفضله على غيره، لكنها تمادت كثيرًا. لا بدَّ أن **عفة الزمان** قد احتاجت الماء ولم تجد خادمتها فقرَّرَتْ أن تجلبه بنفسها فسقطت في البئر، وكنتُ نائمة فلم أنتبه، حتى رجعتْ خادمتها وعثرتْ عليها فصرختْ.

– خادمتها تقول أنكِ من بعثتها للسوق.

– نعم، أنا من بعثتها للعطار لحاجة تخص النساء. موت **عفّة الزمان** يا سيِّد **يوسف** كان قضاء الله وقدره، وأنتَ خير من يؤمن بقضاء الله وقدره.

أنجبتْ **شبنم** طفلها الثاني **جمال الدين** بعد أيام من تولي الملك **فيصل** عرش **العراق** المستحدث. كان الجميع يتحدث عن المستقبل بعدما يأسوا من تحقق أمانيهم، فالبعض كان يود عودة الخليفة **العثمانّي** أو أحد أنجاله، والبعض كان

يتمنى لو أن أمير **المحمّرة** الشيخ **خزعل** من أعتلى العرش، والبعض كان يحلمُ بالجمهورية.

الجو العام السائد في المدينة المقدسة بين المراجع وحاشيتهم وأتباعهم كان معارضًا لتولي الملك **فيصل** العرش. أنَّه الخوف من المجهول.. نسبةُ الذي يزاحم قدسيتَّهم، وعربيَّتِهِ التي تعارض فارسيَّتهم، ومذهبه الذي يختلف مع مذهبهم، ببساطة هو الخوف من تكرار الأمر. الخوف من الاستئثار بالسلطة والثروة.

لكن لا شيء من هذا في بيت ومسجد السيِّد **المخيني**، فهو لا يهتم بالسياسة وينصح طلابه واتباعه بالابتعاد عنها والتركيز في الدروس والعبادة.

موقفه الراسخ بعدم التدخل والبقاء على الحياد حبَّب الجميع إليه. كلُّ الفرقاء ينظرون إلى حيَّاديتهِ على أنها انتصارٌ لهم – فما دام هو ليس ضدّي فيمكن اعتباره معي في وجهٍ من الوجوه – هناك من يرون من موقفه هذا ضعفًا، إلا أنَّ موقفه الضعيف هذا من الأحداث هو سبب قوته وتفرده والتفات الناس حوله، فقد بدأت تصله الهدايا من البلاط **الفارسي والروسي** وأصحاب الأموال والجاه في الأراضي **الهنديَّة** وكلُّ هذا يحدث تحت عين ونظر حكومة صاحب الجلالة الامبراطورية.

كثُر طلابه وأصبح بحث الخارج الذي يلقيه في المسجد **الأقمر** من أهم الدروس في المدينة، ليس لأنه الأكرم بتوزيع الأموال على الطلبة فقط، بل بما عُرف عنه

من قدرته العقلية الهائلة وذكائهِ الحاد وسعة علمه ومعرفته وتواضعه وهدوءه الذي كان محط إعجابٍ وذهول الجميع، فلم يُرى غاضبًا قط ولا ملولًا ومُستَفزًّا، إلا في مرّة واحدة عندما كان يجلس في غرفته الخاصة لاستقبال الخواص ودخل عليه ابنه البكر السيِّد **عباس** ذو السنوات السبع وهو يرتدي عمامة رجال الدين، فأحمرَّ وجهه واتسعتْ عينيه وقطع حديثه وامسك بيد ولده وادخله إلى داخل البيت، وهناك صرخ بوجه **شبنم**:

– ألم أنهكِ من إلباسه هذا الزيّ يا امرأة؟

– لكنه يريد ذلك، يريد أن يكون عالمًا مثل أبيه.

– ومن يُريدُ عالِمًا أبرصًا؟ ألا تفهمين بأنهُ أبرص؟ كلُّ هذه البقع في جسده وحول عينيهِ وفي شعرهِ ولم تدركي بعد بأنه أبرص؟

– وهلْ على الأبرص أن يموت؟

– بل عليه أن يعرف أين موقعه بالضبط من كلِّ هذا ويعيش الحقيقة ولا يتبع الوهم.

ثمَّ مسح دموع **عباس** وقال له:

– هذهِ آخر مرّة أراك فيها تبكي. أنت رجل. أنت أبني الكبير، ونحن كلّنا في حمايتك ورعايتك. أنت من سيحمينا من الذئاب التي تريد افتراسنا ومن الكلاب التي تنبح علينا. أنت ستكون السيّد المطلق من خلف الستار. ستلبس

بذلة مثل أولاد الملوك وستعيش في **بغداد**. ستكون الواسطة بيننا وبين رجال السياسة والجيش والأحزاب. ستقوم بأعمال لا أستطيع القيام بها.

قالت **شبنم** بعدما قبَّل **عباس** يد أبيه وخرج مسرورًا:

– يبدو أنك تعده ليتولى عنك الأعمال القذرة؟

صفعها **هوفسيب**، وقال لها:

– ما أشبهكِ **بعائشة**.

الفصل الأول:

من أنت حقًّا يا **يار**؟ هل أنت **عنبر** أم **فوح** أم **جودي** أم لا أحد، أم مجرد فتى منغوليٍّ مجنون؟ لقد رافقتني طوال حياتي دون أن أعرفك حقًا. لقد كان لك الفضل في مساعدتي على الدوام. كنت أجدك في أحلك حالاتي. أليس من حقي عليك أن أعرفك قبل أن أموت؟ أنا أظنُّ بأننا وصلنا إلى النهاية. أشعر بأني سأموت بعد قليل، أليس كذلك؟

– نعم ستموت خلال الأسطر القادمة. هذا آخر مشهدٍ في حياتك.

– من أنت؟

– السؤال الحقيقي هو من أنت يا **هوفسيب**؟

– أنا **هوفسيب ملكيان**.

– أنت واهم يا **هوفسيب**، فلا وجود **لهوفسيب**. أنت بطل روايتي. أنت شخصية في رواية أنا اكتبها منذ خمس سنوات. أنا المؤلف يا **هوفسيب**. وأنا أيضًا مجرد شخصية في رواية أحدهم، لكني كنت كريمًا معك أكثر من مؤلفي، لأني أخبرك بالحقيقة ولم أتركك تموت دون تعرف بأنك مجرد عبث.

– هذه أجمل تعزية حصلتُ عليها في حياتي. أشعر بالراحة الآن حقًا، فلقد كنتُ

أشعر بالندم على كثير من الأمور التي اقترفتها وكنتُ أظنُّ بأنني لو كنت أكثر حذرًا فقط، لو كنتُ أكثر صبرًا فقط، لو أني تمهلتُ قليلاً وفكرتُ كثيرًا لتغيرت حياتي، لكنني الآن لا أشعر بالندم لأنني أدركتُ أن كلَّ شيءٍ قد حصل لأنك تريده أن يحصل ولم يكن لي القرار في شيء.

– لقد أعطيتك بعض الحريَّة يا **هوفسيب** لكي تختار، لكن معك حق، فبالمحصلة لن تؤثر خياراتك في الحبكة العامة للرواية.

لو أنك تتذكر ظهوري المباشر لك في الرواية.. لم يكن كلَّ ذلك التدخل لمساعدتك فقط، بل كان للخروج من المأزق الذي وصلت إليه الأمور، من المأزق الذي وضعتُ نفسي فيه، ولإعادة الرواية إلى مجراها الذي خططتُ له.

– لم أفهم.

– مثلاً حينما طرقتُ عليك الباب فجرًا وأخبرتك بالطريقة التي ستتخلص بها من جثَّة خالك الذي قتلته؛ كانت الأمور ستكون معقّدة لو لم أتدخل، فأنتَ شخص جديد في المدينة ولا تعرف لغة أكثر ساكنيها ولن تستطيع تدبر هذا الشيء وحدك، فتدخلتُ ودللتك على الطريقة وعرفتك على الدفّان ودفنته في أقدس مكان في المدينة المقدسة، وتركتك تُكمل حياتك وتكمل قصتي ونعود من جديد إلى الجو العام للرواية بعدما تأزمت الأمور وخرجت عما كنت أرغب في كتابته.

حتى أني زوّرتُ التأريخ من أجلك. أصعدتكُ قطارًا لم تكن سكته قد مُدَّت بعد، واجلستكُ مع امرأة لم تكن في العراق في ذلك الوقت، لكن ومع ذلك فأنت من

قتلت خالك يا **هوفسيب**. لم أكن أنا لأقتله، أنا قد كنتُ رسمتُ له مصيرًا مختلفًا. أنت مَنْ تزوجتَ من **عفة الزمان** ولم يكن في خاطري أبدًا أن تتزوج غير المرأة التي اخترتها لك، لكني أعترف أنِّي مَنْ أغوى **شبنم** على قتلها.

ما أريد قوله هو أننا شريكان في كلِّ شيء. شريكان في الفضيلة والرذيلة، في الخير والشرّ، في العبوديّة والتمرُّد، فأنت حينما تتمرد تكون أنا، وأنا حين أنصاع للأمر الواقع أكون أنت.

والآن حان وقت موتك، سيدخل عليك بعد قليل ضابط أمن مقرّبٍ من الرئيس، سيجدك ميِّتًا، سيقوم بالبصق على وجهك، ويأمر برمي جثتك إلى الكلاب. سيضع في تابوتك حجرًا ويُصدر أمره بدفن التابوت بلا غسلٍ ولا تكفين، مخالفًا بذلك الشريعة، فلا شريعة أقوى من شريعة الحاكم.

سأكون في انتظارك عند الخِرِبَة خلف المستشفى حيث سيرمون جثتك، سأحملك بعربتي التي حملتكَ من المرسى إلى محطة القطار في أول يومٍ وصلت فيه إلى **البصرة** قبل ستٍ وتسعين سنة. سأدفنك بعيدًا عن كلِّ الصخب الذي عشت فيه. سأرجعك للعدم الذي أتيت منه.

– سؤال أخير قبل النهاية.. عندما تركتُ **ياعيل** عند النهر، وعندما دخلتُ إلى الحوزة، وعندما قتلتُ خالي، وعندما شككتُ بأن **شبنم** هي من قتلتْ **عفّة الزمان**: لم أشعر بشيء وكأني فارغ.. هل هذا حقيقي؟ هل من الممكن ألا يشعر الأنسان بشيء في هكذا مواقف، أم أنكَ أردتَ هذا؟

– عليك أن تدرك يا **هوفسيب** بأنك مجرد شخصٍ عادي، وربما أقل من عاديٍّ،

وأنك شخصٌ بليد المشاعر مثل كثيرين. الصدفة من جعلتكَ ضحيّة وهي نفسها من جعلتكَ جلادًا. حتى نبوغك وتميّزك على طلاب العلوم الدينيّة أقرانك ليس دليلاً على عبقريتك بقدر ما هو دليلٌ على غبائهم وبلادتهم. أنتَ لست اسطورة، إنما الناس من صنعوا منك اسطورة. لا تقسو على نفسك، كلّنا من صُنع الصدفة.

نمْ يا صاحبي، فقد حان الوقت كي نعلن نهاية الرواية، ونترك القارئ في حيرته المقدسة، فربما في هذه اللحظة سيبدأ باستعادة شريط حياته بحياديَّةٍ وتجرد، علّهُ يستطيع الإجابة على السؤال الذي سيسأله لنفسه: مّنْ أنا؟

انتهت